

العلوم الاجتماعية



العدد التاسع عشر أيلول / سبتمبر ٢٠١٦

مارلين حيدر نجار
مهاكيال
يوسف كفروني

مهاكيال

Joseph Khoury
رجاء مكي
علي موسوي
سعاد سليم
خالد زيادة

- تقديم عميدة معهد العلوم الاجتماعية.
- افتتاحية.
- إستيمولوجيا علم الاجتماع.
- الملاحظة في البحث الاجتماعي: من المرحلة التحضيرية إلى مرحلة معالجة النتائج.

Les Sondages d'Opinion Publique:

Outils de la Recherche Action.

- المقابلة في البحث الاجتماعي.
- تقنية الاستمارة (الاستبيان) في البحث الاجتماعي.
- تعدد أنواع الوثائق ومنهجية دراستها.
- استخدام الوثائق في البحث الاجتماعي.

مجلة دورية متخصصة تصدر عن مركز الأبحاث في معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية

العلوم الاجتماعية

مجلة دورية متخصصة ومحكمة تصدر عن

مركز الأبحاث في معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية

المشرف العام:

مارلين حيدر نجار

عميدة معهد العلوم الاجتماعية

رئيسة التحرير:

مها الكيال

رئيس مركز الأبحاث في معهد العلوم الاجتماعية

الهيئة الاستشارية للمجلة: سليمان الديрани، رجاء مكي،

مريانا الخياط صبور، طانيوس جرجس،

حسين رحال، لبنى طربية

العنوان: بيروت - مستديرة الطيونة - سنتر Céline - بناية كالوت - الطابق الرابع

تلفون: ٠١/٣٨٧٨٨٩ - محمول: ٠٣/٥٧٠٧٨٥ - تليفاكس: ٠١/٣٨٧٨٦١

E. mail: maha.kayal@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

فهرس المحتويات

٥	مارلين حيدر نجار	تقديم عميدة معهد العلوم الاجتماعية
٧	مها كيال	إفتتاحية
٩	يوسف كفروني	إستيمولوجيا علم الاجتماع
٦١	مها كيال	الملاحظة في البحث الاجتماعي: من المرحلة التحضيرية إلى مرحلة معالجة النتائج
١٠٧	Joseph Khoury	Les Sondages d'Opinion Publique: Outils de la Recherche Action
١٢٧	رجاء مكّي	المقابلة في البحث الاجتماعي
١٤٥	علي موسوي	تقنية الاستمارة (الاستبيان) في البحث الاجتماعي
١٨٥	سعاد سليم	تعدّد أنواع الوثائق ومنهجية دراستها
٢٠٥	خالد زيادة	استخدام الوثائق في البحث الاجتماعي
٢١٣		شروط النشر في مجلة العلوم الاجتماعية

تقديم

مارلين حيدر نجار

عميدة معهد العلوم الاجتماعية

في افتتاحية العدد التاسع عشر من مجلة العلوم الاجتماعية والذي يتوافق صدوره مع بداية تكليفي عمادة معهد العلوم الاجتماعية، أردت أن أعرب لكافة الزملاء عن طموحاتنا في أن نعمل سوياً، مع مركز الابحاث الذي يتولى إصدار هذه المجلة، من أجل تفعيل البحث العلمي ومساندة الزملاء في تطوير وتقييم ونشر أعمالهم البحثية، ليستعيد معهدنا دوره الرائد تاريخياً في هذا الإطار.

إنّ استعادة هذا الدور الذي نعتبره هدفاً أساسياً منذ تولينا المسؤولية، سيدعم بالكثير من النشاطات والمؤتمرات سواءً على مستوى العمادة أو حتى على مستوى الفروع الخمس لمعهدنا.

وفي السياق عينه، نؤكد اننا لن نهمل الاهتمام بالشق الأكاديمي، فنحن مستمرين في مراجعة وفي تطوير برامجنا التعليمية وفق نظام الـ LMD، وسنبدأ السنة الأكاديمية القادمة باستكمال فصول الإجازة وفق هذا النظام مع فتح الماستر MI بشقيه المهني والبحثي.

إنّ هذه الكلمة المقتضية أردناها دعوة للزملاء جميعاً في معهد العلوم الاجتماعية، للتفاعل العلمي البناء، من أجل تطوير معهدنا ليتوافق وحلمنا جميعاً الذي تحمله رسالته المتمثلة في معالجة المشكلات المجتمعية في مؤسسات الدولة وفي القطاعات المنتجة، من أجل ترسيخ الهوية الوطنية، والمساهمة في تحقيق التنمية الشاملة والمتكاملة للمجتمع اللبناني، وفي تعزيز انفتاحه الحضاري، وفي توسيع مجالات التعاون العلمي والثقافي اللبناني مع الخارج.

إفتتاحية

مها كيال

رئيسة مركز الأبحاث

تهتم مجلة معهد العلوم الاجتماعية، وهي الدورية المتخصصة والمحكمة، التي تصدر عن مركز الأبحاث في معهد العلوم الاجتماعية - الجامعة اللبنانية، بمواكبة النشاطات العلمية في المعهد (مؤتمرات، ندوات، محاضرات) كما النشاطات العلمية لمركز الأبحاث.

هذا العدد سيكون مخصصًا لنشر بعض الأبحاث التي قدمت خلال الحلقتين الدراسيتين اللتين نظمتا من قبل المركز، بتاريخ ٨ و٩ أيار، و ٤ و٥ تشرين الثاني من العام ٢٠١٥، حول مناهج وتقنيات البحث في العلوم الاجتماعية، وسيتم تنالي نشر بقية الأوراق البحثية لهاتين الحلقتين في الأعداد القادمة.

معروف إن من هموم معهد العلوم الاجتماعية التفكير في كيفية تعميق تطبيق المعرفة السوسولوجية في الأبحاث الاجتماعية التي ينتجها طلاب هذا المعهد. فكلنا يعرف مشاكلنا الأكاديمية في غالبية الأبحاث التي تنتج حاليًا، وكلنا يعي أهمية النقاش العلمي النقدي المعمق حولها، لهذا الأمر كان توجهنا لهذه السنة تنظيم حلقتين دراسيتين في مجال المنهجية والتقنيات البحثية.

ونحن نعد أن نستمر في متابعة تنظيم الحلقات الدراسية في ميدان المنهجية والمناهج وأساليب كتابة الرسائل البحثية، في السنة الأكاديمية القادمة، لا سيما أننا قادمون على تغييرات جوهرية في أسلوب كتابة هذه الرسائل التي سيرتبط إنتاجها زمنيًا بزمن الفصل الرابع من الماستر.

إبستمولوجيا علم الاجتماع

يوسف كفروني^(١)

ملخص

تتناول هذه الورقة البحثية، التعريف بالإبستمولوجيا كعلم نقدي، وذلك من خلال التدرج المنهجي لمقاربة هذا العلم، بدءًا من تحديده كمصطلح، كتاريخ لقراءة تطورات ودينامياته المرتبطة بديناميات العلم.

سيتم التركيز حكمًا على الإبستمولوجيا في العلوم الاجتماعية. وبناءً عليه، سيتم التطرق أيضًا، لتاريخية علم الاجتماع ونشأته، وذلك من أجل ربط تاريخية هذا العلم بتاريخية علم الإبستمولوجيا في مجال العلوم الاجتماعية.

ستحاول هذه الورقة أيضًا تبيان الحدود العلمية في مجال علم الاجتماع لتبرز أهمية النقد والمقاربات النظرية في الأبحاث الاجتماعية. كما ستتطرق إلى النقاشات الكثيرة المرتبطة بحقيقة الواقع الاجتماعي والتباينات النظرية في قراءته اجتماعيًا. وهي ستتحدث حكمًا عن معنى العلم والموضوعية في الأبحاث الاجتماعية، عن أهم الآراء في علمية علم الاجتماع، عن أزمة علم الاجتماع وإبعادها... باختصار إن ما تتضمنه هذه الورقة هو بمثابة مدخل عام حول هذا العلم.

(١) يوسف كفروني: عميد سابق لمعهد العلوم الاجتماعية youssef.kafrouni@gmail.com

مقدمة

الإبستمولوجيا؛ هي الدراسة النقدية للعلوم. تهتم بشروط تشكّل المعرفة العلمية وتطورها، وتتناول قضايا المعرفة عامة والفكر العلمي خاصة.

تقارب الإبستمولوجيا بالدرس والنقد مبادئ العلوم وفروضها ونتائجها، لتحديد قيمتها وحصيلتها الموضوعية؛ وتتناول بالنقد المناهج العلمية ذاتها؛ تبحث عن ثغراتها وتعمل على معالجتها. (الجابري، ٢٠٠٢ - ص ٢٣). أما موضوعات الإبستمولوجيا ومسائلها ومناهجها، فهي مستقاة من العلم ذاته، ومن المشاكل التي يطرحها تقدم هذا الأخير على العلماء المختصين، كل في ميدانه. هي، وبإختصار، فلسفة للعلوم مفتوحة، وتمسك بنسبية المعرفة. (الجابري، ٢٠٠٢: ص ٣٩). فالإبستمولوجيا تستند إلى العلم، ولهذا يحتاج كل باحث في المجال الإبستمولوجي إلى دراسة تاريخ العلوم من أجل محاولة اكتشاف أسس التفكير العلمي. (الجابري، ٢٠٠٢: ص ٤٠)، هي إذاً، وبهذا المعنى، مبحث نقدي في مبادئ العلوم وفي الأصول المنطقية لهذه المبادئ، إنها، كما يسميها كارل بوبر، منطق الكشف العلمي وتتطابق لهذا مع نظرية المنهج العلمي. (بوبر، منطق الكشف العلمي، ٢٠٠١: ص ٨٧).

لقد تزايد الاهتمام بالإبستمولوجيا منذ بداية القرن العشرين. وبرز فيها أعلام كبار أمثال: غاستون باشلار، جان بياجيه، كانغيلام، كارل بوبر، إمري لاکاتوس، بول فايراباند، وتوماس كون، وآخرون.

الإبستمولوجيا كمصطلح^(١)

إن مصطلح الإبستمولوجيا، مصدره إغريقي. وهو يتكون من: إبستيمه

(١) وفي سياق تعريف المصطلحات، لا بد من أن نحدد أيضًا ان مصطلح الأنطولوجيا العلمية، وهو الفرع الفلسفي الذي يعالج مشكلة الوجود الفعلي لموضوعات المعرفة، ويعبر عن مستوى الواقع الذي توجد فيه الظواهر الاجتماعية (الفرد، الجماعة، المنظمة، الطبقة، الدور، المؤسسة، المجتمع). كما يهتم بالسيرورة الاجتماعية، الحدث التاريخي، النسق الاجتماعي، الفاعل الاجتماعي. (هارمان، ٢٠٠٩: ص ١٧)

وتعني معرفة؛ ولوغوس وتعني علم. (Epistém: discours, rationnel, langage, jugement et logos: théorique savoir, connaissance)

استخدم هذا المصطلح من قبل الفيلسوف البريطاني جيمس فردريك فرّيه
(James Frederick Ferrier, 1808 - 1864)

الابستمولوجيا هي:

١. نظرية عامة في المعرفة الإنسانية العلمية وغير العلمية، كما هو شائع في اللغة الانكليزية.

٢. نظرية في المعرفة العلمية، أو فلسفة العلوم، كما هو شائع في اللغة الفرنسية، (Sagaut: 2008 - 2009 p. 10)

ولقد ظهر هذا المصطلح باللغة الفرنسية أول مرة في ترجمة لكتاب برتراند رسل سنة ١٩٠١.

الابستمولوجيا كتعريف

ابستمولوجيا علم الاجتماع هي الدراسة النقدية لعلم الاجتماع، وطريقة تشكّله وتطوره. انها دراسة شروط إمكانية تحقيق المعرفة النظرية وصدقها، لهذا هي متعلقة بمدى صدق أشكال التفسير العلمي، بمدى ملاءمة قواعد الاستدلال المنطقي، بشروط استعمال المفاهيم والرموز ضمن النظرية.

تستند الإبستمولوجيا بصفة أساسية على التاريخ الموضوعي للعلم. فالباحث الابستمولوجي مجبر أن يتأمل في العلم بجميع أبعاده ومسائله. يشكل تاريخ العلوم إداً، وبناءً على ما تقدم، الأرضية التي تنشأ فيها الابستمولوجيا وتترعرع وتنضج. (بشته، ١٩٩٥؛ ص ٨٠).

ويعتبر بلاشي أنه لا يمكن أن تبحث في مبادئ العلوم وقيمتها وبعدها الموضوعي بدون التساؤل حول قيمة وطبيعة المناهج المستعملة. (بشته، ١٩٩٥: ص ٥٧)؛ في السياق عينه، يقول بياجيه في هذا العلم أنه يسعى إلى توضيح المعرفة، والمعرفة العلمية بصفة خاصة، وذلك استناداً إلى تاريخها،

وإلى تكوينها الاجتماعي وإلى الأصول السيكولوجية للأفكار والعمليات التي تعتمد عليها بصفة خاصة. (بياجيه، ٢٠٠٤ - ص ٣٥). أما التفكير الإبتيمولوجي، فيبدأ برأيه، عندما تكون هناك أزمات في العلوم، هذه الأزمات غالبًا ما تكون متأية من الفجوات المنهجية، لذلك هو يؤكد على ضرورة المناهج في الإبتيمولوجيا. (بشته، ١٩٩٥ : ص ٥٨). فجوهر العلم منهجي.

وإذا كانت المعرفة العلمية هي موضوع الإبتيمولوجيا، فهذا يعني أن هذا العلم دينامي وهو في سيرورة متواصلة، وجميع القضايا العلمية فيه هي قابلة للمراجعة والتصحيح. فالمشكلة الرئيسية للإبتيمولوجيا، وفق كارل بوبر، كانت ولا تزال دائمًا مشكلة نمو المعرفة، ولهذا يعتبر أن نمو المعرفة يمكن أن يدرس على أحسن وجه عن طريق دراسة نمو المعرفة العلمية. (بوبر، منطق الكشف العلمي، ٢٠٠١ : ص ٥٢).

الفرق بين فلسفة المعرفة والابستمولوجيا

من المهم أن نعي، وفق ما ذكره محمد عابد الجابري، في كتابه «مدخل إلى فلسفة العلوم» الفرق الكبير بين فلسفة المعرفة، كما دشنها ديكارت وحدد موضوعها وشيّد صرحها كانت، وبين الدراسات الإبتيمولوجية المعاصرة التي نشطت عقب الثورة العلمية التي شهدها العقد الأول من القرن العشرين. فهذا الفرق يتساوى، ودائمًا وفق الجابري، مع البون الشاسع بين الفيزياء الكلاسيكية (غاليليو ونيوتن)، والفيزياء الحديثة التي أرسى دعائمها بلانك وأنشتين وغيرهما. (الجابري، ٢٠٠٢ - ص ١١).

تعريف العلم

تبلورت الإبتيمولوجيا بعد الثورة العلمية (كوبرنيك، كبلر، غاليليه، نيوتن)، وبعد الانجازات الكبيرة التي حققتها هذه الثورة، أصبحت مدار

الاهتمام الفلسفي بشكل كبير. وبما أنها تستند إلى العلم، فلا يستقيم تعريفها والكلام عنها دون تعريف العلم، أي دون الاجابة على التساؤلات الآتية:

ما هو العلم؟ بماذا يتميز هذا النمط من المعرفة عن غيره؟ كيف يتكوّن العلم؟ ما هي العوامل التقنية والرياضية والسوسولوجية والفلسفية والدينية... التي تؤثر في تطوره؟ ما هي مناهج العمل والتفكير المستخدمة في بنائه؟ كيف نحكم على صحته أو قيمته؟ ماذا يعني أن تكون نظرية علمية نظرية صحيحة؟ ماذا يمكن أن نعرف وكيف يمكن أن نعرف وما هي حدود معرفتنا؟

١. بين المعرفة والاعتقاد

من المهم أن نعي بأن المعرفة ليست الشيء ذاته هي والاعتقاد، لكن يبدو فعلاً أن بين الاثنين صلة قوية، ويبدو أن المعرفة هي نوع خاص من الاعتقاد، هي اعتقاد يحمل طابع اليقين. (باجيني، ٢٠١٠: ص ٢٩). أما منطوق الاستنتاج (القياس) فهو الأكثر صرامة. ففي الحجة الاستنتاجية يجب ان يكون الانتقال من المقدمات نحو النتيجة دقيقاً وصارماً، فكما في المجموع الحسابي. $1+1=2$ بلا خلاف، كذلك في الحجة الاستنتاجية (القياس): مقدمة + مقدمة = نتيجة بلا خلاف. (المرجع السابق: ص ١٢)، (كل إنسان مائت - سقراط إنسان - إذن سقراط مائت).

لا تملك الحجج الاستقرائية الوصلة الضرورية ذاتها بين حقائق المقدمات والنتائج. ففي الحجة الاستقرائية تعد المقدمات دليلاً جيداً على صدق النتيجة، ولكن لا تعد ضماناً لصدقها. فإذا شاهدت مليون بجة بيضاء فلا يمكن أن أعمم بيقين أن كل البجع أبيض.

نقبل الحجج الاستقرائية لأننا لا نملك في الغالب خياراً آخر. فحين نفكر في أمور الحقيقة يجب أن نبني الحجج على خبرة الماضي. وهذه الخبرة محدودة دائماً بأننا لا نستطيع معرفة كل الذي حدث في الماضي ولا نملك خبرة عما سوف يحدث في المستقبل. ومع ذلك ندعي أن الماضي الذي لم

نلاحظه وكذلك ما لم نلاحظه في الحاضر وما لن نلاحظه في المستقبل سوف يشبه ما لاحظناه في الماضي وما نلاحظه في الحاضر من بعض الجوانب الحيوية. وما لم نفعل هذا فلن يكون في وسعنا إصدار أية تعميمات عن العالم حولنا. (المرجع السابق، ٢٠١٠: ص ١٣ و ١٤)

كان فيلسوف العلم سيكون مع الملاحظة والمنهج الاستقرائي ومعادياً للفروض والنظريات. أما غاليليو فقد أشاد بأرسطارخوس وكوبرنيكوس، لأنهما امتلکا الجرأة الكافية لوضع نظريات تأملية تتجاوز كل ما نعتقد أننا نعرفه عن طريق الملاحظة، بل تتناقض معه.

يقول غاليليو: «لن أستطيع أبداً أن أعبر بقوة كافية عن إعجابي بعظمة عقل هذين الرجلين اللذين تصورا هذا الفرض (مركزية الشمس) وتمسكا به بوصفه صادقاً. وفي تعارض حاد مع الدليل البادي من حواسهما وبمحض قوة الذهن، رفعاً من شأن ما دلّهما عليه العقل فوق ما تبينه لهما الخبرة الحسية بجلاء. إن دهشتي بلا حدود حين أتأمل كيف كان أرسطارخوس وكوبرنيكوس قادرين على جعل العقل يهزم الحواس، وفي مواجهة الحواس جعل العقل سيد ما يعتقدانه». (بوبر، أسطورة الإطار، ٢٠٠٣: ص ١١٤).

٢. كيفية الحصول على معرفة موثوقة

وحدت الفيزياء الحديثة، بصورة مستديمة وبنجاح تام، بين صرامة الصيغة الرياضية وبين التجربة المسيطر عليها، مما أصبح مثلاً يحتذى للمعرفة بجلائها التام. (هابرماس ي. ٢٠٠١: ص ٩). ولقد مرت محاولات الإنسان للوصول إلى المعرفة في عدة مراحل:

- مرحلة المعرفة الحسية والخبرة الذاتية، طريق المحاولة والخطأ.
- مرحلة المعرفة النقلية، حيث الاعتماد على مصادر الثقة والتقاليد السائدة.
- مرحلة المعرفة الفلسفية، حيث أسلوب التأمل والحوار.
- مرحلة المعرفة العلمية، التي اعتمدت على التمدلil العقلي الاستقرائي والاستنباطي، والفرضيات والتجارب. (بدر، ١٩٩٦ - ص ٤٣)

٣. في تطور مفهوم العلم

يرى برتراند رسل أن العلم، كما يدل اسمه هو أولاً معرفة. ولكنه نوع خاص من المعرفة، هو النوع الذي يبحث عن القوانين العامة التي تربط مجموعة من الحقائق الخاصة، كما أن العلم هو قوة للتحكم في الطبيعة. (رسل، ٢٠٠٨: ص٦)؛ أما المعرفة العلمية فتدل على ذاتها، انها معرفة موضوعية مبنية على الملاحظة والتجربة ولا تعتمد على الأهواء والميول والآراء الشخصية؛ وأما الرأي العلمي فهو ما يوجد سبباً للاعتقاد بصحته، والرأي غير العلمي هو ما يقبل لسبب غير احتمال صحته. (رسل، ٢٠٠٨: ص١٣)

ويفسّر رسل الصدام بين غاليليو ومحكمة التفتيش، فيرى أنه لم يكن مجرد صدام بين الفكر الحر والتعصب أو بين العلم والدين بل بين روح الاستقراء وروح القياس. فالمؤمنون بالقياس من حيث هو طريق الوصول إلى المعرفة، مضطرون أن يجدوا مقدماتهم في مكان ما. وهم يجدونها عادة في الكتب المقدسة. والقياس المبني على الكتب الملهمة هو طريق الوصول إلى الحقيقة عند المشرّعين المؤمنين، ولما كان القياس من حيث هو وسيلة الحصول على المعرفة يتداعى بنيانه إذا ألقى الشك على مقدماته، لذلك كان لا بد أن يحقّق المؤمنون بالقياس على من يشك في صحة الكتب المقدسة. وقد شك غاليليو في أقوال أرسطو وفي الكتب المقدسة جميعاً، وبذلك دكّ صرح معارف العصور الوسطى. (رسل، ٢٠٠٨: ص٢)، ولقد تم توجيه تهمتين خطيرتين إلى غاليليو من قبل محكمة التفتيش:

- نظرية كوبرنيكس في دوران الأرض حول الشمس عكس ما تؤمن به الكنيسة

- تأليف كتابه باللغة الايطالية وليس اللاتينية.

كانت المعرفة في أغلبها: الدينية والعلمية والتاريخية والفلسفية، تكاد تكون حكراً على الكنيسة، ومن خلال الكنيسة وبموافقتها، لذلك لم يكن

مسموحًا بتداول تلك المعارف بين العامة. ولمنع انتشار العلوم والأفكار الحديثة، أو التي كانت تعتبر هدامة أو هرطقة، فقد كان محرّمًا الكتابة بغير اللغة اللاتينية التي لا يعرفها إلا القلة المثقفة من النخبة. (داوكنز، ٢٠١٢: ص٧)

كان كتاب غاليليو هو أول كتاب علمي يكتب من أجل الناس وبلغة الناس. وأصبح يشكل سابقة استمرت حتى يومنا هذا، وهي الكتابة العلمية لغير المتخصصين، أو لعامة الناس. (هذه المسألة لا تزال غائبة في العالم العربي والاسلامي أو ضعيفة جدًا، مما يجعل السيادة لـلمط المعرفة الغيبية والخرافية). (داوكنز، ٢٠١٢: ص٨)

يقول برتراند رسل عن غاليليو أنه كان يستطيع أن يقول بحق أنه يعرف شيئًا، وإن يكن قليلًا، وأما معاصروه المؤمنون بأرسطو، فكانوا لا يعرفون شيئًا، بينما كانوا يحسبون أنهم يعرفون الكثير. إن المعرفة، على خلاف أوهام تحقيق الرغبة، أمر عسير المنال. والحق أن الوصول إلى المعرفة أشد عسرًا مما حسب غاليليو نفسه، لكن غاليليو خطأ أول خطوة واسعة في عملية كسب المعرفة السليمة والعامة في آن. وهو لذلك أبو العصر الحديث. (رسل، ٢٠٠٨: ص٣٠).

يعتبر فرنسيس بيكون، أنه من أجل فهم الطبيعة، يجب الاستهداء بالطبيعة نفسها وليس بالكتابات القديمة لأرسطو أو الكتب المقدسة. (شالمرز، ١٩٩٧: ص١١)، فالعلم هو منهج بحث لإنتاج المعرفة، وهو مجموعة من الإجراءات المعروفة التي تراجع وتصوّب باستمرار، وتقود إلى خلق نظريات تتطور في كنف المعرفة نفسها. (هيللي، ٢٠٠٨: ص١١). فأهم قيمة يقوم عليها العلم الحقيقي هي أن أفكاره حيال الواقع خاضعة للاختبار من خلال التجارب، والتحدي من خلال التفكير العقلاني النقدي. إن المفكرين الذين يفكرون تفكيرًا علميًا يتقبلون الأفكار تقبلاً متحفظًا، وبينون قبولهم على وجود أدلة وليس على السلطة. أما من لا يفكرون تفكيرًا علميًا، فيميلون إلى تقبل

الأفكار تقبلاً مطلقاً. وهم أكثر قابلية لقبول أفكار واهية أو كاذبة، يبشر بها قادة ذوو شخصيات جذابة أو دجالون. (تشارلز وين - آرثر ويجنز، ٢٠١١: ص ١١).

العلم هو إذاً أكثر من مجرد كم من المعلومات. إنه أسلوب في التفكير، والفكر النقدي. (داوكنز، ٢٠١٢: ص ٨)، وعليه من المهم تعميم الثقافة العلمية التي ستفضي في النهاية إلى تبني المنهج العلمي في التفكير والتحرر من سلطان القهر والأساطير. فالمنهج العلمي في أساسه يقوم على ملاحظة الحياة والكون المحيط، ثم محاولة تفسير تلك الظواهر عن طريق وضع فرضيات واحتمالات لأسبابها. لكنه لا يتبنى تلك الفرضيات مهما كانت معقوليتها إلا بعد إخضاعها للتجارب والاختبارات. فالتجربة العلمية هي التي تكون قابلة للإعادة ولإعطاء النتائج نفسها. (داوكنز، ٢٠١٢: ص ٩).

المعرفة الموضوعية هي التي اعتمدها ودافع عنها بوبر، مميزاً بين اتجاهين فيها:

- المعرفة أو الفكر بالمعنى الذاتي والذي هو حالة من حالات الشعور أو استعداد للتصرف أو لرد الفعل.
- المعرفة أو الفكر بالمعنى الموضوعي، الذي هو مجموعة مشكلات ونظريات وحجج نتبناها بوصفها كذلك. وفي هذا المعنى الموضوعي تكون المعرفة مستقلة عن تأكيد أي شخص يدعي المعرفة، وهي مستقلة أيضاً عن اعتقاد أي شخص كان، فالمعرفة بالمعنى الموضوعي هي معرفة بلا عارف، انها معرفة بلا ذات عارفة. (شالمرز، ١٩٩٧: ص ١٦٧)

٤. النظرة المحدثة للعلم

النظرة المحدثة للعلم، هي النظرة التي تعتبر بأن النظريات العلمية هي أساساً فرضية أو حدسية افتراضية، وحتى أفضل نظرية مؤسسة جيداً لا نستطيع أبداً القطع بأنها قد لا تسقط ويحل محلها اقتراب تقديري أفضل، وهذا نتيجة

ثورة أنشتين. (بوبر، أسطورة الإطار، ٢٠٠٣: ص ١٢٠). فأنشتين هو القائل بأنه: لا يمكن لأي عدد من التجارب أن يثبت صحة نظرياتي، بينما يمكن لتجربة واحدة أن تثبت خطأها. (تشارلز وين - آرثر ويجنز، ٢٠١١: ص ١٣٢). فالمعرفة العلمية هي معرفة فرضية أو حدسية افتراضية، ويتوقف نمو المعرفة، خصوصًا المعرفة العلمية على التعلم من أخطائنا.

قبل أنشتين، كانت الديانة العلمانية للعلم تدعي السلطة الكاملة. فلقد كان الاعتقاد وقتها بأن العلم بنيان من المعارف والنظريات المثبتة. وفي هذا الإطار، نورد قصة يحكيها ماكس بلانك، حينما كان شابًا حاول فيزيائي لامع ثنيه عن دراسة الفيزياء على اعتبار أن الفيزياء على وشك الوصول إلى اكتمالها النهائي، ولم يعد ثمة أي اكتشافات عظيمة يمكن احرازها في هذا المجال. في الواقع، وكما يقول بوبر، لقد انتهت إلى الأبد هذه الحقبة من العلم السلطوي، وهذا بفضل الثورة الأنشتينية. (بوبر، أسطورة الإطار، ٢٠٠٣: ص ١٢١)

إن منهج العلم يتوقف على التعلم النظامي من أخطائنا:

- أولاً: عن طريق الطرح الجريء لنظريات جديدة،
- ثانيًا: عن طريق المناقشة النقدية والفحص النقدي لنظرياتنا.

٥. الفكر الحر والمناقشة النقدية للعلم

إن أقوى الحجج في المناقشة النقدية تأتي من الاختبارات التجريبية. فالتجارب تسترشد دائمًا بالنظرية بواسطة الفروض. والموضوعية العلمية تتوقف على المقاربة النقدية، وهذا يعني أنها قائمة على عدم قبول النظرية العلمية كعقيدة قاطعة، وأن كل النظريات مبدئية ومفتوحة في كل وقت للنقد القاسي لمناقشة عقلانية نقدية تهدف إلى استبعاد الأخطاء (بوبر، أسطورة الإطار، ٢٠٠٣: ص ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥).

وتعد المناقشة النقدية أساسًا للفكر الفردي الحر. وهذا يعني أنه بدون

الحرية السياسية، فإن حرية الفكر غير ممكنة، كما يعني أن الحرية السياسية هي شرط مسبق للاستخدام العقلي لكل فرد. (بوبر، الحياة حلول لمشاكل، ١٩٩٨: ص ١٧٢). فالنقد هو الوظيفة الحاسمة للملاحظة والتجربة في العلم. ولا يمكن للملاحظة والتجربة أن يؤسسا أي شيء بصفة نهائية، على أن الملاحظة والتجربة يلعبان بالتأكيد دورًا مهمًا في المناقشة النقدية للنظريات العلمية، ويساعدان في استبعاد النظريات الأضعف.

كان المذهب السلطوي في العلم مرتبًا بفكرة التأسيس، بمعنى إثبات نظرياته أو التحقق منها. بينما ترتبط المقاربة النقدية للعلم بفكرة الاختبار، بمعنى محاولة تنفيذ حدوسه الافتراضية، أو تكذيبها.

فالعلم لا يبدأ بالملاحظة كما يقول بيكون بل بمشكلات، مشكلات عملية أو مشكلات نظرية. (المرجع السابق: ص. ١٢٥)، فمنهج المحاولة واستبعاد الخطأ يختلف بالكلية عما يسمى منهج الاستقراء عن طريق التكرار. (بوبر، أسطورة الإطار، ٢٠٠٣: ص. ١٢٩).

إن عقلانية العلم لا تعدو أن تكون عقلانية المناقشة النقدية، فأبلغ وأهم أشكال النقد، هو الاحتكام إلى الملاحظة والتجربة والقياس، فإذا استطعنا إظهار أن نتائج نظرية ما لا تتفق مع وقائع معينة فقد امتلكتنا حينئذ حجة قوية ضدها وربما نقضي عليها تمامًا. (المرجع السابق: ص. ١٩١ و ١٩٣). وفي هذا السياق يمكن القول بأن الوظيفة الوحيدة المناطة بالملاحظات والتجارب والقياسات في نظرية المنهج هي أنها شاهدة على النقد أي على اكتشاف أخطائنا. وهذا مشترك بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية.

باختصار، يمكن القول بأن المعرفة العلمية، من أي مصدر أتت، لا تقف عند حدود قومية أو عرقية أو لغوية أو دينية، وهي لذلك ليست ذاتية أو فردية فهي تتميز بالموضوعية ويمكن تكرارها.

لقد مارست الإيستيمولوجيا تأثيرًا على البحث وذلك من خلال استلهاهم مفاهيمها وتكوين أطروحاتها المختلفة. فالباحث غالبًا ما يجد نفسه مجبرًا،

حين الحديث على المادة المدروسة، على تطبيق التحليل الإستمولوجي لطبيعة تلك المادة ولنمط تكوينها وتطور مفاهيمها.

٦. ما يميز المرحلة الأولى للعلم

في متابعة سريعة لتطور الفكر البحثي، نجد أنه ومع الفيزياء الكلاسيكية، أي قبل الدخول في عالم ما دون الذرة، ساد الاتجاه نحو اعتبار النظرية العلمية مجرد تعميمات استقرائية، وجرى اعتبار الاستقراء منهج العلوم التجريبية. (الخولي، ٢٠٠٠: ص ١٣٢).

في بداية الثورة العلمية (القرن السابع عشر)، ساد منطق الاستقراء (من الخاص إلى العام) استناداً إلى التجربة والملاحظة في ظروف متنوعة، وذلك بدلاً من منطق الاستدلال الاستنتاجي (القياس، من العام إلى الخاص) الذي اعتمد على التأمل العقلي والقياس دون الاعتماد على التجربة، والذي ساد منذ أرسطو حتى الثورة العلمية.

في القرن العشرين أصبح الاتجاه إلى رفض الاستقراء رفضاً قوياً خاصة مع كارل بوبر، الذي أكد على أن المشكلة هي ما يبدأ به العالم، وليست الملاحظة كما يرى أصحاب المنهج الاستقرائي، فالملاحظة هي دائماً منتقاة توجهها مشكلة مختارة من موضوع ما. فبرأيه أن العالم يحتاج مسبقاً إلى نظرية يلاحظ على أساسها. فهو يبدأ من الحصيلة المعرفية السابقة التي تساعد على تحديد المشكلة، ويقترح الفرض الذي يمكن من خلاله حلها. هنا فقط يلجأ إلى الملاحظة ليختبر فرضه تجريبياً عن طريق النتائج المستنبطة. هذه هي الصورة العامة لمسار البحث التجريبي. إنه المنهج الفرضي الاستنباطي. وهذا ما يؤكد عالم الفيزياء الشهير ستيفين هاوكينغ، في عبارته بأن النظرية تأتي دائماً أولاً. (الخولي، ٢٠٠٠: ص ١٦٥).

معروف أن المرحلة الأولى للعلوم، هي، كما يصفها توماس كون، تتميز بفوضى في المفاهيم ونظريات مختلفة ومتناقضة حول طبيعة موضوع الدراسة،

ولانصل، ودائمًا وفق كون، إلى مرحلة العلم السوي إلا عندما يسيطر نموذج معرفي يتبناه غالبية أعضاء المجتمع العلمي. لقد أبدى كون أيضًا، في كتابه بنية الثورات العلمية، ذهوله من حجم ومدى الاختلافات الصريحة بين العلماء الاجتماعيين بشأن طبيعة المشكلات والمناهج العلمية المشروعة. وهذا على عكس الحالة بين العلماء في العلوم الطبيعية، حيث يسود التوافق في طبيعة المشكلات والمناهج. إن هذا الواقع هو الذي دفع به للتأكيد على أهمية البراديغم (النموذج الارشادي)، وأهمية الدور الذي يقوم به في البحث العلمي. فالبراديغمات تمثل الإنجازات العلمية المعترف بها عالميًا في عصر بذاته، وهي نماذج للمشكلات والحلول بالنسبة لجماعة من الباحثين العلميين. (كون، ١٩٩٢: ص ٢٢). يتمثل جوهر نظرية كون إذاً، وباختصار، في أهمية فكرة النموذج الارشادي (براديغم)، أو النظريات المعتمدة كنموذج لدى المجتمع العلمي، علاوة على طرق البحث المميزة لتحديد وحل المشكلات العلمية وأساليب فهم الوقائع التجريبية. (المرجع السابق: ص ١١). أما ما يقصد بالعلم القياسي، وفق كون، فهو البحث الذي رسخ بنيانه على إنجاز، أو أكثر، من إنجازات الماضي العلمية التي يعترف بها مجتمع علمي محدد، ولفترة زمنية، بأنها تشكل الأساس لممارساته العلمية مستقبلاً. (المرجع السابق: ص ٣٩).

ويفرق كون بين ما يسميه بالعلم الثوري وبالعلم العادي (السوي). ويقصد بهذا الأخير العلم المؤلف المتكرر الذي يمتلك معرفة نظرية مقبولة، وعلمًا بالاجراءات التجريبية المعتادة، فضلاً عن الأدوات الضرورية لإجراء التجارب (النموذج الارشادي - البراديغم). فالنشاط العلمي في هذا النموذج البحثي، غالبًا ما يكون قائمًا على محاولة معالجة مظاهر معينة للعالم الطبيعي، بعزلها بشكل مناسب في أوضاع تجريبية، لتتنطبق على النموذج الارشادي. وكما أن الأحجية تعطينا اطارًا ومجموعة من المفاتيح لحل اللغز، فإن النموذج الارشادي يعطينا اطارًا عامًا ومؤشرات تدل على ما يجب أن يكون عليه شكل ذلك الواقع، فيقوم العالم بملء تلك المربعات بالتفاصيل.

في نشأة علم الاجتماع وارتباطه بالنقد العلمي

تقول مادلين غرافيتز في كتابها عن المناهج في العلوم الاجتماعية: «السوسيولوجيا هي دراسة الواقع الاجتماعي. الاهتمامات الفلسفية حول طبيعة المجتمع، والاهتمامات الأخلاقية حول سبل الإصلاح هي قديمة مثل التفكير الاجتماعي والسياسي والفلسفي، ولكن السوسيولوجيا كعلم ولدت، منذ أن بدأنا ننظر إلى الوقائع الاجتماعية بمعزل عن أحكام القيمة» (Grawitz 2001: p. 79).

دون الغوص في تاريخ علم الاجتماع خلال العصور القديمة والوسطى^(١)، لا بد من الإشارة إلى أن نشأة علم الاجتماع كعلم حديث قد جاءت من انقلاب تمثل بالانتقال إلى مجتمع جديد؛ وإلى اهتمام جديد تخطى الارتباط التقليدي بالنظريات الكبرى ليطال الشؤون اليومية لحياة المجتمع. فهذا الانقلاب، كما يقول كابان، قد حصل في ملتقى ثلاث ثورات: سياسية (الثورة الفرنسية)، واقتصادية (الثورة الصناعية)، وفكرية (انتصار العقلانية والعلم والفلسفة الوضعية). ولقد اعتبر كابان أن كونت - توكفيل - ماركس، كانوا الرواد الذين أطلقوا فكرًا جديدًا عن نظام اجتماعي قيد البزوغ.

كان التفكير بالتنظيم الاجتماعي في المجتمعات السابقة على الثورة الفرنسية محتومًا بقوى خارجية متعالية أو طبيعية. أما بعد الأحداث الكبرى التي عاشتها أوروبا في بدايات ما يعرف بتاريخها الحديث، فلقد أصبح التفكير الاجتماعي يمتلك قوانين عمله الخاصة به، والتي يمكن الكشف عنها.

(١) من المهم أن نشير هنا لدراسة ابن خلدون. إذ تعد كتابة هذا الأخير عن العمران في أحواله وللعصبية في دورتها المتكررة، نموذجًا هامًا في هذا الإطار. صحيح أن هذه الدراسة كانت حالة ابداعية في الدراسات الاجتماعية، وأنها اعطت السبق لهذا الباحث على رواد علم الاجتماع الذين جاؤوا بعده ببضعة قرون، وأنها ظلت عملاً ابداعيًا فريدًا لم يبن عليه، إلا أنها ارتبطت بالوصف والتحليل للمجتمعات القديمة التي سبقت التطورات الكبرى التي شهدتها الاجتماع البشري والثورات الفكرية والسياسية، التي نشأ من مخاضها علم الاجتماع الحديث.

ثمة عوامل متعددة كانت إذًا وراء الأبحاث الاجتماعية الحديثة، وأواخر القرن التاسع عشر. فلقد نجم، كما ذكرنا سابقًا، عن الثورة الصناعية في أوروبا وعن بروز الوحدات الانتاجية الكبرى وعن انطلاق الرأسمالية التجارية وبروز الطبقة العاملة (البروليتاريا)، والنمو المتسارع للمدن، العديد من المشاكل الاجتماعية والعنف والاضطراب، وحالات مرعبة من المآسي والبؤس التي طالت شرائح واسعة من المجتمعات التي شهدت التحولات الاقتصادية والاجتماعية والتي أدت إلى زعزعة الطبقات الاجتماعية القديمة وبروز طبقات اجتماعية جديدة.

١. تباين المدارس السوسيولوجية الغربية الحديثة

نحت أوغست كونت مصطلح سوسيولوجيا الذي تمت ترجمته عربيًا بمصطلح علم الاجتماع. وكان له الفضل في زيادة هذا العلم في أوروبا الحديثة، ولشدة تأثيره بالعلوم الطبيعية، كان يرغب بتسمية هذا العلم بالفيزياء الاجتماعية ولكن سبقه أدولف كيتيليه إلى اعتماد هذا الاسم.

يحدثنا كابان أيضًا عن مرحلة نشوء السوسيولوجيا في البلدان الثلاث فرنسا وألمانيا والولايات المتحدة، فيقول أن المدرسة الفرنسية كانت متأثرة بشخصية دوركايم، بمقاربتة التفسيرية والموضوعية، على نمط العلوم الطبيعية، وهو يعتبر أن دركهايم هو أول من فتح الطريق الجديد في المقاربات البحثية الاجتماعية التي تطال الحياة اليومية من خلال تبيان كيف يكون انتحار الفرد، وهو فعل شخصي بامتياز، محكومًا بقوى اجتماعية. (كابان، ٢٠١٠ - ص ٦).

يرى دوركايم أن الواقع الاجتماعي يمثل حقيقة موضوعية والوقائع الاجتماعية يجب أن تعالج كأشياء. (Durkheim (1894), Edition (électronique 2001: p. 3

أما المدرسة الألمانية، ودائمًا وفق كابان، فلقد ميزت بوضوح بين علوم الطبيعة وعلوم الروح، بين التفسير والفهم (الاستيعاب)، ومن أهم روادها فيبر

وجورج زيمل. وأما المدرسة الأميركية، فعرف باحثيها السوسولوجيين بنظرتهم البراغماتية بخصوص ميدانهم، وتجسدت مهمتهم البحثية بالتدخل بطريقة امبريقية مع المشاكل العيانية. (كابان، ٢٠١٠ - ص ١٣)

من المهم أن نشير إلى أن السوسولوجيا، ومنذ بداياتها، قد تنازعتها تيارات فكرية متعددة ومتباينة، وهي منذ نشأتها لم تكن علمًا موحدًا. ففي حين تميزت المدرسة الفرنسية مع دركهايم بنزعة عقلانية تجريبية ونزعة طبيعية، وموضوعية، تعتبر الوقائع الاجتماعية بمثابة أشياء يمكن تفسيرها من الخارج؛ عرفت المدرسة الألمانية مع فيبير بتركيزها على المعنى والنشاط الاجتماعي. ففيبير يفسر الوقائع الاجتماعية من الداخل، ويسعى إلى فهمها (أي يفهم ذاتية الأفراد) من الداخل عن طريق الحلول محلهم. فسوسولوجيا فيبير يمكن توصيفها بالاستيعابية، تقوم على الفهم، وتنطلق من مبدأ أن ما يصنع المادة الأولية للاجتماعي، هو فعل الأفراد؛ وعليه، لا يستطيع الباحث فهم هذا الفعل إلا بالوصول إلى المعنى الذي يضيفه الأشخاص عليه.

أما في الولايات المتحدة، فلقد عرفت التقاليد السوسولوجية الكمية والامبريقية انطلاقة هامة بعد عام ١٩٤٥ مع بول لازرسفيلد وفريقه في جامعة كولومبيا. ولقد تمّ تطوير وابتكار العديد من التقنيات في التحقيق (الاستطلاع والاستبيان، والبرامج المعلوماتية لمعالجة البيانات)، كما تمّ، وفي الوقت عينه، تطوير تقنيات التحليل النوعي. (كابان، ٢٠١٠ - ص ٩)

أزمة علم الاجتماع:

يعبر كثير من المفكرين وعلماء الاجتماع عن الأزمات المعرفية التي تمر بها العلوم الاجتماعية بشكل عام وعلم الاجتماع بشكل خاص.

١. أنتوني غيدنز: مأزق علم الاجتماع

يعتبر أنتوني غيدنز أن الباحثين الاجتماعيين يتمتعون بالقدرة على طرح الأسئلة مباشرة على الأفراد والجماعات البشرية الأخرى التي يدرسونها. غير

أنهم يتسببون في عدد واسع من المشكلات والمصاعب. إن الناس الذين يدركون أن أنشطتهم وتصرفاتهم تتعرض للاستقصاء والتمحيص قد لا يواصلون اتباع أنماط السلوك والتصرف التي اعتادوها، كما أنهم قد يحاولون إخفاء مواقفهم أو مشاعرهم الحقيقية أو يتسترون عليها. بل إنهم قد يحاولون مساعدة الباحث بإعطائه الإجابات التي يعتقدون أنه يسعى إليها. (غيدنز، علم الاجتماع، ٢٠٠٥: ص ٦٧٠)

ويتحدث عن مآزق علم الاجتماع فيشير إلى أربع نقاط تعبر عن التعارض في النظريات المفسرة للواقع الاجتماعي والعجز عن التفسير وتوقع التغيرات المتسارعة.

المآزق الأول: البنية والفاعل

يتساءل غدنز عن مدى فاعليتنا كبشريين ناشطين نتحكم في الشروط والظروف التي تكتنف حياتنا الإنسانية، أمام فاعلية القوى الاجتماعية التي لا نملك السيطرة عليها (البنية). ويستعرض آراء غيره من الباحثين في هذا الأمر أمثال فيبر والتفاعليون الرمزيون الذين يشددون على العنصر الابتكاري النشط والخلاق للسلوك البشري (الفاعل)، على عكس إحدى الأطروحات الأساسية لدوركايم وغيره الذين يشددوا على القيود والضغوط التي يفرضها المجتمع على الأفراد (البنية). (غيدنز، ٢٠٠٥: ص ٧٠٢)

المآزق الثاني: الإجماع والصراع

يتحدث غدنز عن النزوع إلى النظام والانسجام بين أجزاء المجتمع، المجتمع كوحدة كلية متكاملة، والوجهة الأخرى النزاع والتوتر والصدام. (المرجع السابق: ص ٧٠٤)

المآزق الثالث: غياب قضية الجنوسة لدى مؤسسي علم الاجتماع

يتحدث غدنز فيما أسماه بالمآزق الثالث عن تجاهل قضية المرأة والتمييز بين الذكور والاناث. (المرجع السابق: ص ٧٠٦)

المأزق الرابع: تشكيل العالم الحديث

يشير خلالها للتمايز بين التفسير الماركسي الذي يعتبر أن القوة المحركة للتغير الاجتماعي في المجتمعات الرأسمالية الحديثة هي التحولات الاقتصادية التي تعتبر جزءاً لا يتجزأ من نظام الانتاج الرأسمالي. وبين التفسير الفيبري الذي يعتبر أن العوامل غير الاقتصادية قد لعبت دوراً أساسياً في تنمية المجتمع الحديث (غيدنز، المرجع السابق: ص ٧٠٩ و ٧١٠)

٢. ألفن غولدنر: أبعاد الأزمة في علم الاجتماع

يشير غولدنر إلى الأزمة التي يمر بها علم الاجتماع، والتي تتمثل حسب رأيه بتسعة أبعاد:

البعد الأول:

ناجم عن انقسام علم الاجتماع على ذاته إلى علمين: علم اجتماع يوجهه التنظير الماركسي في مقابل علم اجتماع يوجهه التنظير المحافظ أو الليبرالي. كان علم الاجتماع المنقسم على ذاته أكثر ارتباطاً بالأيديولوجيا، وفي فترة الحرب الباردة التي امتدت منذ منتصف الأربعينات وحتى السبعينات، كان علم الاجتماع في كل من الكتلة الاشتراكية والرأسمالية على السواء يؤدي دوره في الحفاظ على واقعه الاجتماعي، الدفاع عنه، وكذلك تبرير التفاعلات التي تقع في إطاره. (غولدنر، ٢٠٠٤ - ص ٢٤)

البعد الثاني:

يتمثل في الاعتماد على المنهجية التي نقلت عن العلوم الطبيعية في الفترة التي عاصرت نشأته. وهو النقل المنهجي الذي أوقع علم الاجتماع في خطأ قاتل ما زال يعاني منه حتى الآن، وهو الخطأ الذي يتمثل في اختلاف مادة علم الاجتماع والعلوم الإنسانية جميعها عن المادة التي تتناولها العلوم الطبيعية. فالمادة الطبيعية هي مادة متجانسة، داخلها مثل خارجها، ومن ثم

فإن ادراكها من خلال مؤشراتنا الخارجية واجب وفرض، لكونه في ذات الوقت إدراكها من الداخل، أي أن إدراك جزء أو جانب منها يعني إدراكها في كليتها، بينما الأمر مختلف بالنسبة للإنسان الذي يشكل تفاعله مع الآخرين المادة التي يحاول علم الاجتماع تأملها. (المرجع السابق، ص ٢٥)

البعد الثالث

يرتبط بتسارع التحولات المتتالية التي خضع لها التنظير الاجتماعي، وتحققها في اتجاهات متنوعة الأمر الذي حرمه من تحقيق التراكم المتتابع الذي يمتلك عمقًا وخصوبة، كان من الممكن أن يشكل قاعدة للإبداع. إذا تأملنا التنظير الاجتماعي منذ بدايته وحتى الآن فإننا نجد أنه قد مر بمجموعة من المراحل المتتالية، كل مرحلة اهتمت بقطاع معين من بناء المجتمع. المرحلة الأولى تميزت بالتنظير الشامل، اهتمت بالموضوعات أو المكونات ذات الطبيعة الشاملة في بناء المجتمع. في المرحلة التالية جرى التخلي عن التنظير الشامل، والاتجاه إلى تناول الموضوعات ذات البعد الجزئي. ثم العودة إلى التنظير الشامل والتأرجح بين موقفين جزئيين وكلي (المرجع السابق، ص ٢٧)

البعد الرابع:

يتصل بالفجوة بين البنية التصورية للنظرية في علم الاجتماع، وبين الحالة التي عليها تفاعل العناصر الواقعية في علم الاجتماع. (غولدنر، ٢٠٠٤: ص ٣٠)

البعد الخامس:

يرتبط بتعرض البنية التصورية للعلم للتغير بفعل متغيرات عديدة، الأمر الذي يعجزها عن الوصول إلى مقولات نظرية تمتلك قدرًا من الثبات النسبي لفهم الظواهر والتفاعلات الواقعية، ويعتبر تغيير عواطف القائمين على العلم أحد المصادر الأساسية لفرض أو تأسيس مقولات نظرية جديدة. وفي هذا الإطار قد تتغير عواطف الباحثين عبر الأجيال أو في خلال الجيل الواحد.

ويعد تغيّر عواطف الباحثين أحد مصادر أزمة التنظير الاجتماعي. (غولدنر، ٢٠٠٤ - ص ٣١)

البعد السادس:

ناجم عن رياح التغيير العاتية التي تهب على علم الاجتماع فتجعل تنظيره عاجزاً بصورة دائمة عن الملاحقة. بحيث يتخلى التنظير الاجتماعي عن دوره الأساسي في توجيه المجتمع أو توجيه البحث الاجتماعي، ومن ثم يظل التنظير الاجتماعي متخلفاً عن إمكانيات أداء دوره. وتصدر رياح التغيير عن ثلاثة مصادر: يتمثل المصدر الأول في تغيير عواطف العاملين في العلم وكذلك تغير افتراضاتهم الكامنة. المصدر الثاني لقوى التغيير هو التغيرات الواقعية المتسارعة التي تطرأ على واقع المجتمعات المعاصرة، فتغير من طبيعة تفاعلاتها ومن الأوزان النسبية لمتغيراتها الفاعلة. ويتعلق المصدر الثالث لقوى التغيير في طبيعة التراكم المعرفي ذاته. فقد أدت تكنولوجيا المعرفة والمعلومات إلى إحداث ثورة في عملية البحث الاجتماعي، بحيث أدت هذه الثورة إلى تدفق هائل للمعلومات من مجتمعات مختلفة وحول ظواهر متنوعة. (غولدنر، ٢٠٠٤ - ص ٣٢ و ٣٣)

البعد السابع:

يتعلّق بطبيعة الافتراضات النظرية للعالم في علم الاجتماع فيما يتعلق بالمجتمع أو الواقع المحيط. وتحدد أهمية هذه الافتراضات في كونها تشكل الأساس الذي تستند إليه الجهود العلمية، فالباحث بخياله العلمي يفترض طابعاً معيناً للحقيقة، ثم يحاول التأكد من مصداقية هذا الافتراض الخيالي بإعادة تقييمه بالنظر إلى الحقائق الواقعية، ليصبح قضية علمية لها ثباتها النسبي. في قاعدة جبل الافتراضات نجد الافتراضات الكامنة التي تشكل بداخل الباحث أثناء مشوار حياته منذ الصغر، وتشكل وجهة نظره فيما يتعلق بتفاعلات وأحداث السياق الاجتماعي المحيط وهي افتراضات لها بعدها

العاطفي، بالإضافة إلى ذلك هناك ما يمكن أن يسمى بالافتراضات العامة، وهي افتراضات شاملة ومتنوعة وتلعب دورها في تشكيل وجهة نظر الباحث في الكون والمجتمع والإنسان. (غولدنر، ٢٠٠٤ - ص ٣٤)

البعد الثامن:

ناجم عن غياب جانب رئيسي في العملية العلمية، ويتعلق بذات الباحث. لفهم أي موضوع يجب أن نعطي اعتباراً لجانبين: جانب يتعلق بذات الباحث، وجانب آخر يتعلق بالموضوع، بحيث نجد أن الحقيقة تعبر عن الاثنين معاً. فإذا تأملنا انجازات التنظير الاجتماعي بالنظر إلى هذه المرجعية، فإننا سوف نجد أن الباحثين استغرقوا زمن تاريخ علم الاجتماع في تأمل موضوعاتهم، الأمر الذي جعل معرفتهم مشوهة لأنها اقتصر على نصف الحقيقة فقط، أي النصف المتعلق بالموضوع بينما استبعدت ذات الباحث خارج دائرة التأمل. ونتيجة لذلك نجد أن غالبية التعميمات لم تصمد طويلاً أمام اختبارات الواقع. (غولدنر، ٢٠٠٤ - ترجمة: ص ٣٥)

البعد التاسع:

يشير إلى تراجع الروح النقدية. لقد استمرت روح النقد كما عبرت عنها الأنساق النظرية الشاملة للمرحلة الكلاسيكية، التي تشكل جميعها نقداً للمجتمع الصناعي، بغض النظر عن اختلاف المرجعية، وقد حاولت جميعها بعد نقد الأوضاع المعاصرة للمجتمع حينئذ، أن تقدم حلولاً لمشكلاته، حتى هذه اللحظة كان التنظير الاجتماعي يقوم بدوره النقدي بامتياز، يشخص المشكلات الراهنة، ثم يحاول التعرف على الحلول التي يمكن أن تقدم لمواجهة هذه المشكلات.

يرى غولدنر أن التنظير الاجتماعي تراجع عن الرؤية النقدية الشاملة، وظهرت نظريات عديدة على طريقة التنظير الاجتماعي: نظرية الدور والسلوكية والتفاعلية الرمزية وعلم اجتماع المسرح ونظرية التبادل، وكلها تشكل علم

اجتماع مخصي ومسالم وعاجز عن النقد، وحتى نظرية النقد الاجتماعي التي تبنت الروح الماركسية، والتي ظهرت خلال هذه الفترة، لم تتحدث بذات اللغة الماركسية المتمردة التي أرادت تغيير النظام الرأسمالي بحثًا عن العدل الاجتماعي، بل تحدثت بلغة هشة وخافتة. واستسلم التنظير الاجتماعي لدولة الرفاهية وسلّم بشروطها، بل وبدأ يلعب دورًا في الحفاظ على سيطرتها على العالم خلال عصر العولمة. ولذلك صورته الكثيرة، ترافقت أحيانًا بالتبرير لعملية وايدولوجيا العولمة، وباحتمية انتصارها، وترافقت في أحيان ثانية بإجراء البحوث الممولة من دولة الرفاهية الأولى حول جوانب وظواهر مختلفة لمجتمعات العالم للتعرف على طبيعة الثقافات التي تقف في مواجهة اكتمال العولمة، ونقل المعلومات عنها إلى مراكز التحليل العلمي والمخبراتي في دولة المركز لتعيد ترسيم وترشيد سياساتها لفرض العولمة حتى ولو على حسابات محو الثقافة القومية، حتى ولو كان الثمن إلغاء الكيانات القومية من الأساس، كما حدث في الصومال وأفغانستان والعراق، ومناطق كثيرة من العالم، حيث الدراسة أولاً، ثم سياسات التفكيك وإعادة التشكيل المستندة إلى ذلك، بهدف خلق الفضاء الواسع بلا عقبات أمام تدفق موجات العولمة. (غولدر، ٢٠٠٤: ص ٣٧)؛ لذلك ينظر إلى علم الاجتماع في كل مكان، بوصفه وسيلة محافظة لمجتمع قهري. علم الاجتماع الأكاديمي الأميركي يعد وسيلة المؤسسة الأميركية الرأسمالية. وعلم الاجتماع في الاتحاد السوفياتي كان خاضعًا للسلطة هناك. (غولدر، ٢٠٠٤: ص ٥٢)

٣. إعلان البعض عن إفلاس العلوم الاجتماعية:

صرّح بعض المفكرين، أمثال بوسينو، بإفلاس العلوم الاجتماعية، وموت علم الاجتماع، وبطلان كل نماذج معرفتنا للاجتماعي؛ فلقد اعتبر هذا الباحث أن علم الاجتماع قد ظهر في اللحظة التي بدأت فيها مجتمعات النظام القديم بالانهيار، وهذا ما دفع علماء الاجتماع الأوائل، الذين أرادوا أن يكونوا علماء حقيقيين ومصلحين اجتماعيين وأنبياء للنظام الاجتماعي الحقيقي،

لمحاولة تبني الاصلاح كدافع قوي لأعمالهم . أما في أواخر السبعينات، ودائمًا وفق بوسينو، فإن الوظيفة والتأكيدات والتحليلات والتنبؤات المتعلقة بالواقع التاريخي الاجتماعي والتي غدّت تفكيرنا أو وجهت بحوثنا، قد بدأت تتمزق تقريباً، بل وأكثر يمكن تشبيهها بالحشوية والخادعة، وهو ما يفسر، وفق هذا الباحث، العجز عن فهم وتفسير انبثاق الجديد، وهو الامر الذي أدى إلى ادخال علم الاجتماع في مرحلة ركود هائل . (بوسينو، ٢٠٠٨: ص ٧، ١٨، ٢٢)، وأدى إلى معاناة هذا العلم من اختلاجات وانقلابات عنيفة . فبعد أن ترسخت لأمد طويل في صخر الطبيعة والعقل، وفي معاقل الاقتصاد والعلاقات الطبقيّة .

ويعتبر بوسينو أن علماء الاجتماع يقفون اليوم وقفة حائرة أمام الرجال والمجموعات الاجتماعية لعدم قدرتهم إعطاء معنى لوجودهم، ولعدم قدرتهم حتى على اقتراح غايات، ولو مؤقتة أو بالية، أمام عقلانية مفككة الأوصال، لكي لا نقول حشوية بشكل غير مفيد. (المرجع السابق: ص ١٨)

أما سبورك، فإنه يعتقد أن علم الاجتماع، الذي استند في الماضي إلى واقع الدولة - الأمة، الذي ظهر في أوروبا، والذي يتم تجاوزه حالياً بعد انبثاق أوروبا كدولة متجاوزة للدول - الأمم، هو اليوم أمام تحديات كبيرة . فمفهوم الدولة الأمه قد شكلت النقطة المرجعية لتحديد موضوعات علم الاجتماع كما لمأسسته ولوجوده المادي، قد تمّ تخطيه، وهذا ما يشكل، برأيه/ رهاناً كبيراً لهذا العلم، إذ أن موضوعه يتغير ونقطة مرجعيته تتحول . إن إطار الدولة - الأمة القديم يفسح المكان لبنية ما زالت سديمية (غامضة) تسمى «الاتحاد الأوروبي» أو أوروبا وكذلك لمجموعة من الأقاليم الكبرى التي لم تعد تتلاءم مع حدود الدول - الأمم في القرن العشرين . (سبورك، ٢٠٠٩: ص ٢٢) .

ويعتقد سبورك أن أحد الآفاق الممكنة والأكثر احتمالاً لعلم الاجتماع

هو:

- تمديد الاتجاه الضاغط القائم الآن، أي تحول هذا العلم إلى إصدار شهادات الخبرة وإلى آلة تصوير وإلى تكنولوجيا اجتماعية، لا سيما أن علم الاجتماع هو، وفق هذا الباحث، علمًا تصويريًا وملتزمًا بخط الطلب الاجتماعي الذي هو طلب أداتي خاص بالمؤسسات العامة والخاصة وكذلك بالثقافة الصناعية، ويهتم أكثر فأكثر بالتوقعات وجمع المعطيات والتنظيم.

- تطوير نظرية نقدية تكون بمثابة تحليل «الحالات الاجتماعية المرضية» من أجل الالتزام في عملية التطوير العام والمعقول لآفاق مستقبلية ممكنة للمجتمع الأوروبي الطالع أو الناشئ. (سبورك، ٢٠٠٩: ص ٢٣)

فعلم الاجتماع المدفوع بالبحث عن فهم المجتمع هو في الأصل، وفق سبورك، مرتبط بمجتمع نوعي أي المجتمع الرأسمالي الذي يصبح معولمًا. لذلك فإن مهده هو أوروبا حيث ولد ذلك المجتمع. وبمقدار ما الرأسمالية تتعولم، فإن علم الاجتماع يتجه إلى التطور في القارات الأخرى. (سبورك، ٢٠٠٩: ص ٣٥)، إن وضع علم الاجتماع، كما يقول سبورك، حتى في أوروبا، يتغير ببطء وبعمق خصوصًا بسبب الانقلاب الاجتماعي العميق لكن غير المتساوي واللامتزامن تبعًا لمختلف البلدان الأوروبية والذي وضع المجتمعات الأوروبية في اتجاهات متجانسة وأدى إلى الفردانية التسلسلية، وخصوصًا أيضًا بسبب بروز «المجموعة الأوروبية» على مستوى الدولة - السياسة. فحالات القطيعة الأكثر جوهرية التي سمحت ببروز الفردانية التسلسلية تجسدت أولًا، وفق ما يعتقد سبورك، بنهاية الأنظمة «الاشتراكية» في أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية. (المرجع السابق: ص ٧٤)

٤. ألان تورين: الدعوة إلى براديغما جديدة

يدعو ألان تورين إلى براديغما جديدة لعلم الاجتماع، انطلاقًا من القضايا الثقافية. ويشير إلى انقطاع الروابط الاجتماعية وانتصار فردانية مفككة، وفقدان

مركزية المقولات الاجتماعية وتقوّضها؛ يرى أن البراديغما الاقتصادية والاجتماعية قد حلّت محل البراديغما السياسية، عندما انتصر الاقتصاد على السياسة مع الثورة الصناعية والرأسمالية. فالיום وبعد قرنين على انتصار الاقتصاد على السياسة، باتت المقولات الاجتماعية، برأيه، مبهمة، وبتنا بحاجة إلى براديغما جديدة لأنه لم يعد في وسعنا العودة إلى البراديغما السياسية، لا سيّما أن القضايا الثقافية قد بلغت من الأهمية حدًا يفرض على الفكر الاجتماعي الانتظام حولها. (تورين، ٢٠١١: ص. ص. ١٣، ١٥)؛ ويحلل تورين في القسم الأول من كتابه: «براديغما جديدة لفهم عالم اليوم» نهاية الاجتماعي وجميع ظواهر التفكك. كما ويتحدث عن الباحثين الاجتماعيين ضمن الفصل الثاني الذي يحمل العنوان الآتي: «عندما كنا نتكلم عن ذواتنا بمصطلحات اجتماعية». أما القسم الثاني من الكتاب فعنوانه بـ: «الآن وقد بتنا نتكلم عن ذواتنا بمصطلحات ثقافية»، ويتحدث فيه عن الذات الفاعلة والحقوق الثقافية. (المرجع السابق: ص. ١٩)؛ فبرأي هذا الباحث، أننا نعيش حاليًا مرحلة تفتت المجتمع إلى جماعات. ويقول في هذا الصدد: «إن الانتقال من الجماعات إلى المجتمع ومن الهويات الجماعية إلى حكم القانون، كان يبدو في أواخر القرن التاسع عشر الأوروبي وكأنه تطور عظيم، فهل نعيش اليوم حركة في إتجاه معاكس؟ أعني عودة إلى الجماعات المنغلقة على ذاتها والتي تمسك بزمامها سلطة مستبدة ترفض، من منطلق العداوة، سائر الجماعات؟ (المرجع السابق: ص. ٢٩)

ويشير تورين إلى تراجع الحركات العمالية وتراجع قوة تأثيرها ونفوذها وقدرتها في الضغط على الدولة. لقد انقطعت برأيه الصلة الوثيقة التي كانت تربط بين المطالب الاقتصادية ونضالات الموظفين السياسية. وهو يعتبر أن أكثر من عانى بسبب ذلك هي الأحزاب السياسية، لا سيما اليسارية منها وخاصة الحزب الشيوعي. فالיום، تتراجع حركة الانضمام إلى النقابات، وتتزايد المطالب الثقافية سواء بشكل طائفي محدث أو بشكل دعوة إلى ذات ثقافية فاعلة، والمطالبة بحقوق ثقافية. (المرجع السابق: ص. ص. ٣١ - ٣٣).

ويتحدث تورين أيضًا عن ثلاث موضوعات تشهدها هذه المرحلة الجديدة:

١. التفكك الاجتماعي

٢. تعاظم القوى الموضوعية فوق المجتمع: الحرب، الأسواق، الطائفية، العنف،

٣. الفردانية. (المرجع السابق: ص ٣٦)،

ويقول في هذا الصدد: لقد ولدت أزمة البراديجما الاجتماعية التي تنظم الحياة الاجتماعية - وتفككها، تحديدًا، فوضى ابتلعت العنف والحرب وسيطرة الأسواق، تلك التي تغلت من الضوابط الاجتماعية، كما ابتلعت هاجس هوية الطائفيات. (المرجع السابق: ص ٣٥)؛ ويعتبر أن فكرة مجتمع المعلومات والاتصالات قد فرضت نفسها على الرأي العام العالمي انطلاقًا من تطور الانترنت والشبكات المالية. (المرجع السابق: ص ٤٨)؛ فهذه الصورة التي توحى بها العولمة، هي صورة شبكات من المعلومات والمقايضات التي يمكن أن لا يكون لها أي وجود مادي. (المرجع السابق: ص ٥٠)، لذلك فإن العلوم الاجتماعية تشكو من قصور بالغ الخطورة، يتعين تداركه، فهي تتكلم على واقع اجتماعي بمصطلحات لم تعد تتلاءم مع النموذج الثقافي الذي نعيش فيه.

ويعتبر تورين، بناءً على كل ما تقدم، أنه يجب أن يكون التشكيك بمقولات السوسيولوجية الكلاسيكية أحد انشغالاتنا الرئيسية. يجب أن تخلي سوسيولوجيا الأنساق المكان لسوسيولوجيا الفاعلين والذوات الفاعلة. (المرجع السابق: ص ٩٩)؛ كما يرى أن نموذج التطور الأوروبي الذي تطابق مع مفهوم المجتمع، وبالتالي مع الفكرة التي تنفي أن يكون للاجتماعي أساس غير ذاته، هو في طريقه إلى الزوال، ولو أن بعض وجوهه تعاود ظهورها من خلال أشكال تطور أخرى. (المرجع السابق: ص ١١٢)، فالساحة التي كانت ساحة العلاقات بين المجتمعات باتت اليوم خاضعة لاجتياح قوى الحرب والمال والخوف والعنف. (المرجع السابق: ص ١١٦)

٥. ريمون بودون: الدعوة إلى النظرية العامة في العقلانية

يرى بودون أن كلاً من الثقافية والبنوية ونظرية الاختيار العقلاني، وسواها من النظريات العامة المعمول بها حالياً في مجال العلوم الاجتماعية تولد لدينا شعوراً بالغرابة، حيث إن بعضها ينسب إلى الكائن البشري غريزة مسيطرة، وبعضها الآخر يعتبره خاضعاً لقوى سوسيوثقافية، أو بيولوجية إفتراضية قد لا يكون إثباتها ممكناً إلا في علوم الحياة. وهكذا نرى الماركسية والفرويدية والبنوية والاجتماعوية والثقافية، وحتى نظرية الاختيار العقلاني، والتأويلات الطبيعية للعوامل التي أكدتها المناهج الإحصائية المعتمدة في «تحليل المعطيات»، تشترك كلها في تسويق رؤية غير واقعية للكائن البشري. (بودون، أبحاث في النظرية العامة في العقلانية، ٢٠١٠: ص ٦١)

ويعتبر بودون أنه إذا كان التفسير العفوي الظواهر الاجتماعية يجعل منها عادة نتيجة لتصرفات لا عقلانية، فإن النظرية العامة في العقلانية توجب ردّها إلى علل عقلانية. ذلك ما أدركه بالفطرة كل من توكفيل وفبير ودوركهائم إذ رأوا أن التفسير السوسولوجي غالباً ما يتمثل في توسيع حدود العقلاني. إنها إحدى أبرز السمات التي تشهد على عظمة تأليفهم وتجعل منها توطئة لمذاهب العلوم الاجتماعية التي تمر اليوم بأزمة هوية. (المرجع السابق: ص ٢٢). لقد جاءت نظرية الاختيار العقلاني، برأيه، بديلاً عن قصور المفهوم الذي يرى الكائن البشري خاضعاً جوهرياً لقوى مجهولة نابعة من مصدر اجتماعي أو اقتصادي أو ثقافي أو بيولوجي.

إن النفوذ الذي تحظى به نظرية الاختيار العقلاني مردّه، ودئماً وفق بودون، إلى عاملين هما: نجاحاتها العلمية التي لا تنكر، واعتقاد كثيرين بأنها توفّر بديلاً لمفهوم السلوك القابل للجدل. (المرجع السابق: ص ٣٣)، فلقد سقطت، برأيه، نظرية الاختيار العقلاني في الوهدة التي أرادت أن تنتشل منها العلوم الاجتماعية حين اكتفت باستدعاء الفكرة القائلة أن الفاعلين الاجتماعيين يتصرفون بتأثير من «الأطر» التي أرستها القوى المغفلة لتفسير ما يفوتها من

تصرفات. وقد صدق كارل بوبر إذ قال إن فكرة «الإطار» هي فكرة أسطورية محض ولا تستحق أن تنسب إلى اللغة العلمية. (المرجع السابق: ص ٣٤).

يفسر بودون النظرية العامة في العقلانية، فيقول أنها تتحدّد ضمن منظور الفردانية المنهجية، مثل نظرية الاختيار العقلاني، لكنها بخلافها تتحاشى اختزال عقلانية الكائن البشري ببعدها الأداة، معتبرة أن العقلانية تتعدى اختيار الوسائل إلى الغايات والقيّم. النظرية العامة في العقلانية تبنى على تشخيص مفاده أن عيوب نظرية الاختيار العقلاني ناجمة عن خلطها بين العقلانية والعقلانية الأداة. النظرية الاجتماعية في العقلانية تتيح تفسير الظواهر الاجتماعية الأساسية، تفسيراً ينأى بها عن اللاعقلانية التي تطبع تفسيرات شائعة وغير مقنعة تجعل من هذه الظواهر نتيجة حتميات سوسيوثقافية. وتتحاشى كلياً استدعاء قوى افتراضية مغلقة في تفسيرها سلوك البشر وأعمالهم ومعتقداتهم. (المرجع السابق: ص. ص ٣٦ و ٣٧)؛ فالأطر النظرية العامة التي ألهمت العلوم الاجتماعية بل والعلوم الإنسانية عامة، راحت كلها تنهاوى الواحد بعد الآخر، حتى ينظر كثيرون اليوم إلى البنيوية والبنيوية الوظيفية والماركسية والفرويدية وكأنها مسالك مغلقة. هذه المذاهب، كما يقول بودون، تنتمي اليوم إلى تاريخ الفكر أكثر منها إلى عالم الأفكار الحيّة، ولم تعد تصلح لتوجيه البحث على الإطلاق. (المرجع السابق: ص ٤٧)

ويرى بودون أن العلوم الاجتماعية تتميز اليوم بافتقادها إلى إطار نظري عام، بالمعنى الحقيقي، من هنا انطباعها بالوصفية. وهي، لئن كانت تكدّس الدراسات الخاصة - والمفيدة، أغلب الأحيان - حول أكثر الموضوعات تنوعاً، توحى أيضاً بضياح هويتها وتداعبها على نحو يستحيل تداركه. فإخفاق العلوم الاجتماعية المعاصرة عائد، برأيه، إلى ارتباطها بنظرية في السلوك الإنساني قابلة للجدل، وبتصوّر ضيق للعقلانية، مما يحكم عليها بتقديم تفسيرات هشة للظواهر الاجتماعية. (المرجع السابق: ص ٥٢)؛ ولهذا يعتبر

أن العلوم الاجتماعية قد حققت، منذ منتصف القرن العشرين، تطوراً لا ينكر في المجال الخاص بطرق الرصد وتحليل معطيات البحث الاجتماعي، لكن تطورها كان دون ذلك بكثير في مجال تحليل الظواهر الاجتماعية. ويدعو إلى اعتماد المنهج الفردي المنسجم مع نظرية منفتحة في العقلانية يفوق خصباً وشمولاً كل ما أعدته العلوم الاجتماعية من برامج. (المرجع السابق: ص. ٧٩ و٨٠).

وكحل لواقع العلوم الاجتماعية اليوم، يرى بودون أن التفكير الناقد هو طريق جوهرية للتقدم العلمي. فشعور الإخفاق الذي توحى به نظريات التغيير الاجتماعي للكثير من المراقبين هو واقع ليس لتحليله فائدة علمية وحسب. إن عدم الاكتفاء بمجرد موقف من الشكوكية، ومحاولة فهم أسباب هذا الفشل بوضوح، يعنيان التموضع بشكل أفضل لفهم الموضوع الذي تهدف إليه المعرفة. يمكن لتحليل الفشل في الشأن العلمي أن يسهم في تقدم المعرفة. (بودون، موضع الفوضى، ١٩٩٩: ص ٧)

٦. كارل بوبر: العقلانية والموقف الاجتماعي

يرفض كارل بوبر الاعتقاد بالمصير التاريخي ويعتبره مجرد خرافة، فلا يمكن التنبؤ بمجرى التاريخ الإنساني بطريقة من الطرق العلمية أو العقلية. (بوبر، بؤس الايديولوجيا، ١٩٩٢: ص ٥)، لأن التاريخ يتأثر في سيره تأثراً قوياً بنمو المعرفة الإنسانية. ولا يمكن أن نتنبأ، بالطرق العقلية أو العلمية، بكيفية نمو معارفنا العلمية. إذن، فاستنتاج بوبر قائم على أنه لا يمكن التنبؤ بمستقبل سير التاريخ الإنساني، لذلك يجب أن نرفض، برأيه، إمكان قيام علم تاريخي اجتماعي يقابل علم الطبيعة النظري. إذ لا يمكن، وفق بوبر، أن تقوم نظرية علمية في التطور التاريخي تصلح أساساً للتنبؤ التاريخي. لكن هذا الاستنتاج لا يعني، برأيه، أن رفض إمكان كل أنواع التنبؤ الاجتماعي، فهو على العكس من ذلك يتفق تمام الاتفاق وإمكان اختبار النظريات الاجتماعية، كالنظريات الاقتصادية، عن طريق التنبؤ بأن أموراً معينة سوف تحدث إن

تحققت شروط معينة. وإنما هو يدحض إمكان التنبؤ بالتطورات التاريخية إلى الحد الذي يمكن أن تتأثر بنمو معارفنا. (بوبر، المرجع السابق: ص. ٧ و٨)؛ ويرفض أيضاً النزعة الكلية في التفكير، فيعتبرها سابقة على المرحلة العلمية. (المرجع السابق: ص ٩٠)، ويعتبر أن المعرفة العلمية والعقلانية الإنسانية معرّضتان للوقوع في الخطأ. (بوبر، أسطورة الإطار، ٢٠٠٣: ص ٢٧).

يرى بوبر أيضاً أن التغيير يحصل من داخل البنية للتكيف مع الضغوط الخارجية. في المستوى الجيني والمستوى السلوكي والكشف العلمي. يبدأ التكيف برأيه من بنية موروثية أساسية بالنسبة إلى المستويات الثلاثة: البنية الجينية للكائن الحي. يناظرها، في المستوى السلوكي، المخزون الفطري من أنماط السلوك المتاحة، ويأظرها في المستوى العلمي الحدوس الافتراضية أو النظريات العلمية السائدة. ودائماً تنتقل هذه البنيات عن طريق التوجيه من داخل البنية، في المستويات الثلاثة جميعاً: عن طريق تكاثر في البنية الجينية المشفرة في المستويين الجيني والسلوكي، وعن طريق التقاليد الاجتماعية والمحاكاة في المستويين السلوكي والعلمي. يأتي التوجيه من صميم البنية في المستويات الثلاثة جميعاً. أما إذا حدثت طفرات أو تحولات أو أخطاء، فثمة توجيهات جديدة، تنشأ هي الأخرى من صميم البنية.

ويعتبر بوبر أن هذه البنيات المتوارثة تتعرض لضغوط معينة، أو تحديات معينة، أو مشاكل معينة: لضغوط الانتخاب، لتحديات البيئة، للمشاكل النظرية. وفي الاستجابة لهذا، تنشأ التغييرات في البنيات المتوارثة، البنية الجينية أو بنية التقاليد الاجتماعية. (بوبر، المرجع السابق: ص ٣٧)، فالتغييرات في المستوى الجيني، هي الطفرات وتوليفات التوجيه المشفر. أما في المستوى السلوكي، فهي التحولات والتوليفات في المخزون الفطري من أنماط السلوك. وفي المستوى العلمي، هي نظريات مبدئية، جديدة وثنوية. في المستويات الثلاثة يوجد محاولات مبدئية لتوجيهات جديدة. هذه المحاولات المبدئية هي تغييرات تتولد في المستويات الثلاثة، عن الداخل من صميم البنية

الفردية بأسلوب يتسم بدرجة من العشوائية. المرحلة التالية هي الانتخاب من بين الطفرات والتحويلات المتاحة: من بين المحاولات المبدئية الجديدة تستبعد تلك التي تمثل تكيّفًا رديئًا. هذه هي مرحلة استبعاد الخطأ. فقط المحاولات التوجيهية للتكيّف الجيد هي التي تبقى. لانصل بالمحاولة واستبعاد الخطأ إلى حالة من التكيّف ثابتة ومتوازنة تمامًا. وذلك، أولاً، من غير الممكن الظفر بمحاولة مكتملة ومثلّية لحل المشكلة. وثانيًا، وهو الأهم، لأن بزوغ بنيات جديدة أو توجيهات جديدة يتضمن تغييرًا في الموقف البيئي. وبالتالي قد تنشأ ضغوطًا جديدة وتحديات جديدة ومشاكل جديدة كنتيجة لتغيّر البنية الذي نشأ فن صميم الكائن الحي. (بوبر، أسطورة الإطار، ٢٠٠٣: ص ٣٧).

ويعتبر بوبر أن المشكلة الأساسية في كل من العلوم الاجتماعية النظرية والتاريخية هي تفسير وفهم الأحداث في حدود الأفعال الإنسانية والمواقف الاجتماعية. إن المصطلح المفتاح هنا هو «الموقف الاجتماعي» (المرجع السابق: ص ١٩٨)، إن الشروط الأولية في العلوم الطبيعية يقابلها في العلوم الاجتماعية، وصف موقف تاريخي اجتماعي. والنماذج في العلوم الاجتماعية هي في جوهرها توصيفات أو إعادة تشييد مواقف اجتماعية نمطية. إن فكرة الموقف الاجتماعي هي المقولة الأساسية في منهجية العلوم الاجتماعية. كل مشكلة التفسير في العلوم الاجتماعية تتطلب تحليلًا لموقف اجتماعي. (المرجع السابق: ص ١٩٩٩)، إن تحليل الموقف يشمل على بعض الأشياء الفيزيائية وبعض من خصائصها وأوضاعها، وبعض المؤسسات الاجتماعية وبعض خصائصها، وبعض الأهداف وبعض عناصر المعرفة. (المرجع السابق: ص ٢٠١)، ما يناسب العلوم الاجتماعية هو مبدأ العقلانية ومنهج تحليل الموقف. (المرجع السابق: ص ٢٠٦)

٧. بيار بورديو: المعرفة السوسولوجية

المعرفة السوسولوجية حسب بورديو ينبغي أن تتضمن بعدًا تجريبيًا، ككل معرفة علمية، يملك علم الاجتماع نظرياته وتصوراته ومناهجه: أطر البحث، الأدوات والإجراءات التي تكوّن البنية المنطقية للمعرفة السوسولوجية، ولكي

تصير هكذا، فإن هذه الأخيرة ينبغي أن تتضمن بعداً تجريبياً هو ثمرة المواجهة بين طروحات نظرية، وبين مدونة معطيات تتعلق بالمجال الاجتماعي المدروس. على أن بورديو الذي يقتفي خطوات دوركهايم وباشلار، كل واحد داخل ميدانه الخاص، فإنه يلح على الحذر الإستيمولوجي الذي يجب الإبقاء عليه حيال بدهمة الوقائع والمعارف العفوية وبالأخص في حالة علوم الإنسان التي هي علاقة بموضوع ناطق. ويشدد بورديو هكذا على مرحلة بناء الموضوع في التحقيق السوسولوجي. لأنه بعيد عن مسألة فرض المقولات المشتركة للعالم الاجتماعي التي يدرسها، وأن يكون هكذا مأخوذاً بالمظاهر الأولية على حساب الولوج إلى معرفة البنيات الاجتماعية. (ستيفان شوفالييه - كريستيان شوفيري، ٢٠١٣: ص ٢٣)

يشدد بورديو على أهمية النقد العلمي، فالعلم يزداد قوة كلما زاد النقد العلمي صرامة، أي كلما ازدهرت الصبغة العلمية للأدوات التي هي في متناول المثقف، وسادت ضرورة استخدام أسلحة العلم وأدواته وحدها دون الأدوات الأخرى. وفعلاً ان الميدان العلمي هو ميدان صراع كباقي الميادين الأخرى، إلا أنه يتميز بكون المواقف الانتقادية التي تبعث عليها المنافسة لا تجد تحقيقها إلا إذا استطاعت أن توظف مجموع ما تراكم من ثروات علمية. فكلما تقدم العلم، أي كلما ازدادت مكتسباته الجماعية أهمية، فإن الخوض في الصراع العلمي يفترض التوفر على رأسمال علمي أغنى وأهم. يتمخض عن ذلك أن الثروات العلمية لا تظهر عند أفقر الناس، بل عند أغناهم علماء. (بورديو، ٢٠٠٧: ص ١٥)

ويؤكد بورديو على ضرورة اجراء قطيعة مع انتمائنا وعقائدنا، ويقول: لا نقتحم ميدان السوسولوجيا دون أن نقطع أواصر الصلة التي تشدنا عادة إلى جماعات معينة ونتخلى عن العقائد التي تشكل انتماءنا وتحده، وبتنكر لجميع الانتماءات والارتباطات. وهكذا فإن عالم الاجتماع الذي ينحدر مما نسميه الشعب فيرقى إلى ما نسميه النخبة، لا يستطيع أن يبلغ درجة الوعي الخاص الذي يرتبط بجميع أنواع الاغتراب الاجتماعي، ما لم يفصح المفهوم الشعبي

عن الشعب، ذلك المفهوم الذي لا يخدع الا أصحابه، وكذلك المفهوم النخبوي عن النخبة الذي صيغ بحيث يخدع القائلين به وغيرهم في ذات الوقت. (بورديو: ص ٨).

ويحدّر من خطر البعد السياسي قائلًا: تنطوي السوسولوجيا على ضعف جوهرى ينتج عن امكان خداع المقتضيات العلمية عن طريق السياسة. مما يجعلها تنتظر من السلطات التي تعول عليها نفس ما تتوقعه من شروور من السلطات التي تود اختفاءها. (المرجع السابق: ص ١٦)؛ ويدعو إلى اعتماد فكرة المجال التي تستدعي قلبًا تامًا للرؤية العادية للميدان الاجتماعي، تلك الرؤية التي تكتفي بالأمور المرئية وحدها: كالفرد الذي يربطنا به نوع من المصلحة الإيديولوجية الأساسية، أو الجماعة التي لا تحدد إلا ظاهريًا عن طريق العلاقات التي تربط الأفراد كما تتم بالفعل، وفي الواقع، كما أن نظرية الجاذبية عند نيوتن لم تتكوّن إلا بانفصالها عن الواقعية الديكارتية التي كانت تأبى الاعتراف بأي نوع آخر من الفعل الفيزيائي، عدا الصدمة والاتصال المباشر، فإن مفهوم المجال يفترض قطعة مع التمثل الواقعي الذي يدعو إلى إرجاع تأثير فعل الوسط إلى تأثير العمل المباشر الذي يتم عن طريق تبادل الفعل، هذا في حين أن بنية العلاقات التي تشكل فضاء المجال هي التي تتحكم في الصورة التي يمكن لعلاقات التفاعل الظاهرية أن تتخذها، بل وفي محتوى الخبرة التي يمكن أن تكون لدى الأعضاء بصددها. إن أخذ فضاء العلاقات الذي يتحرك في الأعضاء بعين الاعتبار، يقتضي الانفصال النهائي عن فلسفة التاريخ التي يتضمنها الاستعمال العادي للغة العادية. (المرجع السابق: ص ٢٣).

علمية علم الاجتماع

تجسدت الوظيفة النقدية، لعلم الاجتماع الجديد مع رواه الأوائل، نذكر من بينهم: كونت الذي اعتبر أنه ما من علم الا الذي يستند إلى العقل والوقائع. وهذه الإحالة إلى الفيزياء عند كونت تشير إلى رغبة هذا الأخير في

بناء علم حقيقي، مهموم بإيجاد القوانين، وبالاستناد إلى معطيات مؤكدة بصلافة وبراهين جازمة. هنا تكمن المبادئ الأولى للفلسفة الوضعية التي يعتبر كونت أول دعايتها. (كابان، ٢٠١٠ - ص ٢٢). لقد كان كونت يعتبر أن حل المشكلات الاجتماعية يمكن أن يتم باستخدام السوسيولوجيا. وقد نشأت فلسفة كونت وتطورت خلال الأزمة الاجتماعية والأخلاقية التي أعقبت الثورة الفرنسية. (COMTE 2002, p. 12) أما كارل ماركس، فلقد وضع أعماله في خدمة التنديد بالنظام الاجتماعي. وينظر لأعمال بورديو بصفتها مشروع كشف النقاب وإزالة الغموض عن نظام اجتماعي مستتر. (كابان، ٢٠١٠ - ص ١٠).

أ. النظرية في علم الاجتماع

تلعب النظرية دورًا أساسيًا في دراسة الواقع الطبيعي أو الواقع الاجتماعي. والنظرية العلمية هي جهاز مفهومي ذو طابع رمزي ومنطقي، يستجيب لعدة شروط، منها الملاءمة في مواجهة إشكالية محددة وموضوعات معينة، والتماسك فيما يخص مجموعة المفاهيم والقضايا التي تستعملها النظرية، والاختبار في مواجهة إجراءات عملية (ميدانية) توظف لجمع المعطيات (البيانات). (هارمان، ٢٠٠٩: ص ١٥)

تقوم النظرية دائمًا بعملية اختزال لحقل المشكلات التي مهدت لبلورتها، إنها محددة وتشير إلى مجال دقيق ومحدد من الواقع. إضافة إلى ذلك فهي تحتفظ بطابع افتراضي، قابلة للمراجعة، قابلة لإثبات خطئها، ولا نستطيع اعتبارها صادقة بشكل نهائي دون أن نعرضها باستمرار للاختبار في مواجهة وقائع أخرى ونظريات أخرى (كارل بوبر) (هارمان، ٢٠٠٩: ص ١٦)

يرى كارل بوبر أن الفكرة القائلة أننا نستطيع أن نطهر عقولنا كما نشاء من الانحيازات وبالتالي نتخلص من كل الأفكار أو النظريات المسبقة - السابقة على البحث العلمي والممهدة له - فكرة ساذجة وخاطئة. نحن نتعلم من خلال البحث العلمي أساسًا أن أفكارًا معينة من ضمن أفكارنا - مثل فكرة الأرض

المسطحة أو الشمس المتحركة - هي انحيازات. الواقعة القائلة إن معتقداً من معتقداتنا كان انحيازاً نكتشفها فقط بعد تقدم في العلم أدى بنا إلى نبذها، إذ ليس هناك معيار يمكن بواسطته أن نتعرف على الانحيازات في استباق لهذا التقدم. وبالتالي إن الدعوة إلى تطهير النفس من الانحيازات وتطهير العقل من النظريات لن يؤديا الا إلى عقل فارغ. (بوبر، أسطورة الإطار، ٢٠٠٣: ص ١١٥)

نعمل دائماً بنظريات، حتى وإن كنا على غير وعي بهذا في كثير من الأحوال، وفي كل حال ينبغي أن نحاول صياغة النظريات التي نستمسك بها صياغة واضحة، لأن هذا يجعل من الممكن أن نبحث عن نظريات بديلة، وأن نميز بين نظرية وأخرى على أسس نقدية.

تعددت النظريات إذاً في علم الاجتماع وتناقضت في تفسيرها ومقاربتها للواقع الاجتماعي. فالنظرية الاجتماعية قد شهدت جدلاً عنيفاً، ساهم في سيادة مجموعة من النماذج التي تصدت لتحليل الوجود الاجتماعي ومحدداته البنائية. ولطالما أن علم الاجتماع يعجز عن سيادة الإجماع، فإن المراقب يستطيع أن يلتمس حجم عمليات الشد والجذب في تعيين طبيعة المعرفة الموضوعية وآليات الوصول إليها، ذلك ما أصاب النظرية السوسولوجية بأزمة فكرية، ناهيك عن عدم الوصول إلى نظرية واحدة توشج بين الفكر والممارسة في آن. (صيام، ٢٠٠٩: ص ٥)

ب. الملاحظة وارتباطها بالمكونات النظرية

لا يوجد ملاحظة خالصة، أي ملاحظة بدون مكونات نظرية، وكل ملاحظة وخصوصاً كل ملاحظة تجريبية، هي تأويل للوقائع في ضوء نظرية أو أخرى. (بوبر، أسطورة الإطار، ٢٠٠٣، ص ١١٦). يصور كارل بوبر نمو العلوم بأنه ناتج عن المنافسة بين نظريات تفسيرية متنوعة، تمثل على الدوام حلولاً مؤقتة لمشكلات محدودة. وتؤدي هذه المنافسة إلى التخلص تدريجياً

من بعض النظريات خلال مواجهتها بالاختبارات الحسية، كما تؤدي إلى إنتاج جسم من المعارف ينمو ويتطور باستمرار بواسطة عملية الانتخاب الطبيعي للفرضيات، والنقد الواعي والمنتظم بين الذوات العارفة المنتجة للنظريات. (هارمان، ٢٠٠٩: ص ٢٧)

ت. السببية في العلوم الاجتماعية

إن التحليل السببي مهم وأساسي في العلوم الطبيعية وفي العلوم الاجتماعية، لأنه هو الذي يؤدي إلى صياغة القوانين. وترتبط فكرة السببية في الفيزياء التجريبية بوجود متغير قابل للتحكم فيه من خلال عملية التجربة. فالأمر لا يتعلق بالبحث عن الأسباب النهائية، بل يتعلق بالكشف عن وجود متغيرات تجريبية فعالة. وبقدر ما تكون التجربة ممكنة في علم الاجتماع (أو وجود بديل عنها مثل التحليل المقارن المتعدد العوامل) فإن المخطط السببي يبقى صالحًا كموجه ولو أدى ذلك إلى تعديله في ضوء معرفتنا بحدود استعماله. إضافة إلى ذلك، فإن التحليل السببي يؤدي طبيعيًا إلى صياغة القوانين التي هي الغاية النهائية للبحث بالنسبة لعلم الاجتماع الوضعي. (هارمان، ٢٠٠٩: ص ٢٨)

إن الاعتماد على الفهم فقط يؤدي إلى الوقوع في الذاتية. وتصبح النظريات في النهاية تعابير تأويلية لفرد باحث يشارك في العالم الاجتماعي - الثقافي بطريقة فريدة وغير قابلة للمقارنة. إن الفهم عبارة عن تجربة فكرية وبصفته تلك لا ينبغي له أن يدعن لأسطورة اليقين الحدسي، بل أن يكون في خدمة الصياغة العلمية. إنه بمثابة حلقة الوصل بين منطق الاكتشاف ومنطق الإثبات (البرهان)، إنه يوفر وضوحًا مفهوميًا للنماذج إلى جانب معقوليتها، لكن لا يستطيع وحده أن يضمن أصالة تلك النماذج. إن منهج الفهم يمثل بعدًا أصيلاً في الأسلوب العلمي المتبع من قبل علم الاجتماع لكن ذلك لا يتيح له المطالبة بالخصوصية الكاملة لمثل هذه المناهج، ولا الانغلاق على نفسه في وجه الاكتشافات التي تحققها علوم أخرى. (هارمان، ٢٠٠٩، ص ٧٦)

ث. تعدد البرديغيات وحدود علمية علم الاجتماع

يحتوي علم الاجتماع على براديغيات متعارضة منذ تأسيسه مع كونت ودوركايم وماركس وماكس فيبر، وحتى اليوم مع تورين وبورديو والمدارس المختلفة والمتنوعة. وهذا الواقع هو الذي يدفع لطرح التساؤلات الآتية: هل العلوم الاجتماعية هي حقًا علمية؟ وماذا يعني أن تكون علمية؟ هل المجتمع هو مجموع الأفراد أم له وجود أساسي سابق للفرد كفرد؟

إعتبر الكثير من الباحثين، استنادًا إلى نظرية كون، أن علم الاجتماع لم يصل بعد إلى مرحلة العلم السوي الذي يسود فيه براديغيًا واحدًا مسيطرًا. أما يان كريب، فيرى أن هناك جملة من الأسباب تمنع العالم في العلوم الاجتماعية، من تطبيق النظرية بهذه الطريقة رغمًا عن فاعليتها في العلوم الطبيعية. وهو موضوع يجري الجدل حوله حتى في تلك العلوم. فتعتقد موضوع العلوم الاجتماعية، واستحالة عزل جوانب مهمة من الحياة الاجتماعية لاختبارها، لكون النشاط الإنساني هو عملية تستند على الوعي الذاتي والتأمل؛ إن كل هذه العوامل مجتمعة، تجعل اعتماد مثل هذه الطريقة الشبيهة بطريقة حل الألغاز - تشويها للواقع. (كريب، ١٩٩٩: ص ٣١). إن هذا الواقع هو الذي يفسر سبب تعارض البراديغيات التي ظهرت في علم الاجتماع مع أعمال الرواد ماركس، ماكس فيبر، ودوركايم، كما يبرر أيضًا تعارض البراديغيات في الأعمال المعاصرة لأن تورين وبورديو (Hamel 1997: p. 12).

رؤية علماء الاجتماع في علمية العلوم الاجتماعية

أمام هذا الواقع الذي شرحناه لمحدودية العلم في العلوم الاجتماعية، من المهم أن نحاول الاجابة عن التساؤل الآتي:

- هل يمكن الوصول إلى معرفة علمية في موضوعات الطبيعة والحياة ولا يمكن الوصول إليها في موضوعات الإنسان والمجتمع؟

١. بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية

يقول كارل بوبر في سياق علمية علم الاجتماع الآتي: «تصدت لمعتقد مانهايم بأن ثمة اختلافًا جوهريًا بين العالم الاجتماعي والعالم الطبيعي، أو بين دراسة المجتمع ودراسة الطبيعة، فيما يتعلق بالموضوعية. أما الأطروحة التي تصدى لها فهي أنه من السهل أن تكون موضوعيًا في العلوم الطبيعية، بينما لا تستطيع ذلك في العلوم الاجتماعية، إلا نخبة من ذوي العقول المتميزة. وفي مواجهة هذا شدد بوبر على أن الموضوعية في العلوم الطبيعية والاجتماعية لا تقوم على الحياد العقلي لدى العلماء، بل فقط على واقعة هي عمومية وتنافسية المشروع العلمي، وبالتالي على جوانب اجتماعية معينة له.

إن الموضوعية تقوم، وبرأي بوبر، على النقد العقلاني المتبادل، على المقاربة النقدية، على التقليد النقدي». فهو يعتبر أنه ليس علماء العلوم الطبيعية ذوي عقول أكثر موضوعية من عقول علماء العلوم الاجتماعية، ولا هم نقديون أكثر منهم. وإذا كان ثمة موضوعية أكثر في العلوم الطبيعية، فلأن فيها تقاليد أفضل ومقاييس أرفع للوضوح والنقد العقلاني. (بوبر، ٢٠٠٣: ص ٩٨)

ويشترط بوبر ضرورة التسليم بأن العلم دائمًا يبدأ بمشكلات وينتهي بمشكلات. ويكمن التقدم العلمي - أساسًا - في تطور المشكلات العلمية، ويمكن تقييم التقدم العلمي من خلال الزيادة في رهافة هذه المشكلات وثرائها وخصوبتها وعمقها. وبذلك نستطيع أن نظفر بأفضل تفهم لمناهج العلوم الطبيعية، وبالمثل لمناهج العلوم الاجتماعية. (بوبر، ٢٠٠٣، ص ١٨٧)

ويؤكد ريمون بودون بأنه لا يوجد انقطاع بين معرفة الطبيعة ومعرفة الإنسان. فالهدف الأساسي الذي ترمي إليه العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية هو تفسير الظواهر التي لا ندرك أسباب وجودها تلقائيًا، وقواعد الاستدلال المستخدمة هي نفسها في الحالتين، كون طرق المعرفة مستقاة من الموضوعات التي تقع عليها المعرفة. (بودون، ٢٠١٠: ص ٦٢).

ويحدد بودون كذلك العلاقات بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية بالآتي:

أ . إن الإجراءات المعتمدة هي نفسها في كل من العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية والمعرفة العادية. مجالات المعرفة الثلاثة هذه تستخدم قواعد متماثلة، كتلك التي تفرض السعي إلى إلغاء التناقضات التي تظهر بين النظرية والمراقبة وتدعو إلى حلها بإجراءات مشتركة بين المجالات الثلاثة، أو تلك التي تدعو إلى محاولة إدراك علل الظاهرة النهائية.

ب . إن المادية مسلّمة صحيحة في مجال العلوم الطبيعية لا الإنسانية، نظرًا إلى واقعيّتها في الأولى من دون الثانية. والواقعية تكون في أن نرى في العالم الطبيعي معلولًا لعلل مادية، أما أن نعتبره معلولًا لعلل غائية فذلك خرافة ووهم، بخلاف ما هي عليه الحال في العلوم الإنسانية حيث ينعكس طرفا العلاقة. (بودون، ٢٠١٠: ص ٧٤)

لا شك أن الخلاف حول حقيقة الواقع الاجتماعي يحمل في طياته تباينًا في المواقف حول علاقة الفرد بالجماعة والمجتمع، وبالتالي حول طبيعة الإنسان، حيث تظهر الاتجاهات الآتية:

- النظرة إلى الإنسان ككائن منفعل بما هو موجود من بناءات ونظم اجتماعية مما يتمخض عن حتمية اجتماعية أو حتميات أخرى.
- النظرة إلى الإنسان أنه بنشاطه وأفعاله وتصوراتهِ هو مصدر كل اجتماعي وذاتي، نافين أي وجود موضوعي للواقع الاجتماعي. فليس المجتمع إلا التصورات المشتركة لمعناه لدى الأفراد.
- الأخذ بالجانب الموضوعي والذاتي، أي الاعتراف بالوجود الموضوعي للجماعة والمجتمع، ممثلة في البناءات والنظم الاجتماعية، ولكن كنتيجة لفعل الإنسان ونشاطاته. والعلاقة بين الجانبين هي علاقة تبادلية. فالإنسان هنا حر فاعل نسبيًا، ولكن أفعاله وتوجهاته مرتبطة إلى حد ما بالبيئة الاجتماعية، كما أن هذه تتأثر بأفعال الإنسان. (عثمان، ٢٠٠٨: ص ٢٣ و ٢٤)

ويوجد أيضًا اختلاف في وحدة التحليل التي تشكل منطلق الدراسة الاجتماعية (المجتمع، نمط الانتاج، الوقائع الاجتماعية، الفعل الاجتماعي والتفاعل)

يرى ريمون بودون أن العلوم الاجتماعية تتميز بافتقادها إلى إطار نظري عام، بالمعنى الحقيقي، من هنا انطباعها بالوصفية. وبالرغم من تكديسها الدراسات الخاصة والمفيدة، أغلب الأحيان، حول أكثر المواضيع تنوعًا، توحي أيضًا بضياح هويتها وتداعيتها على نحو يستحيل تداركه. (بودون، ٢٠١٠: ص ٥٢)؛ وينتقد النظرية الكلية التي تنظر إلى السلوك وكأنه قابل للتفسير بقوى خارجة عن الفرد (قوى اجتماعية وثقافية...)، لكن نظريات أخرى تنسب إلى الفردانية تأبى، بالمقابل أن يكون مصدر أي ظاهرة اجتماعية خارج المبررات والدوافع القابلة للفهم مبدئيًا من قبل الفاعلين الاجتماعيين المسؤولين عن الظاهرة. (المرجع السابق: ص ٥٧)؛ وينتقد كذلك كلاً من الثقافية والبنوية ونظرية الاختيار العقلاني، وسواها من النظريات العامة المعمول بها حاليًا في مجال العلوم الاجتماعية، ويقول أنها تولد لدينا شعورًا بالغرابة، حيث إن بعضها ينسب إلى الكائن البشري غريزة مسيطرة، وبعضها الآخر يعتبره خاضعًا لقوى سوسيوثقافية، أو بيولوجية إفتراضية قد لا يكون إثبات وجودها ممكنًا إلا في علوم الحياة. وتتشرك كل هذه النظريات برأيه، في تسويق رؤية غير واقعية للكائن البشري. (المرجع السابق: ص ٦١).

أما جاك هارمان، وفي تحليله لخطابات علم الاجتماع في النظرية الاجتماعية، فيرى أن التيار الوضعي نادى بالوحدة المنهجية للعلوم، ونادى الآخرون بالتمايز بين منهج العلوم الطبيعية ومنهج العلوم الإنسانية والاجتماعية. ويليام ديلشي يميّز بين علوم الطبيعة وعلوم العقل (أو الروح). ويتميز هذا الأخير بعدم خضوعه للمناهج الطبيعية في تفسير الظواهر. ويعتبر علم الإنسان وحده الذي يستطيع تحقيق الفهم الداخلي لظواهره الخاصة. وهكذا تستدعي الثنائية القائمة على القطبين: الطبيعة|العقل (أو الروح) موقنين

إبستمولوجيين متباينين: التفسير من جهة، والفهم من جهة ثانية، مما يؤدي إلى وجود مجموعتين مستقلتين من العلوم: العلوم التصنيفية التي تسعى لإقامة قوانين عامة، وعلوم الأفكار الفريدة التي تقدم وصفًا لمجموعات خصوصية من الوقائع.

نتابع في عرض المواقف من علمية علم الاجتماع من خلال موقف الفيلسوف الألماني ريكرت، الذي يتميز بالتأكيد على وحدة المعرفة العلمية التي تتضمن نوعين من المعارف: المعرفة التعميمية والمعرفة التفريدية. ويمكن لأي اختصاص أو فرع علمي أن يستعمل المقاربتين أو المنهجين (التعميمي أو التفريدي) بحسب اهتمام الباحث. وهكذا يكون لكل من المقاربتين التصنيفية التعميمية من جهة والتفريدية (التخصيصة) من جهة أخرى مكانتهما في العلوم الفيزيائية أو الطبيعية كما في العلوم الاجتماعية أو التاريخية. فالتفسير والفهم يشكلان طريقتين للإدراك العقلي ولا يمكن أن يستخدمتا لتقسيم العلوم أو التفريق بينها. ويتضمن علم اجتماع الفهم كما أسسه ماكس فيبر مثل هذا الاعتقاد ويطوره ليميز الاقتصاد وعلم الاجتماع عن علم التاريخ باعتبارهما علوما تصنيفية تعميمية بينما علم التاريخ هو علم تفريدي أو تخصيصية. (هارمان، ٢٠٠٩: ص ٦٤)

باختصار، لقد نظر مؤسسو علم الاجتماع إلى دراسة المجتمع باعتبارها علمًا متكاملًا. ويمكن أن ندرس الظواهر الاجتماعية بطريقة علمية. فالعلم يقوم على استخدام تقنيات ووسائل منهجية منظمة للبحوث التجريبية، ويعتمد على تحليل البيانات، وعلى التفكير النظري، والتقييم المنطقي للبراهين والبيانات من أجل الوصول إلى معرفة متماسكة حول مسألة ما، معرفة يمكن للآخرين الوصول إليها. ووفق هذا التعريف، فإن علم الاجتماع هو جهد علمي في جوهره، لأنه يستخدم هذه الأساليب والمنهجيات التي يمتاز بها العلم. غير أن دراسة المجتمعات الإنسانية تختلف عن دراسة الوقائع والظواهر في عالم الطبيعة.

استحالة وجود نظرية شاملة

يطرح إيان كريب استحالة وجود نظرية شاملة تفسر جميع مناحي الحياة الاجتماعية، وخصوصاً تفسير مكونين أساسيين من مكوناته وهما البنية والفعل. ويدعو إلى وجوب التعددية النظرية. (كريب، ١٩٩٩: ص ١٤)، ويتحدث عن ضعف النظرية الاجتماعية الناجم عن كثرة مدارسها وتنوعها والاعتماد على الوصف دون التفسير، فيقول: إن قدرًا كبيرًا من النظرية الحديثة تصف شيئًا ما، وعادة ما يكون هذا الشيء معروفًا جيدًا لدينا، تصفه بكلمات نظرية مجردة، ثم تزعم أن ذلك تفسير. وهذا ما يساهم في تشويه اسم النظرية. والنظرية الاجتماعية تبعث على الخوف لأمر آخر: وهو كثرة ما كتب فيها وكثرة مدارسها وتنوعها. (المرجع السابق: ص ٣٣)، ويعتبر أن طبيعة علم الاجتماع لا تمكنه من تطوير نظرية شاملة تلم شتات هذا المبحث المعرفي. (المرجع السابق: ص ٣٥)

ويعتبر كريب أن النظرية تنطوي دائمًا على نظرة معينة إلى الفعل السياسي، وعلى أشكال الفعل الممكنة والمستحبة. وهذا يعني أن النظرية لا تتكلم فقط عن العمليات والصراعات والمشكلات الاجتماعية، بل هي كذلك جزء من تلك العمليات والصراعات والمشكلات. هذا ليس بالأمر السيء، ولكن يجب أن يعلن عن مثل تلك الافتراضات بصراحة قدر الامكان. لأنها ان لم تناقش بعقلانية في اطار اكايمي، فإنها قد لا تناقش أبدًا في أي مكان آخر. (المرجع السابق: ص ٣٧). وهو يرى أن فلسفة العلوم الاجتماعية تشغل بالها بمسألتين: الأولى، طبيعة العالم: ما هي أنواع الموجودات وما هي أشكال هذا الوجود. كهل يوجد، على سبيل المثال، البشر بالطريقة نفسها التي توجد بها الجمادات؟ وإذا كان الجواب برأيه بالنفي، فما هي إذا الفوارق بينهما؟ وهل يمكن أن نصنف مثل هذه الأسئلة على أنها أسئلة أنطولوجية (مبحث الوجود).

أما المسألة الثانية التي تناولها كريب فتتعلق بمبحث المعرفة (الإبستمولوجيا): معرفة طبيعة التفسير: ولهذا تساءل عن ما هي المناهج

الواجب اتباعها للوصول إلى التفسير؟ وعن ما هي البنية المنطقية التي يجب أن يكون عليها التفسير؟ وما هي البراهين المطلوبة؟

لقد بحثت كريب هذه القضايا بالنسبة للعلوم الاجتماعية وعلم الاجتماع على وجه الخصوص، في معرض الجدل حول ما إذا كانت العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية متشابهة. أي فيما إذا كان يجب على العلوم الاجتماعية أن تطبق نفس مناهج البحث المستخدمة من قبل العلوم الطبيعية. (المرجع السابق: ص ٣٨)؛ وهو يعتبر أن العلوم الاجتماعية هي شبيهة بالعلوم الطبيعية من بعض الأوجه ومختلفة من أوجه أخرى.

لقد أشاد كريب بأعمال روي باسکر التي تلقي الضوء على انقسام النظرية الاجتماعية، ويبين أن الأسئلة الأنطولوجية والأسئلة الإبيستيمولوجية على علاقة متبادلة، بمعنى أن الوسيلة التي نكتسب بها معرفة الواقع، وما نعتبره يشكل عندنا تفسيرًا كافيًا، يعتمدان على نوع الموجودات القائمة في ذلك الواقع.

ولقد أنتقد كريب في الوقت عينه النظريات الاجتماعية، فقال بأن إحدى الطرق التقليدية في تقسيم النظريات الاجتماعية هي في التفريق بين النظريات الكلية والنظريات الفردية، فالأولى تبدأ بالمجتمع ككل، معتبرة إياه شيئًا أكبر من مجموع المكونين له، وعلى هذا ينظر إلى أفعال الأفراد باعتبارها أفعالاً يحددها المجتمع الذي يشكلون جزءًا منه. أما الاتجاه الآخر فإنه يبدأ بالأفراد. يرى اصحاب هذا الاتجاه بأن المجتمع نتاجًا لأفعال الافراد. وكان هناك أيضًا اتجاه ثالث يرى أن كلتا العمليتين تجريان سوية: أي أن الأفراد يخلقون المجتمعات والمجتمعات تخلق الأفراد.

ويرتكز كريب في انتقاده على ما اعتبره باسکر بأن التقسيمات الثلاثة خاطئة لأنها تعتبر المجتمعات والأفراد (أو الفاعلين بحسب مصطلحه) كائنات من نفس النوع، وبالتالي فإن الواحد منها يستطيع أن يكون شرطًا للآخر أو أنه يمكن أن تكون هناك عملية تحديد متبادلة. لكن المجتمعات والفاعلين كائنات من نوع مختلف اختلافًا جذريًا. فخصائصهما مختلفة. والخطوة المطلوبة هي

تقصي هذه الخصائص المختلفة. المجتمع قائم بذاته وهو شيء أعظم من أفراده المكونين له. (المرجع السابق: ص ٣٩)

ثمة، وفق كريب، خصائص معينة للوجود الاجتماعي، يتعين على الفرد أن ينصهر فيها وهي تسبق ميلاده وسوف تستمر قائمة طويلاً بعد فئاته. اللغة مثلاً وجدت قبل مدة طويلة من ميلادي وستبقى مدة طويلة بعد وفاتي. وأنا لم أخلق اللغة ولم يخلقها أحد سواي. وهي بهذا المعنى لها وجود مستقل. والخصيصة الأولى من خصائص المجتمعات هي أنها علائقية. فهي تتكون من علاقات دائمة بين الفاعلين بعضهم ببعض. وبينهم وبين الأشياء المادية التي تدخل في تكوين بيئتهم الاجتماعية أيضاً. ومن الواجب التذكير بأن العلاقات الاجتماعية تدوم أكثر من أي من الفاعلين الذين يقيمونها. ولذا من الأجدى الحديث عن مراكز أكثر من الحديث عن علاقات بين فاعلين. وعليه، يمكن النظر إلى العائلة النووية على سبيل المثال، بوصفها تمثل علاقات دائمة بين ثلاثة مراكز: الأم والأب والأولاد. فهناك مستوى معين تستقر عليه هذه العلاقات بغض النظر عن الأشخاص المعينين الذين يحتلون تلك المراكز. والخصيصة الثانية من خصائص المجتمعات هي أن لها ما يدعوه باسکر عمقاً أنطولوجياً. ففيها مستويات من الوجود تحت ما يظهر على السطح. أبعد مما يبدو للعيان. وهذه المستويات التحتية ذات أهمية خاصة لأنها تستطيع أن تفسر ما هو باد لنا. (المرجع السابق: ص ٤٠).

ويعتبر كريب بأن النظرية مجرّأة بالضرورة، بمعنى أننا بحاجة إلى أشكال نظرية مختلفة لتفسير ظواهر متباينة. إن تفسير خصائص البنى الاجتماعية وتفسير خصائص الفعل الإنساني، شكلان مختلفان من أشكال التفسير. (المرجع السابق: ص ٤٢)؛ ويناقد هذا المفكر مسألة النظرية وصوابها، فهذا النقاش يعتبره كنفقش ابستمولوجي مهم. يعتبر كريب، في نقاشه لهذه المسألة، أنه يجب علينا أن نتذكر دائماً أننا نعيش في عالم لا يعطينا إجابات نهائية وقطعية. فمثلما يتغير هذا العالم ويصبح مكاناً مختلفاً عن ذي قبل، كذلك

تتغير النظرية التي هي وسيلتنا لفهم ذلك العالم. وهناك عدد من المعايير التي نستطيع على أساسها أن نحكم على تلك النظريات. فالنظرية الأفضل هي تلك التي باستطاعتها أن تحدد بصورة تفصيلية أكبر، العمليات السببية الفاعلة والمواقف التي تعمل فيها تلك الآليات السببية. والتماسك المنطقي مهم، فالنظرية التي تناقض نفسها ينظر إليها بعين الريبة. أما من ناحية التجربة فإن النظرية لا بد أن تقاس بناء على الأدلة التي تقدمها. وأعتقد أن إحدى سمات العلوم الاجتماعية أن ذلك القياس لا يمكن أن يطبق بطريقة صارمة ومنظمة. غير أننا نستطيع دائماً أن نكتشف خصائص للتجربة تنبئنا إن كانت النظرية بحاجة إلى مراجعة أو لأن تستبدل بها نظرية أخرى. (كريب، ١٩٩٩: ص ٤٥)

المجتمعات والفاعلون شكلان مختلفان من أشكال الوجود، يحتاجان إلى شكلين متباينين من أشكال التفسير أو الفهم. غير أننا لكي نفهم الواقع الاجتماعي فلا بد من فهم كليهما. (كريب، ١٩٩٩: ص ٤٧)

خلاصة عامة

السوسيولوجيا هي علم المجتمع، والواقع الإنساني هو واقع مجتمعات متباينة في بيئاتها، وفي تركيباتها، وفي خصائصها وفي ثقافتها وأنماط حياتها، ثمة ما هو مشترك بين كل هذه المجتمعات وثمة ما هو مشترك بين بعضها وثمة ما هو خاص في كل منها. لا شك أن التغيرات الحاصلة نتيجة العولمة والتطورات التقنية المتسارعة في الانتاج والاتصال، تركت وما زالت آثارها الكبرى على المجتمعات والدول، لكن المجتمعات تبقى قائمة ووجودها دائم فيما الأفراد يأتون ويذهبون، ويبقى المجتمع حقيقة قائمة بذاتها مستقلة عن وجود الأفراد ومختلفة بطبيعة وجودها عنهم.

لا يمكن فهم وتفسير الواقع الاجتماعي بدون دراسته بطريقة علمية وموضوعية، وهذا يتطلب تحديد مشكلة الدراسة التي يجب أن تكون قابلة للملاحظة والاختبار، من أكثر من جهة، وتخدم النظرية في هذا المجال

بتزويدها الباحث بالمفاهيم والفرضيات ولكن الاختبار في الميدان هو الذي يبيّن قيمة النظرية والفرضيات. فمسألة التنبؤ ترتبط بالواقعة الاجتماعية المدروسة من كل جوانبها بجميع متغيراتها المستقلة والتابعة والوسيطه والمتشابكة، التعميم يجب أن يكون حذرًا حتى في الحالات المشابهة. إضافة لكل ما سبق نقول أيضًا أنه من الضروري تطوير التقنيات وأدوات القياس ومنهجيات الدراسة وتحديد المفاهيم وتطويرها في مجال العلوم الاجتماعية.

باختصار، يمكن القول أن إعداد الباحث في مجال العلوم الاجتماعية يتطلب جهدًا كبيرًا على المستوى النظري وعلى المستوى التقني والخبرة العملية، لأن إجراء القطيعة المطلوبة بين الباحث وانتمائه واعتقاده وميوله ليست بالأمر السهل. لا بد من أن نعتزف بأن موازنات الأبحاث في مجال العلوم الاجتماعية، ما زالت متدنية جدًا مقارنة بالأبحاث في الميادين الأخرى والسياسات المتبعة تحاول حصرها في مجال الوصف الاحصائي والتسويق، وهذا ما يسهم، برأينا، في تراجعها.

المراجع

- COMTE Auguste. (2002). *Cours de philosophie positive*. Version numérique par Jean-Marie Tremblay - Université du Québec à Chicoutimi.
- DEMAIZIERE Françoise, NARCY-COMBES Jean Paul. (2007). *Du positionnement épistémologique aux données de terrain*. Les Cahiers de l'Acedle, numéro 4, 2007, Université Paris 7 et 3.
- Durkheim Emile. (1984). *Les règles de la méthode sociologique*. Edition électronique de 2001.
<http://bibliothèque.uqac.quebec.ca/index.htm>.
- FILLION Nicolas. (2005). *Épistémologie et sociologie de la connaissance*.
- GELLNER Ernest. (1985). *L'épistémologie des sciences sociales*. Revue internationale des sciences sociales 102.
- GRAWITS Madeleine. (2001). *Méthodes des sciences sociales*. Dalloz, Paris, 11^{ème} édition.
- HAMEL Jacques. (1997). *Précis d'épistémologie de la sociologie*. L'Harmattan, Montréal - Paris.
- JACQUEMAIN Marc. (2014). *Epistémologie des sciences sociales*. Notes de cours provisoires, Paris.
- LE PLAY Frédéric. (2003). *Textes choisis*. Dalloz, Paris.
- SGAUT Pierre. (2008-2009). *Introduction à la pensée scientifique moderne*. Université Paris 6 (Pierre et Marie Curie).

- ابراهيم عثمان. (٢٠٠٨). النظرية المعاصرة في علم الاجتماع. عمان: دار الشروق.
- أحمد بدر. (١٩٩٦ - الطبعة التاسعة). أصول البحث العلمي. القاهرة: المكتبة الأكاديمية.
- ألان تورين. (٢٠١١ ترجمة). براديغما جديدة لفهم عالم اليوم. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- ألان شالميرز. (١٩٩٧). ما هو العلم. دمشق: منشورات وزار الثقافة.
- ألفن غولدنر. (٢٠٠٤ - ترجمة). الأزمة القادمة لعلم الاجتماع. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- أنتوني غيدنز. (الطبعة الاولى ٢٠٠٥). علم الاجتماع. بيروت طبعة رابعة: مركز دراسات الوحدة العربية.
- أنتوني غيدنز. (الطبعة الثانية - ٢٠٠٦). مقدمة نقدية في علم الاجتماع. القاهرة: كلية الآداب جامعة القاهرة.
- إيان كريب. (١٩٩٩). النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس. الكويت: عالم المعرفة ٢٤٤.
- باتيك هيلي. (٢٠٠٨ - ترجمة). صور المعرفة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- باروخ برودي. (١٩٩٧ - ترجمة). قراءة في فلسفة العلوم. بيروت: دار النهضة العربية.
- برتراند رسل. (٢٠٠٨ - ترجمة). النظرة العلمية. دمشق: المدى.
- بيير بورديو. (٢٠٠٧ - ترجمة طبعة ثالثة). الرمز والسلطة. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.
- تشارلز وين - آرثر ويجنز. (٢٠١١ - ترجمة). الطفرات العلمية الزائفة. القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر.

- توماس كون. (١٩٩٢ ترجمة). بنية الثورات العلمية. الكويت: عالم المعرفة ١٦٨.
- جاك هارمان. (٢٠٠٩ ترجمة). خطابات علم الاجتماع. عمان: دار المسيرة.
- جان بياجيه. (٢٠٠٤ - ترجمة). الاستمولوجيا التكوينية. بيروت: دار التكوين.
- جوليانو باجيني. (٢٠١٠ ترجمة). الفلسفة موضوعات مفتاحية. دمشق: دار التكوين.
- جيوفاني بوسينو. (ترجمة ٢٠٠٨). نقد المعرفة في علم الاجتماع. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر طبعة ثانية.
- ديار عبد السلام. (بلا تاريخ). مفهوم الحقل عند بورديو. مكتبة الشعب الكريم محمد الحاج سالم.
- ريتشارد داوكنز. (٢٠١٢ ترجمة). فصول من الكتابة العلمية الحديثة. القاهرة: مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة.
- ريمون بودون. (١٩٩٩). موضع الفوضى. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- ريمون بودون. (٢٠١٠). أبحاث في النظرية العامة في العقلانية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- ستيف فولر. (٢٠١٢ - ترجمة). كون ضد بوبر. القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- ستيفان شوفالييه - كريستيان شوفيري. (٢٠١٣ ترجمة). معجم بورديو. دمشق: النايا.
- ستيفان شوفالييه - كريستيان شوفيري. (١٣٥٢٠ ترجمة). معجم بورديو. الجزائر: دار الجزائر.

- ستيفان هابر. (٢٠١٢). هابرماس والسوسيولوجيا. الرباط: منشورات الاختلاف.
- شحاتة صيام. (٢٠٠٩). النظرية الاجتماعية من المرحلة الكلاسيكية إلى ما بعد الحداثة. القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع.
- عبدالقادر بشته. (١٩٩٥). الاستمولوجيا فيزياء نيوتن. بيروت: دار الطليعة.
- غاستو باشلار. (١٩٨٢) طبعة ثانية - ترجمة). تكوين العقل العلمي. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- غاستو باشلار. (١٩٨٣) - طبعة ثانية - ترجمة). الفكر العلمي الجديد. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- غاستون باشلار. (١٩٨٤) - ترجمة). العقلانية التطبيقية. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- فؤاد زكريا. (١٩٩١). نظرية المعرفة. القاهرة: مكتبة مصر.
- فيليب كابان. (٢٠١٠) - ترجمة). علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية. دمشق: دار الفرقد.
- كارل بوبر. (١٩٩٢) ترجمة). بؤس الايديولوجيا. بيروت: دار الساقى.
- كارل بوبر. (١٩٩٨) ترجمة). الحياة حلول لمشاكل. الاسكندرية: جامعة الاسكندرية.
- كارل بوبر. (٢٠٠١) ترجمة). منطق الكشف العلمي. بيروت: دار النهضة العربية.
- كارل بوبر. (٢٠٠٣). أسطورة الإطار. الكويت: عالم المعرفة العدد ٢٩٢.
- كمال بو منير. (٢٠١٠). النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت. الرباط: منشورات الاختلاف.

- ماكس هوركهايمر. (١٩٩٠). النظرية التقليدية والنظرية النقدية. الدار البيضاء: عيون المقالات.
- ماهر عبد القادر محمد. (١٩٩٨). الاستقراء العلمي. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- محمد عابد الجابري. (٢٠٠٢ - الطبعة الخامسة). مدخل إلى فلسفة العلوم. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- محمد عبد الكريم الحوراني. (٢٠٠٨). النظرية المعاصرة في علم الاجتماع. عمان: دار مجدلاوي.
- محمد قاسم. (١٩٨٦). كارل بوبر. نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- يان سبورك. (٢٠٠٩). أي مستقبل لعلم الاجتماع. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- يمنى الخولي. (٢٠٠٠). فلسفة لعلم في القرن العشرين. الكويت: عالم المعرفة ٢٦٤.
- يورغان هابرماس. (٢٠٠١). المعرفة والمصلحة. كولونيا - ألمانيا: منشورات الجمل.

الملاحظة في البحث الاجتماعي من المرحلة التحضيرية إلى مرحلة معالجة النتائج

مها كيال^(١)



صوره رقم 1: خداع بصري

إن ما يميز الملاحظة العلمية عن
الملاحظة الانطباعية هو طريقة التجميع
الممنهج.

مادلين غرافيتز

Madeleine GRAWITZ: 1966: 705

تبقى الملاحظة الأداة والتقنية التي
تمكن من فهم ميكانيكية التفاعل
الاجتماعي، كما تمكن، في الوقت
عينه، من فهم الحياة في المجتمع

فردريك دياز

Frédéric Diaz 2005

(١) رئيسة مركز الابحاث في معهد العلوم الاجتماعية؛ maha.kayal@gmail.com

ملخص

تتناول هذه الورقة البحثية موضوع الملاحظة في البحث الاجتماعي، وتتطرق إلى معنيها، تاريخيتها، أدوارها: بدءًا من دورها المعرفي وصولًا إلى دورها التقني، ومن ثم التحليلي، فالملاحظة المنهجية l'observation «méthodique» تحضر، تنفذ وتحلل.

إن تشعب موضوع الملاحظة في البحث الاجتماعي بتنوعاته وميادينه المختلفة سيدفعنا إلى تقسيم هذه المقاربه وفق التسلسل الآتي، سنتحدث عن:

- أولاً: معنى الملاحظة وأدورها في البحث الاجتماعي بتنوعاته
- ثانيًا: الملاحظة: أداة معرفيه
- ثالثًا: الملاحظة: أداة تقنيه
- رابعًا: الملاحظة بين باحث يدرس مجتمعه وآخر يدرس مجتمعًا مغايرًا لمجتمعه

مقدمة

إن موضوع الملاحظة في العلوم الاجتماعيه، في كاهه أبعاده وكاهه مفاصله المعرفيه والتقنيه، قد تناوله وما زال الكثير من الباحثين. بالرغم من هذا الأمر، فإن البحث في هذه المسأله أو غيرها من المسائل المنهجيه تظل من المواضيع التي تجذب كل باحث وكل مقبل على السير في هذا الدرب. فمعرفة المنهجيه ومحاولات تطبيقها هي علم قائم بذاته، لا يغطيه التعلم الأكاديمي وحده. فللتجارب الواقعيه أيضًا أثرها في فهم وفي تطوير التعاطي الذاتي في هذا المضمار، هذا عدا أن لكل حقل معرفي خصوصيته وتجربته في المقاربه، وهو الأمر الذي يفسر أسباب ديناميه هذا المجال علميًا وتقنيًا، ويبرر، في الوقت عينه، أعداد الباحثين الكثر الذين يرغبون في وضع بصماتهم الذاتية عليه.

بناءً على ما تقدم، سوف يتطرق هذا البحث إلى الملاحظة بهدف متابعه ما أمكن من المقاربات العلميه والتقنيه حولها، مع الوعي إلى أن واقع تأثير التجربه الذاتيه في التعاطي مع هذه الأداة المعرفيه والتقنيه لا بد أنه سليعب دوراً في رصد المعطيات التي نراها هامه لطرحتها ضمن هذه المقاربه البحثيه. وسنبداً أولاً بتعريفنا للملاحظه.

أولاً: معنى الملاحظه وأدوارها في البحوث الاجتماعيه

الملاحظه وفق قاموس المعاني في اللغه العربيه تعني نظرٌ ومشاهدهٌ. وتعني أيضاً مراقبه الشيء. وروح الملاحظه هي النظر إلى الشيء بدقه وانتباه. وهي تعني أيضاً مشاهده الباحث للظواهر.

لن نطيل في تفسير معنى الملاحظه، فنحن ركزنا عليه للتفريق بينه وبين كلمه مراقبه. فالملاحظه قد تكون عامه، وقد تكون محدده، بمعنى المراقبه، ولهذا فهي أعم وتتناسب بشكل أكبر مع تنوع أنواع وتقنيات استخدامها في العلوم الاجتماعيه.

إن كل هذه المقدمه اللغويه أردناها لنعرض من خلالها أسباب تفضيل مصطلح ملاحظه عن مراقبه الذي يشيع استخدامه في بعض الكتب المنهجية العربيه كمرادف لمصطلح الملاحظه.

١. الملاحظه في المعنى هي الرؤيه العلميه للواقع

في تكمله لتفسير مضمون المعنى اللغوي لمصطلح ملاحظه، يرى فرانسوا لابلانتين (Francois Laplantine) (١٩٩٦ : ١٣) أنه لا بد، عند استخدام هذا الأخير، من التمييز بين الرؤيه أو النظر VOIR وبين المشاهده regarder. فالرؤيه والنظر يعينان التأمل والتفكير الدقيق، المختلفان كثيراً عن المشاهده بمعنى الادارك بإحدى الحواس.

ويعتبر لابلانتين أيضاً أن التطور الابستمولوجي الذي ينطوي على تحول

جذري وتفكك لفكرة مركزية العالم وما تبعه من اتساع للمعرفة وتغير في الذات نفسها، لم يكن ممكناً إلا من خلال التطور الثوري للرؤية بمعناها المعرفي . هذه الفكرة دعم أهميتها شوبنهاور Schopenhauer حين اعتبر أن المهمة (مهمة الباحث) ليست في تأمل ما لم يتأمله أحد من قبل، ولكن في تأمل ما لم يتأمله إنسان مما يراه الجميع أمام أعينهم (غرافيتز 1996 : 317).

أما بنف Peneff فيعتبر أن الملاحظه في العلوم الاجتماعيه هي بمثابة الأرشيف بالنسبه للمؤرخ. فهي مغامر، درايه عمليه، وهي، في الوقت عينه، تطبيق مهني يتّم، بشكل أو بآخر، تعلمه، وهي أيضاً تجربه ذاتيه، قد تأخذنا أحياناً لنتائج قد تتناقض مع قناعاتنا وقيمتنا، فتضعنا أمام حقيقه وامتحان لا يمكن تلافيه أو التهرب منه كما نفعل عادة أمام هكذا واقع في حياتنا الشخصية. (PENEFF: 2005).

هناك فرق كبير إذًا بين الملاحظه المباشره المحضه والملاحظه العلميه. ففي الملاحظه العلميه، من الضروري اعمال العقل فيما نلاحظ، ومن الضروري مقارنة الأفعال والحكم عليها من خلال أفعال أخرى تكون بمثابة وسيله ضبط. فكل العلوم تبدأ من خلال معارف الملاحظه المحضه . observation pure .

إن هذه الطروحات التي نتبناها، تبين أن الملاحظه في الأبحاث العلميه عمومًا والعلميه الاجتماعيه ضمناً هي أكبر من تأطيرها في حدود التقنيه الحقلية، هي أداة معرفيه لم تستخدم في تطوير العلوم والعلوم الاجتماعيه والإنسانيه فقط، بل لقد استخدمها الإنسان منذ الأزل في مراقبه الطبيعه وأقرانه في المجتمع (Martineau: 2005).

٢. الملاحظه هي أكبر من تأطيرها في حدود التقنيه

إن الملاحظه التي وصفناها كأداة معرفيه، هي في الوقت عينه أداة تقنيه في البحوث الاجتماعيه، وأداة تعليميه تستخدم كثيرًا في مجال التربيه، وهي

أداة تدخل في العديد من العلوم التي تعتمد القياس، للفهم والتحليل (علم النفس، علم الجريمة، الطب،) وهي وهي، أدوار كثيرة سنحاول مقاربه بعضها خلال هذا البحث، لا سيما منها تلك المرتبطة بالأبحاث الاجتماعية، موضوع هذه الورقة.

إن الهدف من إبراز هذه الأدوار المعرفيه المتعدده للملاحظة، هو ليس بهدف تفخيمها عن غيرها من التقنيات البحثية المعتمدة في الأبحاث الاجتماعية، بل لإظهار أن الملاحظه في مجال العلوم الاجتماعيه، هي أداة ترافق الباحث منذ مرحلة اختياره لبحثه وحتى استخلاص نتائج التحليلية. إذ لا يمكن أن نوسع ونعمق حقل رؤيتنا إلا من خلال تعميقنا المعرفي للنموذج التحليلي (المشكل من الفرضيات والمفاهيم) الذي ندرسه، وإلا أثناء اختبار هذا النموذج مجالياً من خلال معطيات جديره بالملاحظة (دفور Defoor 1999: 67) وإلا أثناء استخدامنا للتقنيات الحقلية الأخرى واعمال الملاحظة في قياس دور كل تقنية مستخدمة وحدود استخدامها كما ومؤشرات نتائجها، وحتى عند تحليلنا للمعطيات الحقلية للتعميم والاستنتاج نحن بحاجة لملاحظة فكرية عميقة.

٣. الملاحظة: تحديد دورها في الأبحاث الاجتماعية

إن منظور الباحثين في العلوم الاجتماعية متنوع تنوع مشاربهم العلمية والثقافية وتنوع ميادين إهتماماتهم البحثية. وإن المجال المنهجي في العلوم الاجتماعيه قد بات يتغير بشكل سريع، وسريع جداً بسبب تغير الميادين المدروسه، وبسبب التطور التقني الكبير، وبسبب تنوع الباحثين وتغير مقارباتهم للعمل الحقلية. ويعتبر بنف Pennef أن هذا التغيير الذي نعيشه اليوم قد يطال بالنسيان الكثير من التراكم المعرفي الذي اكتسبناه من معارفنا الاكاديميه والحقلية السابقه (Sabi-Olivier Benouaddah-Muller 2009). إن هذا الواقع هو الذي يدفع بنا لمتابعه كل جديد في المنهجيه.

في العوده للملاحظه في الأبحاث الاجتماعيه، من المعروف أن وراء كل ملاحظه علميه هناك دائماً مرجعيه فكرية، بعضها تشكله شخصيه الباحث، أما البعض الآخر فتشكله المعارف المشتركه بين غالبية الباحثين، والتي تكونت في معظمها من التعلم المعرفي للباحث، ومن خبراته البحثيه التجريبيه، فالملاحظه العلميه هي، ولإعادة التأكيد، ليست بالملاحظه الطبيعيه ولا العفويه.

بغني المجال البحثي، ويبيّن في الوقت عينه مدى اختلاف أنواع الأبحاث بذاتها، كما مدى تنوع مستويات الملاحظه المعتمده فيها، سواء في شكل تحسس الباحثين للظواهر أو للمواضيع الاجتماعيه التي يدرسونها، أو سواء أيضاً في مدى التشكل الفكري والمفاهيمي عن الصور التي يتحسسها هؤلاء في حقل الدراسة. فالإنسان لا يستطيع أن يعيش، كما يقول دركهايم، في وسط الأشياء دون صنع صور عنها وأفكار حولها (Durkheim: 1894:24). إن هذه الصور والأفكار هي التي تتسبب في تنظيم السلوك الاجتماعي للفرد، ونضيف، أنها هي التي تتسبب في تشكل جزء كبير من بنائه المعرفي.

إن ما نريد إظهاره في هذا الاطار هو أنه مهما اختلفت إهتمامات الباحثين الاجتماعيين ومهما تنوعت ميادينهم البحثيه، تظل الملاحظه رديفه لبناء معارفهم الاجتماعيه والفكرية في آن. فهي التي تساعد في الاختيار الدقيق للمواقع التي من الضروري تأطيرها لاختضاعها لتقنيه الملاحظه الحقلية.

هذا من جهه الملاحظه ودورها في بناء النموذج الذي سيتم اخضاعه للملاحظه الحقلية. فالملاحظه تتحول لأداة تقنيه عندما يصبح دورها مرتبطاً باكتساب معارف حقلية، بمراقبه تجارب، بمعالجه الجانب الاجرائي للمفاهيم، بمراقبه تترافق مع استخدام التقنيات الحقلية المتنوعه الأخرى التي لكل منها طرائقه وأساليب مقارباته واستقرائه للحقل البحثي المدروس: كالمقابله، الاستمارة، العينه، التصوير، التسجيل. والملاحظه يمكن أن تعتمد كوسيله للقياس والتكميم (من خلال تقنيه شبكة الملاحظه)، هذا ناهيك طبعاً عن دورها المميز في انتقاء المتغيرات التي سيتم التركيز على ملاحظتها ورصد

ارتباطاتها، وكل هذه الأدوار لا تلغ حكمًا دورها كأداة معرفيه في البحث، فهي تعود لمستوى الرؤيه المعرفيه المجرده من جديد عند قراءة وتحليل المعطيات الحقلية الهادفه لاستخلاص النتائج النظرية.



ثانيًا: الملاحظه: أداة معرفيه

هناك أنواع عديدة من الأبحاث العلمية الاجتماعية. سنحاول فيما يلي إبراز بعضها مع التركيز على دور الملاحظة ضمنها. لكن وقبل هذا التركيز لا بد من أن نشير في هذا السياق تحديدًا توجه بعض الباحثين، أمثال بول فايرابند Paul Feyerabend، لرفض قيود المنهجية. فهذا الأخير يعتبر بأن «كل المنهجيات لها حدودها، وأن القاعده الوحيده التي تبقى، هي «أن كل شيء مباح».

بول فايرابند هو إذا من أتباع فوضويه المنهج. ففي كتابه: ضد المنهج: «العلم في مجتمع حر». دافع فايرابند عن فكره أنه لا يوجد قواعد منهجية ثابتة. فلقد انتقد المنهجية الثابته التي تحد من نشاط العلماء، وتحد بالتالي، ووفق رأيه، من التقدم العلمي. فهو يعتبر أن الفوضويه المنهجية يمكنها أن تكون مفيدة للعلم (Yasmine El Bouchikhi).

لن ندخل في هذا النقاش، بالرغم من أهميته، فحدود بحثنا سيرتبط بشكل أساسي بكلاسيكيات مناهج البحث العلمي السائد بشكل عام في مجال العلوم الاجتماعية. وهذا الأمر ليس تهربًا من فكره التطوير ولا من فكره كسر قيود التقنيه لإفساح المجال لإعمال الفكر المعرفي بشكل خلاق بعيدًا عن القيود، ولكن لوعينا أن هذا الفكر لا يمكن أن يبدع إلا من خلال معرفته



صورة رقم 2 - غلاف كتاب ضد المنهج

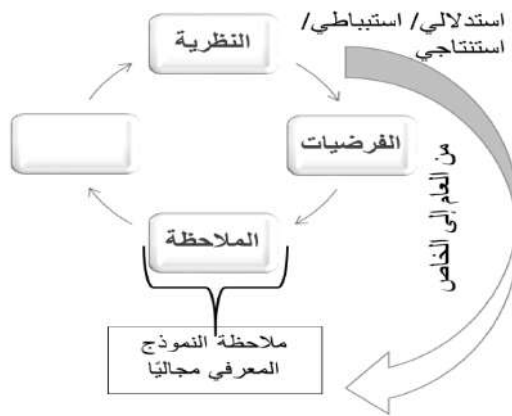
العميقة لكلاسيكيات التفكير والبحث، هذه المعرفة هي التي تمكنه من تفكيك رموزها بوعي علمي ومنهجية فكريه فيها نظره العارف بالقواعد والقادر على الحججه والبرهان في كسرهما لبناء توجه فكري خلاق .

١. من أنواع الأساليب في البحث العلمي الاجتماعي وموقع الملاحظة ضمنها

من أنواع الاساليب في البحث العلمي الاجتماعي نذكر:

١.١ النهج أو الاسلوب الاستدلالي *la démarche déductive* ويقال عنه أيضاً الافتراضي - الاستدلالي *d'hypothético-déductive*

يعتمد هذا النوع من الأساليب في العمل البحثي على التحليل المنطقي للقوانين العامة من خلال الارتكاز على النظرية للاستدلال والاستنتاج والتفسير المنطقي للمعلومات .



رسم بياني رقم ١: الملاحظة في البحث استدلالي

يعتقد الكثير من الباحثين في مجال العلوم التطبيقية (كالعلوم الاجتماعية)، أن هذا التوجه الفكري في البحث هو توجه طوباوي، فهذا الأسلوب يعتمد بشكل أساسي على الأطار النظري وعلى الافتراضات الفكرية، وعلى الملاحظه للاستنتاج قبل التأكد من أنها متسقة مع معطيات الحقل المدروس.

٢.١ النهج أو الأسلوب الاستقرائي la démarche inductive

هو الأسلوب الذي لا ينطوي مسبقاً على أي واجب نظري وذلك من أجل عدم الارتباط المبكر في النقاشات النظرية. (Marc-Henry Soulet: 2011)، هدفه الانتقال من الجزئي الميداني الواقعي إلى استخلاص القوانين النظرية العامة التي تحكمها. وهو أسلوب فكري يعتبر أن الواقع هو المصدر الأساسي للمعرفة لا مخيلة الباحثين. يحاول هذا النهج الامبيرقي أن يركز على محاولة تطبيق القوانين العامة من خلال تجارب معينة، دقيقة.

إن هذا النوع من الأساليب البحثية قد ينطلق أحياناً من مشكلة أو من سؤال إشكالي ومن افتراض بسيط، وأحياناً من لا افتراض *hypothèse nulle* (أي من فرضيه صفر *hypothèse zéro*)^(١). أما الملاحظه ضمنه فهي جوهرية، يتم بواسطتها الوصف ويتم من خلالها رصد المؤشرات والمتغيرات التي يركز عليها في التحليل لاستخلاص النتائج وتعميمها نظرياً. لو حاولنا أن نسلسل منهجية العمل في مثل هذا النوع من الأبحاث: يمكننا وضعها وفق الترتيب الآتية:

(١) من المهم أن نعرف أن استخدام هذا المنطق في البحث، أي الانطلاق من فرضيه صفر من خلال وضع متغيرين غير مرتبطين للتحقق من عدم الارتباط في الحقل، هو أسلوب له أهداف متعددة من أهمها توسيع مروحة الافتراضات التي غالباً ما نطرحها بشكل إيجابي مخالف لما قد يكون في الواقع، فهناك الكثير من المواضيع التي نحتاجنا الارتباطات غير المتوقعه فيها. وهذا الأسلوب يمكنه أن يوسع من رؤية الباحث في الحقل (للتوسع في هذا الموضوع أنظر Howard Becher: 2002, p. 51 - 62). إن هذا التوجه في البحث هو أسلوب يتطلب معارف نظرية واسعة وقدرات بحثية لا يملكها الباحث المبتدئ.

رسم بياني رقم ٢: تراتبية العمل الامبيريقى ودور الملاحظة في هذا النوع من الابحاث

إن هذا النوع من الأبحاث، من الخطوره العلميه بمكان، أن نمارسه دون تراكم معرفي وتقني سابق. فالملاحظة التي يعتمدها الباحث لبناء فرضياته العملية، تتركز، بشكل جوهري، على اسقاطاته الفكرية في تفسير المشاهدات الحقلية، وكذلك الأمر بالنسبة للمفاهيم التي يعتمد عليها في تفسيره للواقع الحقلية الذي يقوم في دراسته. صحيح أنه اسلوب علمي أمبيريقى الطابع يراد منه أن يعمد الباحث إلى تحرير رؤيته وسماعه للواقع واحساسه به دون أفكار مسبقة ليتم استنتاج المفاهيم، الفرضيات، النظريات والقوانين، لكن من منا يستطيع أن يكون دون أفكار مسبقة. فالاستقراء الذي يتم عن طريق الملاحظة فقط لا يمكن أن يوصلنا لمعارف أو حقائق عالمية الطابع بل لآراء فيها الكثير من الذاتية والنسبية في قراءه الواقع.

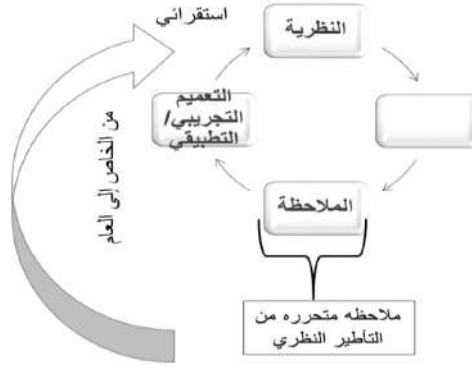
لا أحد ينكر أن الضوابط التقنية والمنهجية قد تخنق أحياناً حرية الملاحظة الحرة وتأطرها في مجالات معينة قد تغطي عن الرؤية الأوسع للحقل المدروس، لكن، وفي حقيقة الأمر من يستطيع رؤية الميدان بشموليته؟

لقد دفع هذا الواقع روبرت كروسويل Robert Cresswell إلى طرح التساؤل الآتي:

هل يجب على الباحث بدء عمله الحقلية بطروحات معدة مسبقاً أم عليه بدء عمله دون تكوين رؤية نظرية محده؟ هذا السؤال الذي أجاب عليه هو نفسه بالتساؤل الآتي: «هل يوجد باحث مجرد فعلياً من كل الطروحات والتأثيرات الفكرية عند القيام بأي بحث سواء كان هذا البحث داخل مجتمعه أو خارجه؟ (١٩٧٦)

إن هذه الطروحات والتأثيرات الفكرية هي التي تأطر رؤيه الباحث في توصيف الحقل وتأطر بالتالي موضوعه المدروس. المفيد في هذا المجال أن

يعي الباحث منذ البدء هذه الحقيقة مع تحضره واستعداده لتعديل طروحاته ومفاهيمه وطرق بحثه إذا وجد في الحقل ما يثبت عكس هذه المفاهيم والطروحات.



رسم بياني رقم ٣ : الملاحظة في البحث الامبيريقى

٣.١ النهج أو الاسلوب الاستدلالي / الاستقرائي inductive la démarche déductive/

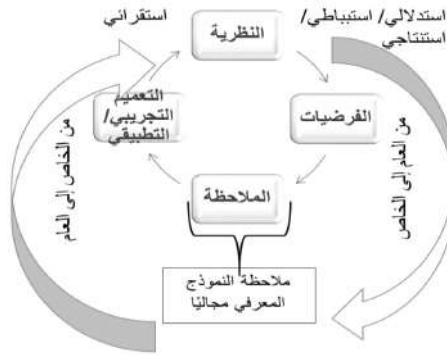
الأسلوب الاستدلالي: قلنا للتذكير هو الأسلوب الذي يتوافق والسيروره المعاكسه للاسلوب الاستقرائي، أي يرتكز على استدلال منطقي من الفرضيات المبنيه وفق اطار نظري. فالنتائج غالبًا ما تكون قائمه على أساس المقدمه المنطقيه أو على النظرية التي أطرت الطرح الفكري للبحث.

الاسلوب الاستقرائي induction: وقلنا للتذكير أيضًا أنه يجسد سيرورة الانتقال من الخاص أي من (المعطيات التي تمت ملاحظتها، من دراسه الحالات الخاصه، من دراسه المعطيات التجريبيه، من دراسه بعض المواقف) إلى العام (إلى قانون، نظريه، معارف عامه).

إن النهج الاستدلالي / الاستقرائي يعتمد على منطقين أو نهجين مختلفين في التفكير. النهج العقلاني rationalistes والنهج الامبيريقى l'empirisme.

يختلف النهج العقلاني عن الامبيريقى بأن الأول يعتمد على الاستدلال

والاستنتاج، فالحقيقية قائمة فيه على ثوابت منطقية ومخططات مفاهيمية، أي على العقل لا على الحواس والتجربة. هو إذاً نهج يجسد طريقة التفكير التي تنطلق من العام إلى الخاص. أما النهج الامبيرقي فهو أيضاً نهج علمي، قائم على استقراء الواقع معتمداً في ذلك، وكأصل للمعرفة ولبناء الفرضيات البحثية على الملاحظة والتجربة.



رسم بياني رقم ٤ : الملاحظة في المنهج الاستدلالي / الاستقرائي

للملاحظة، في هذا النوع من الأبحاث دوراً كبيراً في تحويل الطرح الاشكالي والارتباط العلائقي المراد دراسته، وتأطيرة في أنموذج قابل للقياس، هذا الأنموذج هو الذي يبرز قواعد الملاحظة المناسبة وفق المبادئ التحليلية التي يعتمدها الباحث. إن هذا الاختيار هو الذي يؤثر في تعديل أو تطوير أو نقد أو تثبيت الطرح الاشكالي الأولي من خلال الارتكاز على التعميم التجريبي أو التطبيقي.

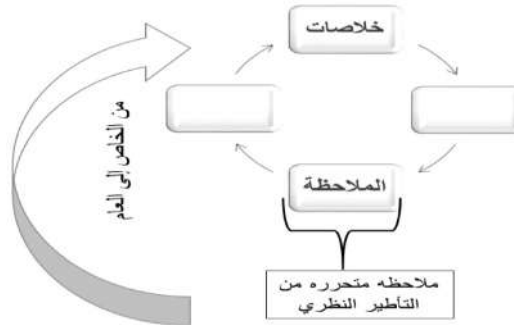
تلعب الملاحظة في هذا النوع من الأبحاث إذاً دوراً جوهرياً في تفعيل التبادل التفاعلي بين المنهجين استقرائي والاستنتاجي، هذا التبادل الذي يشكل المرتكز الأساسي للبحث العلمي.

٤.١ الأسلوب الوصفي

إن البحث القائم على الوصف فقط هو بحث لا قيمة علمية له إلا في

التحضير لأبحاث أخرى. كحال الدراسات التي تهدف إلى تصوير الواقع Scanning تحضيرًا لدراسات أخرى. وهو النوع من الأبحاث التي تستخدم بكثرة لا سيما في الدراسات الأولية (أو ما يعرف بالمرحلة ١) لاستراتيجيات التنمية. هذه المرحلة التي تهدف إلى وصف الواقع لوضع الرؤيا النظرية والمنهجية في معالجته لوضع المشاريع الاستراتيجية المناسبة له.

تستخدم الأبحاث الوصفية أيضًا في تجميع مواد المكنز لا سيما في جمع أدوات ومادة الفلكلور. والمكنز الفلكلوري هو قائمة تحوي بشكل توصيفي كافة مواصفات وعناصر الفلكلور الشعبي، يستفاد منه لاسترجاع عناصر الظواهر الفلكلورية بوسائطها المتعددة.



رسم بياني رقم ٥: الملاحظة في البحث الوصفي

٢. الملاحظة: دورها في مرحلة انتقال الباحث من البحث «المحتمل» إلى البحث «الحقيقي» (مرحلة اختيار الموضوع) وبعدها من الأسلوب الامبيريقى إلى المنهج السوسولوجي

معروف أن أساليب اختيار الموضوع البحثي متنوعه. ففكرة الموضوع قد تؤخذ من خلال مطالعات علمية، أو من خلال الحقل مباشرة، كما من الممكن أن يتم انتقاؤها من خلال ما قد تطرحه المختبرات العلمية، المؤسسات البحثية، أو...، أو... لكن مهما اختلفت الأساليب لا بد للباحث، عند تحديد بحثه، من أن يقوم بالعمليات الآتية:

- تطبيق الملاحظة وفق منظور شمولي لكافة الأبعاد التي تشكل الحدود «المفترضه» للبحث المراد دراسته .

- القيام بدراسة استطلاعية pré enquête، تستخدم خلالها الملاحظة حقلياً . إن هذه الملاحظة لا تخضع للتحليل بل للقياس السريع .

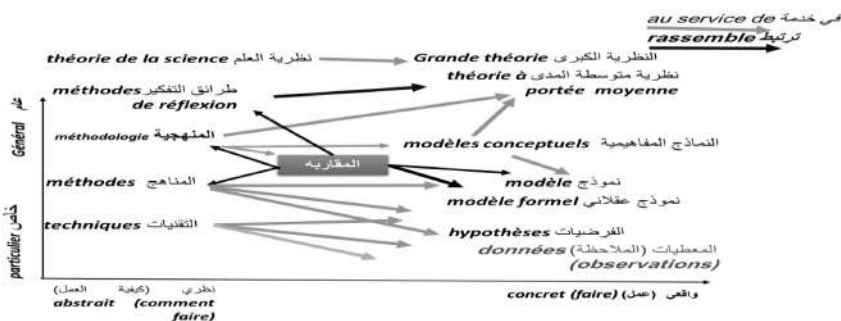
إن عملية الملاحظة السريعة هذه قد تسبق أيضاً مرحلة تحضير تقنيات حقلية عدة في البحث، مثل تقنية المقابلة، تقنية الاستمارة، . . . كما أنها تواكب تطبيق هذه التقنيات . وهنا لا بد من أن نعي أن عملية القياس السريع هذه للميدان، سواء لتثبيت فكرة الموضوع المختار للدراسة أو لبناء التقنيات، لا بد من اجرائها بعد تعميق المعارف الفكرية وتحضير العين لقراءة تجمع ما بين المنطق العلمي والعملائي في آن، وهذا الأمر لا يتم إلا من خلال مطالعة الكتب العلمية المرتبطة بموضوع الدراسة، ومن خلال تحويل البحث من الرؤية الأمبريقية إلى الرؤية السوسولوجية للحقل المدروس .

٣. تحضير النموذج التحليلي للاختبار من خلال الملاحظة في البحث العلمي (الاستدلالي/ الاستقرائي)

إن تحضير النموذج modèle والنموذج التحليلي أو النموذج الشكل المعتمد في الدراسة modèle formel هو أساسي من أجل اختباره مجالياً من خلال تحويله لمعطيات قابلة للقياس والملاحظة .

إن الذي يساعد في اختيار معطيات الملاحظة أو ما يسميها البعض أيضاً «خطة الملاحظة» plan d'observation، أي وبمعنى آخر من سيتم اخضاعه وما سيتم اخضاعه ميدانياً للملاحظة هو هدف البحث . فالهدف هو الذي يحدد إن كان سيتم توصيف سكان معينين أو مقارنة جماعات اجتماعية معينة في فترة زمانية ومكانية معينة، أو ملاحظة تقنيات معينة، أو . . . أو . . . وهو الذي يعين أيضاً بأي طريقة ستتم المقاربة (استماره، مقابلة، ملاحظة، فيلم اتنوغرافي . . .) . (نيكول برتية Nicole BERTHIER ١٩٩٨ : ٢٥) .

فالملاحظة، وبمعنى آخر، لا بد وأن تصطبغ بالرؤية الابستمولوجية للباحث، هذه الرؤية هي المسؤولة عن تأطير مشاهداته الحقلية.



رسم بياني رقم ٦: المصدر دانييل ك. شنايدر Daniel K. Schneider خطوط المنهجية للبحث في العلوم الاجتماعية
(٢٠٠٦) Balises de méthodologie pour la recherche en sciences sociales

٤. الملاحظة كأداة معرفية واستمراريه استخداماتها في البحث

إن اعتماد الرؤية في البحث الاجتماعي لا تتوقف، فإعمال العقل فيما نلاحظ وفي الأساليب التي نختارها لتطبيق الملاحظة الحقلية المباشرة، يظل مستمرًا حتى استخلاص النتائج.

إن هذا التحديد لدور الملاحظة في البحث لا يظهر أن لهذه الأخيره دور هام أيضًا في تشكيل الباحث نفسه، مسأله سنتوسع بها لاحقًا. إن ما يهمننا التأكيد عليه هنا هو أن الملاحظة لا تكون فاعله معرفيًا إلا من خلال المعرفه المعمقه للنظريات العامه في الميدان المعرفي الذي اختاره الباحث لجمع المعطيات حوله، خصوصًا عند اعتماده لوسيله معرفيه ملتبسه نعني بها الملاحظة، فأن الحدود الفاصله فيها بين الذاتي والموضوعي لا يبلور معالمها إلا العلم.

إن هذا الأمر يقودنا حكمًا إلى إعادة التأكيد على الخلفيه الابستمولوجيه للباحث في الحقل. فكما قال السوسيولوجي الأميركي هوارد بيكر Howard Becker، «النظريه هي «شر لا بد منه». فالباحث هو دومًا خاضع لربط النظري

بالمعطيات الحقلية، فهو من جهه يجمع المعطيات، يوضيها وفق منهج معين، يرتب الملاحظات، يقوم بالمقارنات، وهو في الوقت عينه مضطر للتعميم، للاستنتاج، لدمج الحقائق في واحدة أو أكثر من النظم التفسيرية (بنف ١٩٩٥).

ثالثاً: ملاحظة الموقف أو الملاحظة المباشرة *l'observation directe* ou *observation in situ*

هي ما نعرفه عادة في الأبحاث الاجتماعية بتقنيه الملاحظة التي سنفصل فيها مبتدئين في تعريفها، وفي عرض تاريخيه إستخدامها، أنواعها، طرق تطبيقها، حدودها في البحث.

١. تعريف الملاحظة المباشرة

إن عدد تعاريف ملاحظة الموقف *l'observation en situation* أو الملاحظة المباشرة *l'observation en directe* هي أكثر من أن تحصى، مثلها مثل عدد الكتاب الذين تناولوا في البحث خاصية ودور هذه الأداة التقنية (Martineau 2005: 6). نذكر من بينها:

الملاحظة المباشرة هي من التقنيات التي تساعد في جمع المعطيات عن السلوك غير المحكي لمجتمع الدراسة (أفراداً كانوا أو جماعات). هي إذاً سيرورة ارادية ومنظمة تتضمن الإنتباه الارادي والفكر الموجه وفق هدف محدد أو وفق انتظام معين في جمع المعلومات يتوافق وخاصية ومادة الدراسة. قال فيها السوسولوجي الأميركي جون لوفلاند John Lofland «نكون هناك لغايات تحليليه»، وقال فيها هنري برتز Hanri Peretz: «ترتكز الملاحظة المباشرة على أن نشهد التصرفات الاجتماعية للفرد وللجماعه في المكان نفسه للنشاطاتهم أو لسكنهم، دون أي تغيير للمسار المعتاد.» (LAPERRIERE Anne 2009: 316) لن نعدد تعاريف أكثر، ما يهمنا إبرازه نصوغه بالتساؤل الآتي: كيف استطاعت

تقنيه ذاته من أن تتحول لوسيلة جمع معطيات واقعيه في الأبحاث الاجتماعيه؟ وكيف تمكنت، بالرغم من الالتباسات حول استخداماتها، من أن تثبت ذاتها؟ أما الاجابه عن هذين التساؤلين فإنها ستأتي تباعاً في مقاربتنا لتاريخيه الملاحظه وفي سياق عرضنا لتطورات أنواعها واستخداماتها الحاليه .

٢. الملاحظه: بعض من التاريخ

لقد تنبه الأنثروبولوجيون الأوائل إلى أهميه استخدام الملاحظه كتقنيه في الحقل لا سيما في دراساتهم للمجتمعات الشفاهيه التي وصفت بالبدايه . فالملاحظه كانت الوسيله الأساس في مقاربه وفهم هذه المجتمعات التي تورث قوانينها المجتمعيه عن طريق الممارسه والحياه المعاشه . فالانثروبولوجيون كانوا لا يملكون عن تلك المجتمعات الكثير من المعارف المنهجيه ولهذا كانوا بحاجة للملاحظه من أجل تفكيك ثقافاتهما وفهم روتينيه حياتها الاجتماعيه . إن هذا الاستخدام هو الذي رسخ في هذا العلم ما عرف بتقنيه الملاحظه المباشره وبين أهميتها بالنسبه للباحث في الحقل .

يعد مالينوفسكي من أكثر الاتنوغرافيين الذين أرسوا قاعدة الملاحظه بالمشاركه . ففي كتابه (هراقله الباسيفيكي الغربي ١٩٢٢ les Argonautes du pacifique occidental) شرح كيفيه وأهميه هذه التقنيه .

فلقد قدم هذا الباحث من عالم الفيزياء، وبين مدى أهميه شرح الباحث لتجربته الحقلية، فقال: «لا أحد يتخيل تقديم مساهمه علميه في مجال الفيزياء أو الكيمياء دون إبراز تقرير مفصل عن مجموعه التدابير التي اتخذت خلال تجاربه . أما في العلوم الأقل دقه، مثل البيولوجيا والجيولوجيا، حيث لا يمكن العمل في مثل هذا الإحكام، لكنه يتوجب على كل عالم تعريف قرائه بالطرق التي اتبعها في أبحاثه وتجاربه . في الاتنوغرافيا، حيث أن شرحاً أميناً لهذه المعطيات ربما هو أكثر ضروره، يستنتج وللأسف، أن هناك بخلاً في الايضاحات وأن الكثير من الباحثين بدلاً من التمسك بإخبارنا بصراحه عن

كيفية وصولهم لتنائجهم، فضلوا أن يقدموا هذه النتائج دون أن يكشفوا عن
مكونات عملهم» (Jean Louis Christinat: 1980)
وقال أيضًا:

«بمجرد استقرارني في اوماراكانا Omarakana في «جزر كيريوينا»، بدأت
في مشاركة حياة القرية على طريقتي الخاصة، وفي انتظار الاجتماعات
والاحتفالات الهامة بسرور، وفي الاهتمام الشخصي بالمجاملات وبالحوادث
اليومية الصغيره. عندما كنت استيقظ كل صباح، اليوم يتراءى لي، على غرار
ما يتراءى، بشكل أو بآخر، للسكان المحليين،... خلال تجوالي الصباحي
في ارجاء القرية، كان بامكاني ملاحظه التفاصيل الحميمه من حياة العائله،
حمامهم، طبخهم، أكلهم، كما وكان بامكاني رؤيه تحضيراتهم للعمل اليومي،
البعض يذهب للتسوق، أو جماعات من الرجال والنساء منهمكين في بعض
الصناعات. المشاجرات، النكت، مشاهد من الحياة الأسريه، الحوادث التي
غالبًا ما تكون بسيطه، وحيانًا مأساويه، لكنها، في كل الأحوال، لها دلالاتها
التي تشكل جو حياتي اليومي، كما تشكل جو حياتهم» (RIVILARD)
(Anne 48)



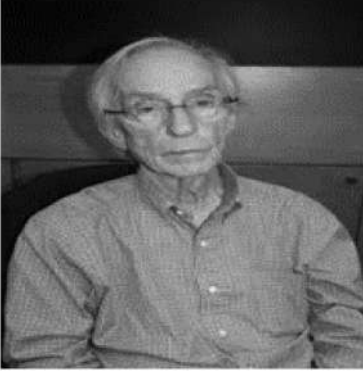
صوره رقم 3: طفل من جزر كيريوينا

تم تطوير استخدام الملاحظة، كأداة عقلية، في العلوم الاجتماعية، فيما بعد، في دراسة المجتمعات الريفية والمدن الصناعية، كما أنها اعتمدت بشكل جوهري في دراسات مدرسه شيكاغو وفي الكثير من الدراسات المونوغرافية الأميركيه، وفي دراسه المجتمعات الفقيرة. وكثر استخدامها بشكل كبير بعد الحرب العالميه الثانيه في فرنسا في دراسه سوسيولوجيا العمل، لا سيما في الستينيات والسبعينيات من خلال دراسه العاملين في المصانع بشكل دقيق ومباشر، فلقد تطورت تقنيات الملاحظة في هذه الدراسات بسبب الظروف السياسيه والاجتماعيه وتأثيراتها في التسبب بالخلط الاجتماعي الطبقي الذي عاشته فرنسا، هذا الخلط الذي قلل المسافه بين المفكرين وعمال المصانع (جان بناف: ١٩٩٥). لا ننسى تأثير الفكر الشيوعي في تلك المرحله لا سيما بعد ثورة ٦٨ في فرنسا، على الحراك الثقافي.

لقد تنامي استخدام الملاحظة المباشره في ميادين شتى من العلوم الإنسانيه والاجتماعيه، لقد وصف بنف كيف أن المجال التعليمي قد اعتبر الملاحظه بالمشاركه، منذ العام ١٩٩٠، بأنها اداة تعليميه للأطفال بعد التنبه إلى دورها الكبير في مساعدتهم على الانخراط في مجال حسي معين، وبعد فهم عمق دورها في بناء الأنا الاجتماعيه (- Sabi-Olivier Benouaddah Muller: Ibid). إن كل هذا التنامي في استخدام الملاحظه لم يبلغ النظرة الملتبسه حولها وحول المادة المجمعه بواسطتها لا سيما من جهة موضوعيتها.

ويعتبر السوسيولوجي الاميركي هوارد بيكر Howard BECKER من أهم من كتب عن الملاحظه المباشره بالمشاركه. لقد درس في مدرسه شيكاغو المعروفه بارسائها لأهمية العمل الميداني المدني.

لقد تناول بيكر الحديث عن الملاحظه في أبحاث شتى. ففي دراسه قدمها بالاشتراك مع عدد كبير من الباحثين، عن كليه الطب العام ١٩٦١ بعنوان «الاستدلال والبرهان من خلال الملاحظه بالمشاركه: موثوقيه البيانات وصحة الافتراضات» قال:



صوره رقم 4: هوارد بيكر

«يجمع الملاحظ بالمشاركة المعطيات والبيانات من خلال مشاركته في الحياة اليومية للجماعه أو المؤسسه التي يدرسها. فهو ينظر للأحداث التي يواجهها من يعايشهم، ليعرف كيف يفهمها هؤلاء، ويحاور بعضًا منهم ليفهم منطق تفسيرهم للأحداث التي راقبها. وكمثال خاص عن تقنيه الملاحظه، اسمحو لي أن اصف ما قمت به أنا وزملاء لي خلال دراسه كلية

الطب. لقد تابعنا محاضرات العاميين الأولين وبقينا مع الطلاب في المجتبرات حيث يمضون معظم وقتهم.

لقد راقبنا ماذا يفعلون وتداولنا واياهم أطراف الحديث في شتى المواضيع دون ترتيب منظم وكانوا يشرحون الجثث أو يعاينون أنواعًا مختلفه من الأمراض. لحقنا بهم إلى بيوتهم (بيوت الطلبة) حيث جلسنا للاستماع لسيرهم ولتجاربهم في الصف. لقد رافقنا الطلاب أيضًا في التدريب. لقد حضرنا نقاشاتهم الجماعيه وحواراتهم. أكلنا معهم وقمنا معهم بالمناوبه الليليه. . . .»

(Anne Revillard: 50)

لقد كتب بيكر في بحث آخر له بعنوان «العمل الاجتماعي Sociological Work» عن الملاحظه فقال: «في النهايه، إن تعدديه الملاحظه، وكم المعطيات المتنوعه التي يجمعها الملاحظ، كما وامكانيه مقارنتها لاحقًا باجراءات متنوعه، يعني أن النتائج التي تم التوصل إليها قد اختبرت بشكل أفضل وبشكل منتظم (من خلال الملاحظه) أكثر مما تتيحه التقنيات السوسيوولوجية الأخرى». (بنف: مرجع سابق ١٢٣)

٣. الملاحظه المباشره وتطورات استخداماتها: بين الانتروبولوجيا

والعلوم الاجتماعيه الأخرى

لا شك أن الملاحظه المباشره التي ابتكرها الانتروبولوجيون لأغراض خاصه بدراساتهم للمجتمعات البدائيه، قد تطورت بشكل كبير لاحقاً مع استخداماتها في العلوم الاجتماعيه الأخرى. فلقد تحولت الملاحظه المباشره إلى وسيله للتكميم، للقياس، للمقارنه، خصوصاً في دراسات سوسولوجيا العمل، التربيه، كما وفي الدراره الاجتماعيه للمؤسسات الصحيه، الخدمائيه... إن هذا التحول قد طور أيضاً الأدوات المستخدمه في تدوين وتسجيل الملاحظات، فلم تعد المفكره والبطاقات الخاصه وحدها هي المعتمده في التدوين والتسجيل، بل تم استخدام أدوات أخرى منها شبكات الملاحظه grilles d'observation، ومنها أيضاً الكرونوميترج^(١) chronométrage (ظابط الوقت)، قياس الارتباطات الاجتماعيه sociométrie^(٢)... وصولاً للقياس من خلال المراصد المتنوعه^(٣)

(١) تم استخدامها في سوسولوجيا العمل لضبط وقت العمل والنشاط الذي يقوم به العامل. وفي دراره قامت بها كاتلين دلماس (١٩٩٤) Khatline Delmas عملت على احتساب وقت chronométrage الطبيب في المستشفى، فوجدت من خلال الملاحظه، أن الطبيب يأخذ حوالي الـ ١٥ دقيقه للتحدث مع المريض، ١٠ دقائق لقراءة نتائج الفحوصات أو تقارير الأطباء الآخرين، و ٢٠ دقيقه لكتابه تقريره في سجل المريض وحوالي أكثر من ساعه على التلفون لمناقشه خروج المريض مع بقية الأقسام في المستشفى. (بنف ١٩٩٥) طبعاً هذا الضبط في احتساب الوقت من خلال الملاحظه تم استعماله في دراسات متنوعه وفق ظروف الدراره وغاياتها.

(٢) قياس الارتباطات الاجتماعيه sociométrie يستخدم كثيراً في علم النفس وفي علم اجتماع التربيه لفهم ارتباط الفرد بالمحيط الاجتماعي حوله.

(٣) إن مصطلح الملاحظه قد يستخدم أيضاً بمعناه الشمولي لمراقبة التغيرات الاجتماعيه من خلال رصد كل أنواع المعطيات الاحصائيه والدراسات، والوثائق والدراسات التي تساعد على قراءة هذا التحول. إن هذا النوع من الملاحظه يتم غالباً فيما نسميه بالمراصد (Observatoires Peretz) (٢٠٠٦). والمراصد اليوم متنوعه ومتخصصه، محليه وعالمية، وتطال كافة الميادين الديموغرافيه، السياسيه، الاجتماعيه، الثقافيه، الحقوقيه... إن ما تقوم به هذه المراصد هو جمع المعطيات لقراءتها وتحليلها لأغراض عده قد تتوقف عند حالة رصد الحالة، وقد يستفاد منها لرسم السياسات العامه والتنمويه على وجه الخصوص.

observatoires، والاتنوغرام^(١) Ethnogramme وكلها أدوات متنوعه أساسها الملاحظة .

ولا ننسى أن نتحدث عن الملاحظة المصورة من خلال الصور الفوتوغرافية ومن خلال الأفلام الاتنوغرافية والفيديو، فهذه الملاحظة استطاعت أن تتخطى حدود المكتوب في توصيف الواقع من قبل الباحث، فهي تلامس العديد من الحواس. وفي إطار هذا النوع من العمل الاتنوغرافي المصور يعتبر وجود الكاميرا هو أمر أساسي للقيام بالملاحظة، لا وسيلة من وسائل الملاحظة. (Thierry Rogel).

٤. أنواع الملاحظة المباشرة

إن ما يدفع لإستخدام هذه الأداة التقنيه، ونعني الملاحظة المباشرة إذًا، أمور عدة من بينها عدم قدرة الباحث رؤية العديد من المواضيع الحقلية المدروسة إن اعتمد المقابله أو الاستماره فقط، فهناك العديد من المسائل المعاشه التي لا تكتشف إلا من خلال الملاحظة المباشرة لاسيما إن كان الباحث يتناول بالدراسة مجتمعًا مغايرًا لمجتمعه أو فئة اجتماعية مختلفه عن الفئة التي ينتمي اليها.

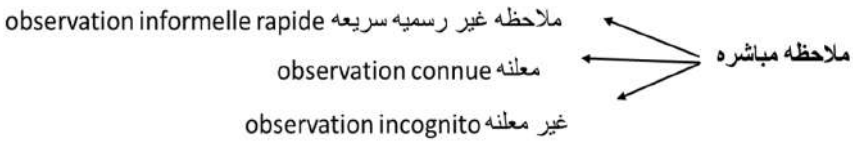
قلنا في السابق، إن أهم مرحلة من مراحل تفعيل ملاحظه الموقوف هي مرحلة تطيرها وفق «النموذج البحثي البراديجم» الذي يختاره الباحث معرفيًا للقياس والبحث الحقلية. من الضروري أن نعي أنه لا يوجد في العلوم الاجتماعية أي اجماع نظري وعملي موحد بين الباحثين، كل ما هو متوفر يمكن اعتباره بمثابة تيارات ومدارس فكرية انتجت براديجمات عدة لكل منها أسلوبه في عملية الملاحظة والرصد.

(١) الاتنوغرام Ethnogramme هو كتالوج يسجل ضمنه الملاحظات حول خصوصيات تصرفات نوع معين (نبات، حيوان، إنسان) في سياق معين. ويمكن أن يبنى هذا الكتالوج لتحديد سلوك اجتماعي، مجالي، إنتاجي، عائلي، تواصلية، غذائي، نقل... .

فالملاحظة المباشرة أنواع، لكل نوع منها أهدافه وغاياته وحدوده المرتبطة بأهداف البحث، بالمجال المدروس، كما وبطبيعة الباحث. إذ لا شك أن لكل مجال علمي متميزاته عن غيره في استخدام هذه الأداة التقنية، ولكل باحث غاياته وامكانياته في التعاطي معها.

قبل أن ندخل في توصيف أنواع الملاحظة في ميادين العلوم الاجتماعية، لا بد من أن نؤكد على ما قاله دركهايم في أهمية تحويل الفعل الاجتماعي «لشي» حتى تتمكن من ملاحظته. ولا بد من أن نعي أن من نلاحظه هو إنسان يتكلم، يكتب ويلاحظ هو أيضًا (غرافيتز ١٩٩٦ : ٣٢٦ - ٣٥٧) وهذا الأمر يحتاج للكثير من الوعي في تصرف الباحث في الحقل في استخدام هذه التقنية بالذات، التي يعتبرها بيكر من أكثر التقنيات غموضًا لتضارب الشعور نحوها بين الريبة من فعاليتها والانجذاب لاستخدامها (Stéphane Martineau: 2005). لكن وبالرغم من هذه الريبة في استخدام الملاحظة، لا أحد يستطيع أن ينكر أن هذه الأداة التقنية الحقلية تمكن من مشاهدة الواقع والأحداث لحظة وقوعها في الحقل، هذه الأحداث التي غالبًا ما تكون غير متكررة، فهي مرتبطة بزمان ومكان معين هو زمان ومكان الدراسة الحقلية.

غالبًا ما نتحدث عن ثلاثة أنواع من الملاحظة الحقلية المباشرة:



أ. الملاحظة غير الرسمية السريعة: تستخدم، كما ذكرنا، عند الدراسة الاستطلاعية pré enquête لتحديد البحث، كما قبل تحضير التقنيات الحقلية (الاستماره، المقابله...).

ب. الملاحظة المباشرة المعلنه: l'observation directe connue:

هي الملاحظة القائمة على المعايشة المشاركه للباحث «observation»

l'observation directe non participante أو غير المشاركة interne» بعد اعلانه عن دوره كباحث.

هذه الأداة تؤدي لخوض الباحث تجربته اجتماعيه. بمعنى آخر، هي تتسبب في أن نعيش «مع» و«مثل» جماعات أخرى. ويعتبرها جان بنف أنها أكثر من تقنيه إجتماعية، هي «أسلوب حياة». (Sabi-Olivier). في هذا النوع من الملاحظه هناك المستويات الآتية:

الأول: يكون فيه الباحث نفسه شاهداً (le chercheur est témoin) على الحدث الذي يصفه. وتعرف أيضاً بالملاحظه المتورطه impliqué engagée ou (يصبح الباحث جزءاً من الحقل المدروس - نموذج برونو لاتور ٢٠٠٢ Bruno Latour^(١))

الثاني: يكون فيه الباحث مشاركاً (le chercheur est coacteur) في الحدث الذي يصفه. (دو سردين ١٩٩٥ de Sardan)

الثالث: الملاحظه المباشره غير المشاركة l'observation directe non participante. إن الملاحظ الخارجي غير معني بالفعل الذي يدرسه، لا يتحمل كما الباحث الذي يطبق الملاحظه المباشره

(١) برونو لاتور Bruno Latour: سوسولوجي واثروبولوجي وفيلسوف فرنسي، من مؤلفاته: «البناء الاجتماعي للحقائق العلميه» The Social Construction of Scientific Facts (١٩٨٥) هذا المؤلف كان بالاشتراك مع ولغار Woolgar. لقد درس ضمنه البناء الاجتماعي للحقائق العلميه في مختبر الكيمياء الحيويه، ومن مؤلفاته أيضاً فبركه القانون، اتنوغرافيا مجلس شورى الدوله «La fabrique du droit, une ethnographie du Conseil» d'Etat (٢٠٠٢)، ما يهمننا أن نشير إليه هو أن لاتور اعتمد المنهج الاتنوغرافي حتى في دراسته للمؤسسات العلميه ومؤسسات الدوله، وهو لم يركز في دراساته فقط على العلاقه بين الاتنولوجي ومحاوريه بل اهتم أيضاً بالمؤسسات التي يدرسها وبأماكنها، من اجل انتاج الحقائق العلميه. لهذا الأمر أعتبرت الملاحظه في أبحاثه أساسيه لأنها رافقت انخراطه الكامل ابستمولوجياً وتقنياً وتحليلياً للمجال المدروس.

بالمعايشه، ضبط الوقت، ولا المده في الدراسه، ولا العد والقياس. هذا النوع من الملاحظه يعرف بالملاحظه القاطعه retransché (يظل الباحث في عيون من يدرسهم خارجاً عن الحقل المدروس - نموذج جيرار التاب^(١) Gérard Althabe (١٩٩٠)).

ت. الملاحظه المباشره غير المعلنه أو المستتره observation participante clandestine ou incognito

لا شك أن هناك العديد من الأبحاث التي قد يتعذر فيها تطبيق الملاحظه المباشره. وهناك أمثله عده حولها، كدراسه المجتمعات المنحرفه، دراسه بعض الممارسات الاجتماعيه الخاصه، كدراسه السحر مثلاً، (نموذج جان ف؟رت سعدى Jeanne Favret Saada^(٢))، وهناك بعض الميادين في الدراسات الاجتماعيه التي تتطلب استخدام هذا النوع من الملاحظه (سوسيولوجيا التربيه، علم النفس الاجتماعى...).

(١) جيرار ألتاب Gérard Althabe: انثروبولوجي فرنسي، كتب في بحث له بعنوان: «الانثولوجيا المعاصره والبحث الحقلي Ethnologie du contemporain et enquête de terrain»، (١٩٩٠)، الآتي: يبقى الانثوغرافي في عيون محاوريه في موضع المراقب الخارجى، لأنه ينتمي لخارج الفضاء الاجتماعى المدروس. أما التدخل (البحث الحقلي) «فيمكن اعتباره الحركه التي تساعد الباحث في تخطي هذا الموقع الخارجى، فهو الرحله التي توصل الباحث لهذا العالم الذي سوف ينتج معرفته من الداخل.

(٢) جان ففرت سعدى Jeanne Favret Saada انثروبولوجيه فرنسيه من أصول يهوديه تونسيه قامت بدراسه عن السحر في كتاب لها بعنوان: الكلمات، الموت والأقدار: السحر في بستان Les Mots, la mort, les sorts. La sorcellerie dans le Bocage، وقدمت ضمنه ملاحظه تعد بمثابه مغامره شخصيه، فهي لم تكتف بالملاحظه المباشره فقط بل لقد انخرطت في عيش الجماعه المدروسه وكأنها منهم. لقد قالت في مقابله لها عن تطبيقها لتقنيه الملاحظه المعاشه الآتي: المبدأ الأساس بالنسبه لي كان مبنياً على أساس أنه «بما أننا لا نعرف ما هي الأسئلة الصحيحه (التي يجب طرحها في مضممار السحر)، دعونا نسكت ونفهم ما الذي يتحدثون عنه فيما بينهم، ما هي الأسئلة ذات المعنى بالنسبه لهم. كان يدور في خلدي كل ما قرأته من الانثولوجيا الاستعماريه، ولكنني ظللت صامته حتى شعرت كيف بامكاني أن انزلق دون عنف في اللعبه العاديه لاهتماماتهم. كانت الفكره أنه، بالرغم من معرفتي الموسوعيه، كنت اجهل من حيث المبدأ الشئى المهم الذي علي معرفته. (FAVRET-SAADA Jeanne et ISNART Cyril) (٢٠١٥)

باختصار، إن أي نوع من الملاحظة يتم اختياره لا بد وأن يصطبغ بسلوكيات وقياسات أخلاقية سنتوسع بها لاحقاً عند الحديث عن أخلاقيات الباحث الملاحظ في الحقل.

5. أساليب الملاحظة المباشرة

إن الطرائق التي يعتمد عليها الباحث عند تطبيقه لتقنية الملاحظة هي فقط في فكره. وتفضي هذه الملاحظة إلى:

- اختيار ما يلاحظه الباحث (وفق النموذج الذي حدده لبحثه)
 - الاختيار (الواعي وغير الواعي) لطريقة مقارنة كل ظاهره تمت ملاحظتها.
 - في الملاحظة المباشرة يتوجب إذًا تحديد المتغيرات التي سيتم الاشتغال عليها (ملاحظه مواضعه، ملاحظه موجهه، ملاحظه مؤطره)، وهذه الخيارات في تحديد نوع الملاحظة يرتبط بمرحلتين:
 - **مرحلة سابقة:** مرحلة الملاحظة الطبيعية (observation nature) وفق التسميه التي اعطاها انسلم ستروس Anselm Strauss. قد تحمل الملاحظة الطبيعية العديد من القياسات، لهذا الأمر يضطر الباحث تخصيص وقت لكل قياس للتحقق منه.
 - **مرحلة لاحقه:** مرحلة تقييم هذه المعطيات من خلال تجارب. إن هذه المرحلة قد اعتبرها بيكر بمثابة دلائل لفهم المتغيرات، ولوعي واقع تفاعلها مع بعضها، ومع العوامل الخارجيه.
- إن هذا التحقق هو الذي يؤدي لبناء نموذج (modèle)، مثبت من خلال الأدله التي تم جمعها وانتقاءها من الحقل. هذا النموذج الانتقائي للملاحظة يتم أيضًا من خلال منهج دراسة الحاله لبناء نموذج يمكن تعميمه.

من أساليب الملاحظة المباشرة نذكر:

أ. الملاحظة المباشرة البسيطة simple observation (من خلال الورقه والقلم

observation papier-crayon ، بالاضافة إلى التسجيل والتصوير غالبًا ما تستتبع من خلال استخدام تقنيات عقلية أخرى مثل المقابلة الحرة والمقننه والاستماره .

ب . **الملاحظه المتكرره:** هي الملاحظه التي يعمد الباحث من خلالها فهم الحقل بشكل معمق لا سيما إن كانت مدة اقامة الباحث قصيره . فلا يكتفى بالملاحظه البسيطة لا سيما في المسائل والأحداث المتكرره في حياة الجماعة المدروسه .

ت . **الملاحظه المواضيعية أو المجزأة / ciblée/ segmentée :**

عند تطبيق هذا النوع من الملاحظه تؤخذ بعين الاعتبار قائمة المتغيرات المدروسه في البحث .

ث . **الملاحظه المؤطره أو المقيدده ou encadrée L'observation directe** : méthodique

تعتمد، كما الملاحظه السابقه، على قائمة المتغيرات التي يدرسها الباحث، لكن هذه الملاحظات تدون وفق معايير معده مسبقًا في ما يسمى ببطاقة الملاحظه أو بشبكه الملاحظه .

ويعتبر سوليه باستيان Soulé Bastien (٢٠٠٧) أن لكل حقل خصوصيته إذ يمكن للباحث أن يشارك في الأعمال العقلية إن استطاع، وقد يكون في الحقل ويراقب دون أن يشارك بنفسه في الأعمال الخاصة في مجال دراسته . المهم في كلا الحالتين أن يستطيع ملاحظه أدق الأمور في عملية الرصد التي يقوم بها من خلال تشخيل كافه حواسه .

٦ . جدول له لأساليب الملاحظه المتبعه والأدوات المناسبه لكل نوع

هذه المتابعة يمكن أن تتم وفق أساليب متعدده مرتبطة بأهداف وغايات الدراسة ونوعها وميادينها الاجتماعي، كما أنها مرتبطة بنوع الملاحظه المباشره نفسها إن كانت ملاحظه حرة شاملة observation globale ، مستهدفة لشيء ما/ مجزأة ciblée/ segmentée أو مؤطرة encadrée .

٧. اختيار التقنية المعتمده في تسجيل وتدوين هذه الملاحظات

هناك أساليب متعددة تستخدم للتسجيل في الحقل منها: دفتر الملاحظة carnet de notes، بطاقة الملاحظة fiche d'observation، التسجيل الصوتي، التصوير، تسجيل الفيديو.

١.٧ دفتر الملاحظة أو مفكرة الحقل

يعد دفتر الملاحظه من الأشياء الشخصية الهامة المرافقة للباحث خلال عمله في الحقل لا سيما عندما يسعى هذا الأخير لتطبيق ملاحظه الموقف. غالبًا ما يحتوي هذا الدفتر على الملاحظات السريعة التي يلتقطها الباحث في الحقل، كما على المذكرات التي تتضمن كل ما لاحظه الباحث وقام بعمله خلال اليوم، يمكن أن يرسم ضمنه خرائط ورسومات تجريبية بسيطة، مشاهد من الحياة اليومية، عناوين لأشخاص في الحقل،... كما يمكن أن يعلق، يضع شروحات شخصية....

ويعتبر هذا الدفتر بمثابة مسح شخصي لكافة المهام التي يقوم بها الباحث في الحقل يومًا بيوم، وهو يعد لذلك من الأشياء الخاصة والمختلفة في آن عن وظيفة المفكرة الخاصة التي تتضمن الأشياء الحميمة والانطباعية للباحث.

حاولت كوليت باريدو Colette Baribeau (٢٠٠٥) أن تعرف هذا الدفتر بالآتي:

يحتوي دفتر الملاحظه على آثار مكتوبه، تركها باحث، أما محتواها فهو سرد لأحداث (في المعنى العام، هذه الأحداث قد تتعلق بآراء، بعواطف، بأفكار بأفعال، باقتباسات، أو بمقتطفات مطالعة، بوصف أشياء تمت رؤيتها أو بكلام تمّ سماعه) سياقات (الوقت، الاشخاص، الأماكن، الجدالات).

يطرح استخدام الدفتر الحقلية بعض الإشكالات التقنية التي يمكن أن نعبر عنها في التساؤل الآتي: هل يجب ان نسجل المعلومات التي لاحظناها مباشرة أم نحفظها ذهنيًا لندونها لاحقًا؟ من الصعب القطع في هذا السؤال، فلكل

حقل خصوصيته، لكن ما ينصح به عادة هو أن استعمال هذا الدفتر في الحقل يتم وفق ثلاث مراتب:



مرتبة الملاحظة ومن ثم التسجيل الذهني Les notes mentales ليتم التدوين بعدها عندما يصبح الباحث منفردًا قادرًا على استرجاع ذهني لما مر معه خلال يومه. إن هذه الطريقة مهمة كي لا يضيع الباحث الوقت في التدوين ويتلهى عن الملاحظة وعن من أمامه.

وهناك أنواع أخرى من التدوين نذكر منها التدوين بشكل خربشات notes en vrac وهي ملاحظات كثيره تكتب بشكل سريع ومباشر، مقاطع من جمل، كلمات، . . . رموز لها معاني عند الباحث. إن هذا النوع من التدوين مهم كما التسجيل الذهني Les notes mentales يعتمدها الباحث حتى يتمكن من التركيز على من يقابله أو يلاحظه) ويمكن أن يدعم الباحث ذاكرته من خلال تسجيل أو تصوير فوتوغرافي أو تصوير فيديو أو تصوير رقمي enregistreurs numériques.

قد يستخدم الباحث مفكرة الحقل ليدون كافة ملاحظاته بهدوء وليحلل أيضًا الكثير من المعطيات الحقلية (Colette Baribeau: Ibid)، لكن هذين النمطين من التدوين لا بد وأن يقوم بهما بعيدًا عن الحقل ليتثنى له القراءة والملاحظة العميقة للمعطيات الميدانية. من المهم أن نعترف أن لكل باحث طريقته وأسلوبه في التعاطي مع هذا الدفتر وفق ما يريحه، لكن بالرغم من ذلك يظل هذا الدفتر أساسيًا في العمل الحقلية.

إن الأنواع المتعدده للتدوين في مفكرة الحقل، تبيّن الأنواع المتعدده من أنماط التدوين: تدوين وصفي، تدوين منهجي، نظري، تحليلي.

إن أكثر ما يهمننا الوقوف عنده في حديثنا عن الملاحظة هو التدوين الوصفي الذي يهتم بتسجيل كل الملاحظات ووصف الوقائع والأحداث، هذا الوصف الذي يمكن أن يدعم بالصور، بالرسوم البيانية، كما بالأفكار، المشاعر، الانطباعات...

أ. تحويل دفتر الملاحظة لمذكرات حقلية في البحث الاتنوغرافي

لا شك أن لكل حقل تخصص في العلوم الاجتماعية أساليبه في التعاطي مع المادة المدونه. ففي البحث الاتنوغرافي تعد هذه المدونات أساسيه لكتابه الباحث لمذكراته الميدانيه، هذه الكتابه هدفها ليس فقط ذكر ما فعله الباحث في الحقل أثناء مشاركته الحياة اليوميه للآخرين بل تحويل المذكره إلى سجل تتراكم فيه هذه الملاحظات والخبرات. (للتوسع في الموضوع أنظر: ايمرسون؛ روبرت، فريتز؛ راشيل، شو؛ لندا (٢٠١٠) ص. ٥٣ - ١٠٢)

ب. في كتابه المذكرات الحقلية

إن أهميه سجل الملاحظات والخبرات في البحث الاتنوغرافي هو لتحويلها لكتابه التجربه الحقلية في البحث. فهذه المذكرات هي جزء أساسي من أجزاء تثقيل قيمه النتائج التي توصل اليها الباحث في دراسته. فالقارئ يرافقه، من خلال هذه المذكرات، طريقه الباحث في تعاطيه الحقلية، ويفهم التجارب التي مر بها، ويطلع على منطقته في التعاطي مع الآخر،... وكلها أمور جوهرية لتقييم البحث الاتنوغرافي علمياً. (للتوسع في الموضوع أنظر ايمرسون؛ روبرت، فريتز؛ راشيل، شو؛ لندا: مرجع سابق ص. ١٦١ - ٢٢٠)

٢.٧ بطاقة الملاحظة fiche d'observation

إن ما نسميه عادة بطاقة الملاحظة fiche d'observation يمكن تشبيهه بمرشد منهجي. Repères méthodologiques. هذه البطاقة مهمة جداً في

الأبحاث التي حدد فيها الباحث ماذا يلاحظ بشكل دقيق، ونظم طريقة ملاحظته وأطرها، كما حدد ماذا عليه أن يدون، ووضع لذلك الدلالات الرمزية التي سيستخدمها في عملية التدوين.

يعتبر سرج دبوي Serge Dupuy أن هذه البطاقة مهمة ليس فقط من أجل جمع المعطيات الحقلية للملاحظة وفق منطق ممنهج ولكن للاستفاده منها في عمليات التحليل. فأدوارها يمكن تحديدها على النحو الآتي:

أ. تأطير الظواهر التي ستخضع للملاحظة (ماذا يلاحظ الباحث؟ مكان، مجتمع، اشخاص، شخص، نشاط أو أنشطه، ...).

ب. توجيه الملاحظة لمسائل حقلية محده من قبل الباحث (ماذا يدون؟ ما هي المتغيرات التي يعمل عليها، هذه المتغيرات التي لا بد من وضعها في جدول ضمنه خانات يملئها وفق ملاحظاته الحقلية)

ت. التنبه لمادة الملاحظة، وكيفية تحديد الباحث لطريقة ملاحظته، إن كان يطبقها بشكل مباشر أو غير مباشر أم أنه يلاحظ بشكل عشوائي الحقل لاكتشافه (Observation à découvert ou incognito (A. Revillard)

ث. رؤية كيفية تدوين كامل ظروف الملاحظة (اسم الملاحظ وكامل هويته (نوعه، مستواه الاجتماعي، ثقافته، ...)، عدد الملاحظين، مكان الملاحظة، الزمان، مدة تطبيق الملاحظة، ...، نوعية المناسبة، نشاطات المناسبة، من يقوم بماذا...).

ج. تجريب بطاقة الملاحظة حقلياً قبل اعتمادها الكلي في البحث بعد تعديلها أو تثبيتها وفق التجربة الحقلية.

ح. تخزين المعلومات التي جمعت من الحقل

خ. توفير وسيلة لتسجيل البيانات (وأحياناً تسجيل بعض البيانات التي يمكن اعتمادها في تفسير ما تمّ جمعه من الملاحظة «عندما يصبح لدى الباحث ملامح واضحة عن المادة الخاضعة للملاحظة. لا ننسى أن الملاحظة هي

فعل تفكيكي وتحليلي للظاهرة التي تخضع لهذه الأداة التقنية (دبوي
٢٠٠٠: ١٣٣)

٣.٧ شبكة الملاحظة أو دليل الملاحظة

ماذا نعني بشبكه أو دليل الملاحظة: هي قائمه مرجعيه تتضمن العناصر التي سيتم ملاحظتها من قبل الباحث بشكل منتظم في الحقل. إن هدف هذه القائمه هو توجيهه وارشاد الباحث في ملاحظاته الحقلية (Anne RIVILLARD)، كما أنها تلعب دورًا جوهريًا في تخزين الملاحظات التي تمّ جمعها. (Serge Dupuy: 2000). إن هذا النوع من التقنيات يستخدم في الأبحاث التي تعتمد تقنيه الملاحظة الموجهه والمؤطره. (أنظر الرسم البياني رقم ٧)

من المهم أن نعرف أن هناك نوعين من شبكه الملاحظات: المفتوحه والمغلقة ويتضمن كل نوع منهما أشكالًا متعدده (أنظر Serge Dupuy ٢٠٠٠). هناك بعض الباحثين الذين ينصحون البدء بشبكة مفتوحه ومن ثم الانتقال لشبكة مؤطره (Anne RIVILLARD) التي يعتمد خلالها دليلًا محددًا مسبقًا من قبل الباحث، مهما اختلفت الآراء في هذا المضمار فإن المسأله الأساس تعود لنوع البحث وحاجات الباحث من استخدام هذه التقنيه في الملاحظة.

٨. استخدام أسلوب محدد من قبل الباحث، في تدوين ملاحظاته

هذا الأسلوب من المهم أن يرتكز على دلالات ورموز معينه من أجل تدوين الملاحظات حقلية، وكذلك الأمر من أجل تدوينها بعد الانتهاء من أعمال الحقل، ونورد فيما يلي جدولاً نموذجياً لطرق وضع رموز في الحقل وبعده لتسهيل عمل الباحث زمنياً ولضبط أسلوب ملاحظاته وتصنيفها من أجل تحليلها لاحقاً، هذه الرموز يمكن أن يغيرها ويعدلها الباحث وفق أسلوبه الخاص في الترميز.

“ ... ”	نقلت بالحرفية citations verbatim
‘ ... ’	إعادة صياغه paraphrases
(...)	البيانات السياقية (أو تفسيرات للباحث) (ou données contextuelles (conceptualisations du chercheur)
< ... >	تحليل (فئات) مستمدة من الإطار المفاهيمي للمواضيع
	Analyses (catégories) dérivées du cadre conceptuel des sujets
/ ...	تحليل (فئات) المستمدة من الإطار المفاهيمي للباحث (Analyses (conceptual) dérivées du cadre conceptuel du chercheur
—	زمن التقسيم أو التجزئة temps des partitions

أ. استخدام السكتشات للرسوم

قد يعتمد الباحث أيضًا اسكتشات ورسوم محده لابرز فكره، لتسجيل تقنيه حقلية، لاستعراض مراحل انتاجيه، إن كل هذه المسائل حتى لو تمّ تسجيلها أو تصويرها، تساعد الباحث لاحقًا على استرجاع الكثير من المعطيات الحقلية الدقيقة التي لاحظها والمهمه لبحته.

ب. فرز المفردات المستخدمه محليًا

إن تنظيم الباحث لجدوله الكلمات المحكيه في الحقل وتدوين معانيها مباشره هو أيضًا من الأساليب التي تسهل عمل الباحث المكتبي والتحليلي لاحقًا، وكلها أمور تنظيميه لا بد أن يضبط الباحث أسلوب تعاطيه التجميعي لها خلال ملاحظاته الحقلية.

٩. شروط استخدام ملاحظة الموقف أو الملاحظه المباشره كأداة

حقلية:

من أهم شروط استخدام الملاحظة كأداة حقلية، وفق مارتينو (ibid: p. 7)، هو حضور الباحث في الحقل، تكيفه ضمنه وتمتعه بمرونه فكرية.

من المهم أن نتوسع قليلاً في وصف دور شخصية الباحث في التعاطي مع الحقل، ومن الضروري أن نناقش أيضاً الفرق بين الملاحظة المباشرة الحرة التي تستخدم لاكتشاف الحقل، وبين الملاحظة المستترة clandestine ou incognito التي قد تصل أحياناً عند البعض لمرتبة التلصص voyeurisme أو التجسس espionage المرفوضين على المستويين العلمي والأخلاقي، وذلك لأسباب عدة من أهمها عدم تعريض المراقب لخطر ما، وحق هذا المراقب بالحياة الخاصة البعيدة عن المراقبه، ناهيك طبعاً عن حقه في أن ينقل عنه التوصيف بكل صدق وغير مجترأ.

لا بد من أن يحافظ الباحث أيضاً على إغفال اظهار هويته محاوريه لا سيما أن طلب هؤلاء ذلك كي لا يعرضهم لأي مخاطر، لا سيما عند مقاربتهم للمواضيع الحساسه.

إن كل هذه الأنواع من الحقوق متعلقة بأمر واحد وهو معرفة المراقب (الفرد أو الجماعة) بنشاط الباحث وبما يقوم به في الحقل، ومصداقية علاقته القائمة بينهما على الاحترام والشفافية، حتى لو كان نوع البحث الذي اختاره يتطلب تطبيق الملاحظه المستترة. فإن كانت الملاحظه مستترة لظروف علميه أو اجتماعيه، فإن البحث سينشر ويصبح علنياً، والباحث سيحاكم من القارئ ليس فقط على مستواه المعرفي بل والأخلاقي والإنساني أيضاً.

معروف أن الباحث، هو جسم اجتماعي يتكلم دونما تكلم وأن الملاحظة، كأداة ميدانية، هي وسيلة من وسائل متابعة ظاهرة اجتماعية معينة أو مشهداً اجتماعياً أو حالة فردية أو اجتماعية. دونما رغبة في تغييرها. لكن فعل النظر نفسه له عدة ارتباطات:

- أولها متعلق بشخصية الباحث نفسه وبمدى احساسه بحالة التطفل النظري على ما ومن يشاهده الذي قد يكون أحياناً غير موثم لما يحب تتبعه، سواء ايدولوجياً أو مشهدياً (عنف، فقر، معاناة).
- الثاني متعلق بتتبع النظر الذي تفرضه استخدام أداة الملاحظة، هذا التتبع

الذي يفضي إلى ما يمكن تشبيهه بهيمنة رمزية للباحث على الأشخاص والجماعات الذين قرر تحويلهم لمادة دراسية. (Christophe Dargère) 2014).

- وهناك ارتباط متعلق باخلاقيات الباحث نفسه وبوعيه أنه يتعاطى مع مجتمع ومع أفراد وليس مع أشياء.
- حجم المجتمع أو المجال المدروس الذي لا بد أن يكون صغيراً حتى يتمكن الباحث من ملاحظته.

إن نجاح الباحث أو فشله أو محدودية نتائجه التي جمعها من خلال استخدام تقنية الملاحظة متعلق بشكل كبير بشخصيته، وبحدود تقبله ضمن المجتمع المدروس. فنجاح الباحث متعلق بدرجة كبيره بردود أفعاله أمام المواقف التي يقابلها، بنوعية العلاقات التي ينسجها مع المجتمع أو الفئات المدروسة. فالحقل ليس فقط مسأله طريقة، بل هو أيضاً مغامرة شخصية لرجل يمتلك، بالاضافة إلى معلوماته النظرية وتمرينه التقني، شخصية وطبعاً ومزاجاً خاصاً به (Christinat J. L.) 1980، وكذلك الأمر بخصوص الثقافة والبيئة الاجتماعية التي يدرسها. فالباحث عليه أن يفهم أنه مراقب كما هو يراقب، ومن المهم أن يعي مدى أهمية مراقبة ذاته مثلما يراقب الآخرين (Sabi-Olivier Benouaddah-Muller: Ibid). هذا اذا ما تنبهنا أيضاً عند استخدام هذه التقنية لما ذكره بورديو عام 1978 حين قال أن الجميع يعرف كم هو صعب أن يكون اللاعب (الباحث) هو نفسه المراقب، فعندما نقوم بالبحث لا نستطيع أن نقوم بكل الأشياء في الوقت نفسه، فلا يمكن أن «نلعب» وأن نأخذ الوقت الكافي لرؤية ما نفعله (Diaz, ibid).

10. الملاحظة كأداة تقنية مكمله لغيرها من الأدوات l'observation en complémentarité avec d'autres outils

لقد بينا في مقاربتنا لتقنية الملاحظة في الأبحاث الاجتماعية مدى قدرة هذه الأداة عند استخدامها كوسيلة للبناء الفكري، كوسيلة لاختيار البحث

وتحويله من بحث أمبيرقي إلى بحث سوسولوجي، كما كوسيله في جمع المعطيات الحقلية. والآن لا بد من أن نقارب حدود دورها في الحقل ونفهم كذلك طرق استخداماتها كأداة مكمله لتقنيات بحثية عدة، نذكر من أهمها تقنية المقابلة بأنواعها وكذلك الاستمارة وإن بنسبة أقل.

١١. حدود دور الملاحظه في الحقل: بين الاميك émique والاتيك

étique

معروف أن لكل تقنية ميدانية حدودها في الحقل، ومعروف أيضًا أن المقابلة في الأبحاث النوعية مهمة للاطلاع على المعارف والذكريات الخاصة بالفاعلين المحليين، إذ من الضروري أيضًا فهم الواقع الاجتماعي المدروس من خلال منظور الفاعلين الاجتماعيين أنفسهم لتصوير ما أمكن من الاميك (émique).

إن مفهومي ال émique/ étique قد تمَّ استخدامهما كثيرًا في الأنثروبولوجيا الانكلوفونية ولقد صاغهما عالم اللسانيات والانتروبولوجي كنت بيك Kenneth Pike عام ١٩٥٤. أما اشتقاقهما اللغوي، فمبني على أساس المصطلحين المستخدمين في اللسانيات، علم الأصوات (الفونيتيك phonétique) والفونيميك^(١) phonémique.

لن ندخل في تفصيل هذين المفهومين وتاريخيتهما، ما يهمنا من مقاربتنا لهما هو أن نفهم أن لكل أداة تقنية حدود لاستخداماتها الميدانية، وأن الملاحظة على قدر أهميتها، هي لا تكف وحدها إذ أنها لا تترجم واقعياً إلا رؤية الباحث.

(١) الفونيميك هو ميدان علمي من ميادين علم الصوت phonologie يهتم بدراسه العنصر الصوتي في اللغة المحكيه (للتمييز بين فيزيائية الصوت وسمعه) فلكل صوت تقطيعاته التي تأتي من الحنك أوالحلق أو الأنف أوقرع الشفتين فتتغير كيفيات الأصوات وتجيء الحروف متمايزة في السمع وتتركب منها الكلمات الدالة التي يختلف نظامها باختلاف اللغات والمجتمعات.

- لقد أظهرت المعرفة العملائية في الأبحاث النوعية مدى أهمية :
- استراتيجية البحث التي تأخذ بعين الاعتبار التمايزات بين المعطيات المستمدة من حوار الفاعلين الميدانيين وبين المعطيات التي تمت ملاحظتها والتي علق عليها من قبل الباحث.
 - التمييز بين الخطاب الشعبي (المحلي) والخطاب العلمي. فهذا التمييز يعد أجدى وأثمر من المزج بين الخطابين. (دو ساردين ١٩٩٨)
 - لفهم أسباب الدعوة إلى التمييز بين ما يفكر به الباحث وما هو واقعياً على الأرض لا بد من أن نفهم بأن فكر الباحث وفكر من يدرسه قد يختلف جزئياً أو حتى كلياً وفق انتماءاتهم الثقافية، وكذا التعبير عن هذا الفكر.
 - فالاميك والاتيک هما مصطلحان يدخلان في دراسة علم الثقافة وهما يشرحان سلوك ومعتقدات الفرد في مقابل ثقافة مغايرة لثقافته لا سيما عندما يجد نفسه في وضعية ما بين ثقافية intercultural أو متعددة الثقافات multicultural .
 - الاميك هو مصطلح علمي يعني السلوك والمعتقدات التي يتصرف بها الفاعل انطلاقاً من المعاني الداخلية لثقافته سواء كانت هذه المعاني واعية أو غير واعية.
 - الاتيک هو مصطلح علمي يعني وصف السلوك من طرف المشاهد من خلال معاني يمكن سحبها على ثقافات أخرى دونما استعمال للمعايير والأفكار الماورائية. (عز الدين بن عثمان ٢٠٠٨)
- لقد فصل دو ساردين (١٩٩٨) الفرق بين الاميك والاتيک وفق الآتي :

اميك	اتيك
أفكار	تصرفات
البحث عن بنى ذات صلة بالأفكار	البحث عن بنى ذات صلة بالتصرفات
معارف ثقافية خاصة	قياسات علمية
ادراك وتصنيفات اللاعبين (من تتمّ مقابلتهم في الحقل)	ادراك وتصنيفات العلميين (الباحثين)
تصريحات لها اعتبارات ثقافية	تصريحات محكمة من قبل أوساط علمية
تصنيفات وقواعد ضرورية لكي تمثل المواطن المحلي	نظريات حول التشابه والاختلافات السوسيو ثقافية
غير قابلة للتزوير، ولا للتنبؤ ولا للقياس	قابلة للتزوير، التنبؤ والقياس
سياقات تفاعلية بين الباحث (أيًا كان نوعه) ومخبرية وحوارات بينهما ذات معنى	سياقات تفاعلية بين الباحث (أيًا كان نوعه) ومخبرية لا معنى لها وحوارات بينهما لا أهمية لها

إن هذا الجدول يفسر كم هو ضروري ربط الملاحظة بالمقابلة، ويبين أيضًا مدى الاستفادة من الملاحظة حتى أثناء القيلم بالمقابلة.

رابعًا: الملاحظة بين باحث يدرس مجتمعه وآخر يدرس مجتمعًا مغايرًا لمجتمعه

قد تختلف مقارنة الحقل بين باحث يدرس موضوعًا ضمن مجتمعه، وباحث آخر يقوم بدراسة خارج مجتمعه أو حتى خارج فئته الاجتماعية (كباحث بورجوازي يدرس مجتمعًا شعبيًا أو العكس صحيح، أو كإمرأة تدرس واقع الرجال في مجتمعها والعكس صحيح). الإشكال الأساسي الذي يطرح نفسه بين هذين النوعين من الأبحاث في موضوع الملاحظة هو إمكانية الرؤية، وكيفية الرؤية.

معروف أن الباحث الذي يعمل في المجتمع الذي ينتمي إليه من الصعب عليه الرؤية أكثر من غيره لأن المشاهدة والمعايشة للمجال المدروس قد تفقده الكثير من حاسية النظر في رؤية المشهد بسبب التعود عليه، ولأن قراءة الذات هي من أصعب القراءات، فمن السهل جداً رؤية الآخر المختلف ومحاولة تحليله لكن من الصعب جداً رؤية وتحليل الذات كما واصدار الاحكام العامة على المجتمع الذي يكون الباحث جزءاً منه.

غالباً ما يطلب من الباحث الذي يعمل ضمن حقله القيام بعملية «القطع» مع المعاش حتى يستطيع الرؤية والقراءة الحقلية الموضوعية. وهنا نتساءل هل يمكن القطع والخروج من المعاش لموضوعية الرؤية؟

وعلى العكس من ذلك، يطلب للباحث الذي يعمل في حقل مغاير لحقله أن يشتغل على أن يعايش المجتمع ليفهم خصوصيته ويرى الأشياء بشكل «موضوعي»، مسأله تثير الكثير من اللبس حول الوجود الفعلي للموضوعية. يقول مثل مالي Mali في هذا الصدد: «إن الغريب لا يرى إلا ما يعرفه». هذا القول الذي يبين أنه لا أحد يستطيع أن يلاحظ وأن يفهم المشهد الذي يدرسه بكليته، وذلك لحدود قدراته في الملاحظة، ولأن العين لا ترى إلا ما يجذبها وما تعتبره ذات معنى بالنسبة لما ترصده في الحقل، وأن الدماغ لا يدرك إلا ما هو مستعد لتمييزه وفهمه وتحليله، فالرؤية قدرة على احاطة المشهد والفهم والتحليل قدرة معرفية، نفسية، اجتماعية وثقافية (Didier Fassin 1990: p. 97). إن هذا الواقع هو الذي يظهر محدودية الملاحظة لكنه لا يلغي أهميتها.

لاشك أن العمل في حقل مغاير لمجتمع الباحث، بالرغم من صعوباته العديدة، يمكنه أن يتيح رؤية مختلفة وآفاقاً جديدة ومفاهيم غريبة عن الباحث تفرض عليه تحدي إثبات مصداقيته العلمية في التعامل معها، إضافة إلى مصداقيته الإنسانية التي تعتبر ركيزة أساسية في العمل وفق أسلوب المعاشة بالمشاركة.

في هذا السياق لا يمكننا إلا أن نكرر ما قالته كارولين هيرفي Caroline

Hervé بأن التجربة الحقلية هي تجربة مقلقة على المستوى الثقافي (٢٠١٠)، وهذا الأمر صحيح سواء كان الباحث يعمل في حقل هو حقل عيشه أو في حقل مغاير لمجتمعه. في كلا الحالتين هو في مواجهة مع ثقافته. ربما تكون مشاهدة الآخر المختلف أسهل على الباحث من مشاهدة الذات، بسبب الفرق بين رؤية المختلف والمعتاد، لكن في كلا الحالتين على هذا الأخير مراجعة ذاته حتى يستطيع القراءة والرؤية، التي لا بد، وأن ترتبط بإمكانياته وقدراته وغاياته في تأطير المجال المدروس، وهذا الأمر يقودنا حكمًا إلى التأكيد على عدم وجود الموضوعية المطلقة في الملاحظة والقراءة والتحليل. فالموضوعية تقاس من خلال الآخر الذي يقرأ البحث، لا من خلال الباحث نفسه.

خلاصة

ان هذا العرض الموجز عن الملاحظة في البحوث الاجتماعية أردناه لابرار مدى حاجه الباحث في شتى مراحل بحثه لبناء قدراته الذهنية حتى يستطيع أن يغذي رؤيته. ولإظهار أن كل تجربة حقلية هي اضافة معرفية وخبرانية تثقل الباحث وتعمق رؤيته وتحليله.

لا شك أن كتابة أسلوب اعتماد الملاحظة كأداة معرفية وتفسير استخداماتها كأداة تقنية وعرض أدواتها المعتمدة في البحث هي من أساسيات العرض المنهجي في الدراسة. فالمهم في البحوث الاجتماعية، ليس تعداد الاساليب المنهجية المعتمدة من قبل الباحث، بل تناولها في العمق من خلال ابراز دورها في الرؤية في متابعة المتغيرات المدروسة وفي النتائج التي توصل إليها الباحث في تحليله للنموذج الخاص المدروس من قبله، وأخيرًا في طروحاته المعرفية من الخاص المدروس في بحثه إلى العام في استخلاصاته.

المراجع

- ALTHABE Gérard, «*Ethnologie du contemporain et enquête de terrain*», mis en ligne en 2005, consulté en 2015.
URL: <http://terrain.revues.org/2976> ; DOI: 10.4000/terrain.2976
- BARIBEAU Colette. (2005). *Le journal de bord du chercheur dans la collecte des données; L'observation en situation: enjeux, possibilités et limites*. Recherches qualitatives, Hors Série, numéro 2. Association pour la recherche qualitative ISSN 1715-8702.
http://www.recherchequalitative.qc.ca/documents/files/revue/hors_serie/hors_serie_v2/SMartineau%20HS2-issn.pdf
- BECHER Howard. (2002). *Les ficelles du métier: comment conduire sa recherche en sciences sociales*. Collection: Grands repères. Edition La Découverte. Livre traduit de l'anglais.
- BOUCHIKHI Yasmine. *La théorie anarchiste de la connaissance*.
<http://marketing-thema.com/2013/05/28/la-theorie-anarchiste-de-la-connaissance-par-paul-feyerabend-thema2/>
- CRESSWELL Robert. (1976). *L'ethnologue et son terrain*. Outils d'enquête et analyse anthropologique. Maspero, Paris.
- CHRISTINAT Jean-louis. (1980). *Problème de terrain ou l'expérience ethnographique*. Bulletin de la société suisse des américanistes 44.
- DARGERÉ Christophe. (2012). *L'observation incognito en sociologie: Notion théoriques, démarche réflexive, approche pratique et exemples concrets*. L'Harmattan, Paris.
- DE SARDAN Jean-Pierre Olivier. (1998). *Emique*. In: L'Homme, tome 38, no. 147. http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/hom_04394216_1998_num_38_147_370510.

- DIAZ Frédéric. (2005). *L'observation participante comme outil de compréhension du champ de la sécurité*. Champ pénal, vol. II, mis en ligne en 2005, consulté en 2015.
<http://champpenal.revues.org/79;DOI:10.4000/champpenal.79>
- DURKHEIM EMILE. (1984). *Les règles de la méthode sociologique*. Edition électronique de 2001:
<http://bibliotheque.uqac.quebec.ca/index.htm>
- FASSIN Didier. (1990). *Décrire: Entretien et observation*.
<http://classiques.uqac.ca/>
- FAVRET - SAADA Jeanne, ISNART Cyril. (2015). *En marge du dossier sur l'empathie en anthropologie*, Journal des anthropologues,
<http://jda.revues.org/323>
- GRAWITZ Madeleine. (1996). *Méthodes des sciences sociales*. 10^{ème} édition, Dalloz, Paris.
- HERPIN Nicolas. (2010). *Barney G. Glaser, Anselm Strauss, La découverte de la théorie ancrée. Stratégies pour la recherche qualitative*, Lecture en ligne, <http://lectures.revues.org/1357>
- HERVE Caroline. (2010). *Analyser la position sociale du chercheur: des obstacles sur le terrain à l'anthropologie réflexive*. Les cahiers du CIERA, <https://www.academia.edu/3577164>
- KILANI Mondher. (1987). *L'anthropologie de terrain et le terrain de l'anthropologie: observation, description et textualisation en anthropologie*. Volume 5. http://www.persee.fr/web/revues/home/precript/article/reso_07517971_1987_num_5_27_132
- LAPLANTINE François. (1996). *La description ethnographique*, Nathan, Paris.
- LAPERRIERE Anne. (2009). *L'observation directe In: Benoit Gauthier: la recherche sociale: de la problématique à la collecte des données*. 5^{ème} édition, Presse de l'Université de Québec.
- MARTINEAU Stéphane. (2005). *L'instrumentation dans la collecte des données, l'observation en situation: enjeux, possibilités et limites*. Recherches qualitatives, numéro 2.

- MULLER Sabi - Olivier Benouaddah. (2009). *Jean Peneff, Le goût de l'observation. Comprendre et pratiquer l'observation participante en sciences sociales*. URL: <http://lectures.revues.org/801>.
- PENEFF Jean. (1995). *Mesure et Contrôle des observations dans le travail de terrain: l'exemple des professions de services*. Sociétés Contemporaines, no. 21.
- PENEFF Jean. (2005). *Le goût de l'observation: comprendre et pratiquer l'observation participante en sciences sociales*. La Découverte, Paris.
- RIVILIARD Anne. (2012). *Introduction à la sociologie*. Université de Paris, Licence en sociologie.
- ROGELI Thierry. (2010). *Christian Lallier, pour une anthropologie filmée des interactions sociales*. <http://lectures.revues.org/975>
- SCHNEIDER Daniel K. (2006). *Balises de méthodologie pour la recherche en sciences sociales*. Matériaux de cours en plusieurs modules.
- SOULET Marc - Henry. (2015). *Interprétez, avez-vous dit! Régimes d'explication en sociologie*. URL: <http://sociologies.revues.org/3471>.

الصور

- <http://indexgrafik.fr/roman-cieslewicz/>
- https://www.google.com.lb/search?q=%D8%AC%D8%B2%D8%B1+%D9%83%D9%8A%D8%B1%D9%8A%D9%88%D9%8A%D9%86%D8%A7&biw=1600&bih=1031&site=webhp&tbm=isch&imgil=8MLhNjJPqMKKeM%253A%253BLLt4VwwvUaUIZM%253Bhttp%25253A%25252F%25252Fwww.elwatannews.com%25252Fnews%25252Fdetails%25252F482067&source=iu&pf=m&fir=8MLhNjJPqMKKeM%253A%252CCLLt4VwwvUaUIZM%252C_&usg=__Se_zHq8SAT5IvFDYYevHonxlzw%3D&ved=0CC0Qyjc&ei=0CBDVd6kE9ffaQjFgNgJ#imgrc=qwncCT_NwkuLhM%253A%3BzhfNrjFs1WXmsM%3Bhttp%253A%252F%252Fsahtokom.com%252Fimages-news%252F1400242121.jpg%3Bhttp%253A%252F%252Fsahtokom.com%252Fnews347.html%3B600%3B513
- <http://www.amazon.com/Howard-S.-Becker/e/B000APLW2U>

- ايمرسون؛ روبرت، فريتز؛ راشيل، شو؛ لندا (٢٠١٠)، البحث الميداني الاتنوغرافي في العلوم الاجتماعيه، المركز القومي للترجمة، ترجمة هناء الجوهري ومراجعة محمد الجوهري (سلسله العلوم الاجتماعيه للباحثين).
 - بن عثمان، عز الدين (٢٠٠٨)، الحوار المتمدن - العدد ٢٤٠٤ - ٩/١٤ - ٢٣:٠٧، المحور: الفلسفة، علم النفس، وعلم الاجتماع.
- <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=146999>

Les Sondages d'Opinion Publique: Outils de la Recherche Action

Joseph Khoury⁽¹⁾

Résumé

Les sondages d'opinion publique ne se limitent pas à interroger des personnes sur leurs préférences au gré des rencontres. Ils obéissent à des méthodes statistiques rigoureuses pour la sélection des répondants et vont au-delà d'un questionnement simple sur les prédilections.

L'opinion publique est un régulateur fondamental de la vie sociale et requiert que l'on tienne compte de la complexité qui la caractérise. Il existe deux aspects de l'opinion publique, l'un est objectif et l'autre subjectif. Les sondages doivent tenir compte de ces deux aspects à la fois pour bien anticiper les évolutions de l'opinion.

Ces évolutions peuvent s'organiser en grandes tendances. Les sondages ne doivent pas hésiter à engager l'effort nécessaire pour les détecter. Ils faciliteront ainsi une construction de scénarios permettant de mieux appréhender l'avenir.

Des conseils pratiques sont fournis pour une bonne pratique des sondages et pour en tirer le meilleur parti possible.

1. Introduction

Les sondages d'opinion publique sont nés officiellement aux Etats-

(1) Institut des Sciences Sociales 2, Université Libanaise: j.khoury@reachmass.com

Unis en 1936. Depuis ce temps, ils n'ont pas cessé d'évoluer. Ils sont passés d'un outil visant la connaissance de l'état de l'opinion, vers un outil permettant d'anticiper les changements dans l'opinion publique, d'en connaître les déterminants et par la suite d'agir dessus pour infléchir ses tendances. D'un instrument de recherche, ils sont devenus un instrument de la recherche action.

Le présent texte vise à rendre compte de cette évolution, et à fournir les indications nécessaires pour que la pratique des sondages puisse servir l'action. L'objectif est de contribuer à une sorte d'ingénierie sociale permettant de mieux gérer ce régulateur de la vie sociale que représente l'opinion publique.

2. L'opinion publique, régulateurs de la vie sociale

L'opinion publique n'est pas le fruit de l'émergence des systèmes électoraux. Elle a accompagné la vie sociale des hommes depuis l'aube des temps.

Margaret Mead (1937) cite l'exemple de la tribu primitive des Arapesh où elle note comment l'opinion publique sert à réguler des comportements en l'absence de normes sociales pour les guider.

Ainsi, si un porc entre dans le jardin d'un voisin, celui-ci est autorisé à tuer le porc, mais à partir de là aucune norme sociale ne dit ce qu'il peut en faire. Il peut rendre le porc tué à son propriétaire, ou encore le manger lui-même. S'il opte pour ce dernier comportement, il ne peut pas manger le porc tout seul, il doit inviter le plus large nombre de gens possible à le consommer publiquement avec lui. L'objectif est de montrer au propriétaire que son comportement dispose de l'aval de la majorité, qu'il est soutenu en quelque sorte par l'opinion publique.

Charles Tilly (1983) a dressé une sorte de répertoire des actions collectives mises en uvre par l'opinion publique dans les régimes non électoraux: «La plupart des gens ne votent pas, ne signent pas de pétitions ou déclarent des positions sur des sujets d'intérêt national...mais ils agissent ensemble sur leurs intérêts pour communiquer leurs demandes, leurs frustrations et leurs aspirations d'une manière qui ne prête pas à équivoque» (p.462)

Dans le répertoire, Tilly mentionne entre autres différentes formes de

défis au pouvoir central, comme l'obstruction de l'accès de ses agents à la localité de manière relativement durable, l'obstruction de l'accès à des biens et services essentiels détenus par la localité mais qui revêtent un intérêt national, tels les graines, ou encore les routes, les rues etc.

Ce qui distingue ce répertoire c'est son aspect paroissial: «il s'adresse aux acteurs locaux (à titre d'intermédiaires), il fait un appel immédiat aux détenteurs de pouvoir les plus proches pour faire parvenir les plaintes et régler les disputes» (p.465)

Les rois les plus absolus et les plus puissants n'ont pas manqué de tenir compte de ce que pense le plus grand nombre de leurs sujets.

En France, au XVIIe. siècle Louis XIV, le Roi Soleil, écrit à son petit-fils roi d'Espagne que les rois doivent satisfaire le public et qu'ils doivent lui donner en toutes choses matière à louanges et approbation (Deon M., 1991)

Au XVIIIe. siècle, Catherine II, impératrice de Russie met au point un système qui lui permet d'évaluer les réactions de la population à ses projets de lois. Elle fait circuler par sa police secrète des rumeurs au sujet des lois prévues, recueille les réactions aux rumeurs et en tient compte au moment de sa prise de décision.

Machiavel explique pourquoi dans les systèmes non électoraux le Prince se doit de tenir compte de l'opinion publique; Un Prince a peu de soucis à se faire concernant les complots quand les gens sont bien disposés à son égard, mais quand ils sont hostiles, et le haïssent, alors il doit craindre tout, et tout le monde» (1982, p.97, première publication 1532).

Dans les temps plus modernes, Alexis De Tocqueville (1835/1840), dans son célèbre ouvrage *De la Démocratie en Amérique*, va éclairer le rôle crucial que joue l'opinion publique dans les systèmes démocratiques. Il estime qu'elle exerce une influence encore plus grande que les moyens de coercition qu'utilisent les régimes aristocratiques car elle paraît aussi indispensable que l'air que l'on respire.

Mais qu'est-ce que l'opinion publique?

3. Définition de l'opinion publique

Le terme opinion publique est constitué de deux mots, opinion et publique. Il est important de cerner le sens de chaque mot à part avant de les regrouper pour comprendre ce que ce terme désigne.

L'opinion se réfère à une zone située entre la connaissance et l'ignorance selon Platon. En effet quand il pleut et que je dis il pleut maintenant je fais référence à une connaissance qui est indisputable par les autres. Je peux aussi être dans un endroit où il m'est impossible de savoir s'il pleut ou non. Tous ceux qui sont avec moi dans cet endroit s'accorderont avec moi.

Par contre si je dis: Dans les deux prochains mois il va beaucoup pleuvoir, je me base sans doute sur une connaissance partielle, inspirée d'une sorte d'intuition, ou d'une expérience passée, ou encore de mes échanges et lectures sur le sujet. Certains peuvent partager mon point de vue, et certains autres le contredire. J'exprime dans ce cas une opinion, car elle est sujette à controverse. Tout ce qui est sujet à controverse est matière à opinion.

Mais toute opinion n'est pas publique. On peut penser quelque chose et le garder pour soi, ou en faire part dans un cercle d'intimes. Dans ce cas, il s'agit d'une opinion privée. Pour être publique, l'opinion doit être partagée avec un grand nombre de personnes qui ne nous sont pas connues, ceux que Georges Herbert Mead appelle (1934, p.155), «l'autre généralisé».

Ce qui est public c'est ce qui est ouvert à tout le monde, comme dans l'expression place publique, qui n'exclut personne, où tout individu peut à tout moment entrer, sortir et s'y exprimer. Un autre sens du mot public, est celui de l'intérêt général, l'intérêt du plus grand nombre comme celui qu'on trouve dans l'expression: Tout gouvernement se doit d'agir dans le sens de l'intérêt public.

Il s'ensuit la définition suivante: L'opinion publique se réfère à un sujet de controverse qui est débattu dans des espaces non exclusifs et qui exprime le point de vue du plus grand nombre de personnes concernées.

S'il est aisé de reconnaître ce qui fait l'objet d'une controverse, car c'est ce qui donne lieu au moins à deux points de vue, s'il n'est pas

difficile de distinguer entre ce qui est privé et ce qui est public, il n'est pas donné de reconnaître spontanément de quel côté de la controverse se situe le plus grand nombre de personnes.

Les sondages ont justement pour mission de révéler là où se trouvent la majorité et la minorité des opinions en utilisant des questionnaires, un outil privilégié pour collecter de l'information auprès des gens, notamment quand cette information n'a pas de caractère privé.

Mais est-ce à dire que les sondages se limitent uniquement à un rôle de mesure de l'opinion la plus répandue dans une population. Rien n'est moins vrai. A côté de l'opinion publique définie de manière objective, il existe une opinion publique vécue subjectivement et qui a été particulièrement influente, comme on vient de le voir, depuis que les hommes se sont constitués en sociétés.

Depuis ces temps-là, la plupart des gens, à tort ou à raison, se dotent d'une perception du côté duquel se trouve la majorité des opinions. Prenez n'importe quel sujet de controverse et posez aux gens la question: «quelle est l'opinion la plus répandue sur ce sujet?». Très peu reconnaîtront qu'ils ne savent pas. Tous les autres s'empresseront de signaler quel est le point de vue majoritaire, bien qu'ils ne disposent pas de moyens objectifs pour le savoir.

Cet aspect subjectif de l'opinion publique ne peut être ignoré, car c'est l'aspect sur lequel repose la fonction de l'opinion publique comme régulateur de la vie sociale. Il est devenu lui aussi un centre d'intérêt pour les sondages depuis 1965.

Il découle de ce qui précède que les sondages d'opinion publique peuvent inclure deux aspects de l'opinion publique, un aspect objectif où il s'agit de révéler de quel côté se trouve la véritable majorité, et un aspect subjectif susceptible d'anticiper la dynamique régulatrice de l'opinion.

4. Les sondages révélateurs de majorité

Il n'est pas toujours possible de consulter tout le monde pour savoir où se range la majorité des opinions. Aux Etats-Unis, la solution la plus couramment adoptée jusqu'en 1936 consiste à questionner le plus grand nombre possible de personnes et à projeter les résultats obtenus sur l'ensemble de la population américaine. Plus on interroge de gens, et plus les résultats sont jugés fiables. C'est la méthode du vote de paille.

En 1936, lors de la campagne de réélection du Président Roosevelt aux Etats-Unis, une grande revue, le *Literary Digest* consulte environ deux millions et demi d'électeurs en partant d'adresses d'abonnés au téléphone et de listes de propriétaires de voiture. Elle prévoit sa défaite. Au même moment, Archibald Crossley et Elmo Roper d'un côté, et George Gallup de l'autre, consultent chacun quatre à cinq mille électeurs selon la «méthode représentative», recommandée en 1925 par l'Institut international de la Statistique à partir d'un papier du Danois A. Jensen. Selon cette méthode chaque individu doit avoir une chance non nulle et égale aux autres individus d'être sélectionné. Ils donnent Roosevelt gagnant ce qui se vérifie le jour des élections⁽¹⁾.

Selon Stoetzel et al. (1973): «Les raisons de l'échec du *Literary Digest* n'ont rien d'obscur. Le nombre des réponses n'apporte en soi aucune garantie si l'échantillonnage des voix qu'elles constituent n'est pas représentatif. En fait, la revue...n'avait atteint que la partie la plus riche de la population» (p.50).

Fort du succès de 1936, la méthode représentative se propage non seulement dans le monde politique, mais aussi dans les universités et dans le monde des affaires. Les sondages d'opinion sont nés. Ils sont reconnus comme les outils les plus pertinents pour révéler de quel côté se trouve la majorité des opinions.

En 1946, cependant, les sondages vont connaître une déconvenue. Gallup et d'autres instituts de sondages prédisent que Truman, candidat aux élections présidentielles, échouera face à son adversaire. Contrairement à la prédiction, Truman est élu obtenant 5.5% de voix de plus que prévu par Gallup⁽²⁾.

L'examen des données révèle les points suivants:

- * L'échantillon a été légèrement biaisé en faveur des gens les plus instruits.
- * Le dernier sondage a eu lieu dix jours avant le jour des élections et n'a pas tenu compte des changements de dernière minute qui peuvent avoir affecté les dispositions des électeurs.

(1) Cf. Stoetzel, J., Girard, A., les sondages d'opinion publique, éditions PUF, 1973

(2) Cf. Muchielli, R. (1979): *Opinions et Changements d'Opinion*, éditions ESF, Paris

- * Les «indécis» avaient été distribués à égalité entre les candidats, ce qui n'a pas été le cas. Le jour des élections, ils ont en fin de compte été plus favorables à Truman qu'à son adversaire.
- * Les Sans Réponse ont été calculés comme abstentionnistes. Ils ne l'ont pas tous été au moment de l'élection et ont favorisé Truman.

En se basant sur les observations précédentes, il est clair que les sondages doivent être plus vigilants que jamais quant à la qualité de l'échantillon. Il est clair aussi qu'ils font face à des défis méthodologiques qui requièrent une observation continue de l'opinion, et de ce qui peut l'affecter au dernier moment. Il est important aussi de tenir compte de ce qui pourrait pousser les indécis et les abstentionnistes à changer d'avis et de l'intégrer dans les prévisions.

Des efforts sont dès lors entrepris pour relever ces défis méthodologiques. Paul Perry en fait le résumé en 1979 dans un article dans le *Public Opinion Quarterly*.

Il cite notamment ce qui suit:

- * Les sondages sont entrepris de manière régulière et publiés jusqu' à la dernière date permise par la loi. L'arrêt de publication des sondages correspond le plus souvent avec la date de clôture des campagnes électorales et il est supposé que rien ne viendra perturber les dernières intentions de vote exprimées.
- * Des sondages ont recours au vote «secret» où, après avoir répondu à certaines questions du questionnaire, le répondant est invité à exprimer ses préférences de manière non visible par l'interviewer. Ceci réduit la proportion des «sans réponses», ou des «indécis», qui pour diverses raisons ne veulent pas révéler pour qui ils vont voter. Une étude est menée sur deux échantillons identiques en 1976 (Cf. Perry, 1979). L'un des échantillons est soumis à un vote secret, l'autre à un vote secret. Dans le cas d'un vote non secret les indécis s'élèvent à 17%. Dans un vote secret, ils sont 6%.
- * Gallup note que le jour des élections un certain nombre de ceux qui ont déclaré avoir l'intention de voter ne vont pas aux urnes. L'inverse est vrai pour un certain nombre d'abstentionnistes. Il propose une méthode pour ajuster les intentions de vote en fonction de la probabilité de vote. La probabilité de vote est calculée en fonction

d'une batterie de questions qui comprend entre autres le niveau de détermination à voter, la force de la préférence pour un candidat, la fréquence de vote dans le passé, l'estimation de la facilité de l'accès au bureau de vote.

Toutes ces améliorations techniques se sont produites au fur et à mesure et ont contribué à réduire le niveau d'erreur dans les sondages. Perry (1979) note dans son article que «dans les sept élections nationales (aux Etats Unis) entre 1936 et 1948 l'erreur moyenne des sondages a été de 4 points, dans les cinq élections nationales de 1950 à 1958, l'erreur moyenne a été de 1.7 points, dans les cinq élections de 1960 à 1968 elle a été de 1.5 points, et dans les cinq élections de 1970 à 1978 elle a été de 1 point.» (p.323)

Il faut noter cependant que les moyennes agrégées que nous venons de citer cachent des cas, peu nombreux, il est vrai, où les sondages n'ont pas réussi à déterminer le vainqueur. Ce sont des cas où les intentions de vote pour les candidats sont très rapprochées et où les électeurs à la veille des élections et sans campagne publicitaire pour les influencer, changent soudain d'avis et favorisent de quelques points le un candidat déterminé. C'est ce qu'on appelle le «swing vote».

Comprendre et anticiper «le swing vote» ne s'est pas révélé possible tant qu'on ne prenait en compte que l'aspect objectif de l'opinion publique. Elisabeth Noëlle Neumann (1992), en s'intéressant à l'aspect subjectif de l'opinion publique, en révélera les mécanismes de fonctionnement.

5. Les Sondages, l'aspect subjectif de l'opinion et l'anticipation

En 1965 en Allemagne, les sondages effectués à trois jours avant les élections- à la veille du couvre-feu électoral qui interdit à la fois les sondages et les campagnes- ne permettent pas de distinguer un gagnant. Les analyses de tendance sur les intentions de vote sur plus de dix mois non plus: Les intentions de vote ont été en permanence très rapprochées.

Elisabeth Noëlle Neumann raconte dans son ouvrage *The Spiral of Silence Our Social Skin* (1994) qu'elle avait inclus dans ses sondages de l'époque une question visant à rendre compte de l'aspect subjectif de l'opinion: «Qui selon vous gagnera les élections?». Les réponses à cette

question désignent clairement un vainqueur. Elle ne manque pas de le déclarer après la fermeture des urnes dans un programme télévisé, devant des téléspectateurs et d'autres instituts de sondage médusés. La publication des résultats de l'élection lui donne raison. Au dernier moment, les électeurs se sont rangés du côté du parti qu'ils ont perçu comme majoritaire.

Forte de la justesse de son observation, Elisabeth Noëlle Neumann poussera plus en avant son investigation pour comprendre pourquoi et comment l'aspect subjectif de l'opinion précède et participe à former son aspect objectif.

S'appuyant sur les idées de grands penseurs comme John Locke, et sur les études expérimentales sur la conformité dont Solomon Asch a été le pionnier, elle avance que les gens ne peuvent souffrir d'être mis à l'écart, d'être isolés. Pour l'éviter ils tendent à se ranger du côté de l'opinion qu'ils croient être majoritaire. Comment se produit cette «impression de majorité»? Tout simplement les gens, soucieux de ne pas être isolés, regardent autour d'eux et notent quelle est l'opinion la plus en vue. S'ils sont de cet avis ils vont avoir tendance à s'exprimer eux aussi en public. S'ils sont de l'avis contraire, ils vont se taire, avant de rejoindre dans les actes l'opinion la plus visible dans leur milieu. C'est ce que Elisabeth Noëlle Neumann va appeler la Spirale du Silence.

Elisabeth Noëlle-Neumann développera toute une batterie de tests pour vérifier son hypothèse, dont le plus célèbre est le test du train. On demande à une personne d'un certain avis sur un sujet déterminé d'imaginer qu'elle est dans un train avec un inconnu qui exprime un avis contraire au sien. Que fera-t-elle dans ce cas, est-ce qu'elle va lui répondre ou au contraire, se taira-t-elle jugeant que ce n'est pas la peine d'engager une discussion?

Bien entendu, plus les personnes d'un certain avis se taisent, et plus on pourra s'attendre qu'à terme ils soient perçus comme minoritaires. Plus ils seront perçus comme minoritaires et plus ils le deviendront en réalité. Par contre, s'ils prennent la parole, ils communiqueront une impression de majorité qui ne tardera pas à s'actualiser dans les faits.

A partir de 1972, le test du train fera partie de différents sondages pratiqués sur des sujets divers intéressant l'opinion publique. Certains

appartiennent à la sphère politique (comme l'opinion au sujet du Chancelier Brandt) et certains autres, à la sphère sociale (comme la loi visant à interdire aux parents de frapper leurs enfants). Invariablement le test du train anticipera l'évolution de l'opinion dans le sens de ceux qui montrent le plus de disposition à s'exprimer dans le test. Même dans les cas où la majorité objective est du côté opposé, on note que cette majorité s'étirole à terme en faveur du groupe le plus expressif, qui, quoique minoritaire au début, ne manque pas de s'imposer comme majoritaire dans les esprits puis dans les faits.

En s'étendant et en s'efforçant d'anticiper les évolutions de l'opinion sur des périodes de temps de plus en plus longues, la théorie de la Spirale du Silence intègre l'influence des médias et de la visibilité qu'ils confèrent à certains points de vue plus qu'à d'autres. A taux d'expressivité interindividuelle égale, l'opinion favorisée par les médias est perçue comme majoritaire. C'est le cas des élections de 1976 en Allemagne où les deux partis allemands CDU et SPD disposent d'une proportion égale d'expressifs dans leurs rangs. Cependant les médias en favorisant le SPD vont faire monter sa perception de majoritaire. Elle passe de 32 % en Mars 1976 parmi ceux qui regardent fréquemment la télévision à 42 % en Juillet. La perception majoritaire du CDU baisse de 47% à 34 % durant la même période. (Elisabeth Noëlle Neumann, *ibidem* p.162).

Elisabeth Noëlle Neumann est à la fois un professeur d'université de renommée mondiale, le chef d'un institut de sondage réputé en Allemagne, et aussi une praticienne, car elle était membre du parti CDU, qu'elle a représenté comme député au parlement allemand. Elle a été également conseillère de plusieurs chanceliers Allemands et particulièrement Helmut Kohl qui 1982 jusqu'en 1996 gouvernera l'Allemagne sans perdre une seule élection. Le savoir et le savoir-faire d'Elisabeth Noëlle Neumann ne sont pas étrangers à l'acquisition des faveurs de l'opinion publique ans durant. Helmut Kohl ne quittera le pouvoir que suite à un scandale politique.

Entre-temps Les sondages s'affirment non seulement comme des outils de mesure mais des instruments de la recherche-action. L'étude de l'aspect subjectif de l'opinion s'impose comme une nécessité.

Cependant avec le changement d'époque et l'extension à de nouveaux pays, les sondages vont devoir relever de nouveaux défis.

L'irruption de nouveaux médias, les variations culturelles entre les pays et les variations individuelles entre les personnes conduisent à se poser des questions sur le mode de fonctionnement de la Spirale du Silence dans ces différents contextes. Un ouvrage publié en 2014 par Donsbach, W. et al. groupera un certain nombre de contributions dans ce sens. Il s'intitule: *The Spiral of Silence, New Perspectives on Communication and Public Opinion*.

Dans ce recueil, les nouveaux médias comme internet et les moyens de communications sur téléphonie mobile ont une place de choix. Il ne fait pas de doute qu'ils donnent lieu à des interactions sociales non prévues par le modèle d'origine de la Spirale du Silence. En effet, le modèle d'origine imagine des interactions qui se déroulent entre un individu identifiable par les autres et d'autres qui sont inconnus par l'individu, alors qu'au moins trois autres scénarios peuvent être imaginés pour l'interaction sur les nouveaux moyens de communications. Pour Rossler P. et al (2014), nous avons affaire à quatre cas de figure qui peuvent être schématisés comme suit:

Figure 1- Schéma d'interaction sur internet

	Autres Inconnus	Autres connus
Individu identifiable	Cas 1	Cas 2
Individu non identifiable	Cas 3	Cas 4

Le cas 1 est celui d'un individu identifiable et d'autres inconnus. Nous pouvons prendre comme l'exemple d'un blogger qui reçoit le feedback d'un grand nombre d'inconnus, l'individu est sensible à l'opinion majoritaire.

Dans le cas 2, comme celui d'échanges sur WhatsApp, il est plus ou moins susceptible de réagir en fonction de l'estime qu'il entretient vis-à-vis des personnes faisant partie de ses connaissances.

Dans le cas 3 où l'individu n'est pas identifiable, l'individu ne s'attend pas à une sanction car les autres ne peuvent pas le repérer. La sanction de l'isolation ne peut s'appliquer et par conséquent la Spirale du Silence ne fonctionne pas. Ceci s'applique par exemple à celui qui reçoit des messages de campagne sur SMS de sources non familières, ou encore

dans un chat room ou les participants camouflent leurs identités en prenant des alias.

Dans le cas 4 où l'individu n'est pas identifiable mais où la source est connue, l'individu ne craint pas aussi l'isolation. Toutefois il sera sensible aux qualités de la source, à sa réputation et à son expertise perçue. Des SMS ou des emails reçus par exemple d'une organisation pour la défense de l'environnement reconnue et respectée ne manqueront pas de l'influencer.

Ainsi l'interaction à travers les nouveaux médias ne ressemble pas à celle qui se déroule dans un espace public physique. Ce n'est que dans un cas sur quatre que nous observons une influence prédominante de la Spirale du Silence.

Quid du fonctionnement de la Spirale du Silence à travers différentes cultures? Matthes, J. et al. (ibidem) montrent qu'elle affecte les opinions dans des cultures aussi diverses que les cultures russe, chinoise, française, espagnole et coréenne (malheureusement les pays de culture Islamique ou Arabe ne sont pas inclus parmi les cultures examinées⁽¹⁾). Glenn, C.J. et al. (ibidem) conduisent une méta-analyse sur 56 études relatives à la Spirale du Silence et trouvent que toutes ces analyses convergent pour dire qu'il y a un effet significatif mais faible de la Spirale du Silence sur le comportement final des individus.

L'effet est significatif non seulement du point de vue statistique, mais aussi du point de vue sociologique car en déplaçant de quelques points la majorité, il permet de remporter des élections ou encore de gagner l'adhésion du public à une cause déterminée dans un espace défini de temps. L'effet est faible parce que les individus ne réagissent pas de la même façon à la pression majoritaire. Certains y sont sensibles et certains ne le sont pas. Or dans une méta-analyse, ils sont agrégés ensemble. Il en résulte une dilution de l'effet de la Spirale du Silence.

Ceci nous amène à un autre grand sujet de l'ouvrage de Donsbach et al. (ibidem): l'exploration d'une manière opérationnelle de ce qui peut faire obstacle à la Spirale du Silence et de ce qui peut la faciliter au niveau individuel. On distingue en premier lieu les individus qui détiennent de

(1) Ce qui incite à mener des recherches sur ces cultures.

grandes certitudes quant à la justesse de leur opinion de ceux qui en sont relativement moins convaincus. Ce sont ceux qui sont relativement les moins convaincus qui seront les plus susceptibles d'être soumis à la Spirale du Silence. Il faut aussi tenir compte des dispositions individuelles. Certains individus sont plus disposés que d'autres à s'autocensurer, c'est-à-dire à se taire en présence d'opinions contraires à la leur. Une autre source de différenciation provient du fait que certains ont plus peur que d'autres de l'isolation, et sont ainsi plus enclins que d'autres à réagir à la pression de la majorité perçue.

En identifiant les individus les plus sensibles à La Spirale du Silence, il est possible de déterminer la taille des groupes auxquels ils appartiennent et par conséquent d'affiner le pouvoir d'anticipation des sondages. De plus, en définissant les caractéristiques de ce groupe, il devient possible aux consultants politiques et sociaux de cibler ces groupes pour faire pencher la balance du côté qu'ils entendent favoriser.

Ainsi les sondages d'opinion deviennent des instruments de plus en plus efficaces de la recherche-action visant à comprendre, à anticiper et même à contrôler les processus d'opinion publique. Mais leur rôle ne s'arrête pas là. Forts de leur avancement méthodologique, et des élaborations théoriques de plus en plus sophistiquées qu'ils nourrissent, ils deviennent des instruments d'observation et d'explication de tendances qui animent le champ social dans son acceptation la plus large.

6. Les sondages et le champ social

Nous exposerons ci-dessous trois illustrations de l'usage des sondages dans des approches visant à appréhender des dynamiques sociales au niveau le plus général.

6.1 L'étude des tendances

Taylor D.G. (1980) propose quatre modèles mathématiques avec des exemples de calcul détaillés pour mieux comprendre et analyser les tendances dans une société déterminée. Ces modèles prennent leurs racines dans quatre théories différentes du changement social qui sont énoncées comme suit par Taylor, D.G. (p.87):

a) **Plus ça change plus c'est la même chose:** Il s'agit d'opinions, de

valeurs et d'attitudes si fortement ancrées dans l'esprit des gens que les mesures consécutives ne décèlent que des variations qui demeurent à l'intérieur de la marge d'erreur statistique du sondage, même à travers une longue période de temps. L'auteur donne comme exemple les études de Sullivan et al qui montrent que le niveau de tolérance des américains n'a pas vraiment changé des années durant.

- b) **La Statique Sociale:** Les déterminants qui commandent les grandes tendances dans les opinions sont ancrés dans des variables sur lesquels il n'est pas possible d'intervenir dans l'immédiat, et dont le pouvoir déterminant reste inchangé à travers le temps. Le niveau d'instruction, la classe sociale, l'âge, la région, la structure familiale etc., jouent ce rôle pour certaines tendances sociales. Nombre d'illustrations peuvent être consultées dans la littérature scientifique. Il serait intéressant par exemple de voir l'article de Ole R. Holsti et al. (1980) qui montre que c'est le statut socio-professionnel qui commande principalement toute une batterie d'opinions au sujet de la politique étrangère aux Etats-Unis. Emmanuel Todd (1983) montre que les grandes tendances politiques en Europe sont enracinées dans un nombre restreint de types de structures familiales.
- c) **Processus Réguliers:** Le changement prend une forme régulière (mais pas nécessairement linéaire). A travers le temps certaines tendances vont croître d'une manière qu'il est possible d'anticiper, ou encore décliner de la même manière. Nous pourrions prendre comme exemple les travaux de la Cofremca sur les courants socio-culturels où par exemple il est possible de noter que les opinions favorables à l'hédonisme ou l'autonomie sont en croissance continue depuis les cinquante dernières années (De Vulpian, A. 2004)
- d) **Les Changements Imprévisibles** (Social Catastrophe dans le texte de l'auteur): Ce sont les changements qui sont tributaires d'évènements qui interviennent soudain sur les scènes politiques et sociales et provoquent des changements dans l'opinion dans des directions inattendues. On peut citer comme exemple les scandales politiques qui touchent les leaders et conduisent à les priver de l'appui du public. Dans ce cas il n'est point d'anticipation possible, les sondages se contentent d'enregistrer l'impact de l'évènement sur l'opinion.

Les différents types de changement dans l'opinion distingués par

Taylor peuvent se combiner pour dessiner des scénarios permettant de mieux gérer l'avenir. Par exemple il est possible de détecter un Processus Régulier, de faire l'hypothèse de certains événements possibles et d'imaginer comment le processus en sera affecté.

Dans ce sens, nous avons eu l'occasion de rapporter (Khoury, J., 1989) comment à partir de sondages mensuels menés en 1983 au Liban, nous avons détecté un Processus Régulier, et comment à partir de là nous avons évoqué un scénario d'instabilité politique si aucun Changement Imprévisible n'intervenait pour arrêter le cours des choses.

6.2 L'évaluation du risque d'instabilité politique

En 1989, au séminaire organisé à Séville conjointement par ESOMAR (European Society for Opinion and Marketing Research) et WAPOR (World Association for Public Opinion Research) nous avons montré comment les sondages même dans des pays comme le Liban, où il n'y a pas eu d'élections depuis longtemps, peuvent servir comme moyen d'anticipation de l'instabilité politique.

Les sondages auxquels nous nous référons commencent en Février 1983 et s'arrêtent en Juin de la même année. A cette époque, le pouvoir central se remet en place au Liban et tout laisse croire à une évolution de plus en plus positive de la situation. Nos résultats malheureusement le sont beaucoup moins.

Les données à notre disposition présentent tous les indicateurs d'un Processus Régulier. Elles se conforment à un modèle mathématique quadratique dont le coefficient de détermination (R^2) s'élève à 77%, ce qui représente une très forte détermination de la tendance. Nous anticipons alors en Juin une chute de l'adhésion de l'opinion publique au pouvoir central qui risque d'atteindre en Septembre le seuil de 10%.

Tirant les conclusions de la chute prévue d'emprise du pouvoir central sur l'opinion publique, nous avons paraphrasé Machivael (1532): «Si le Prince n'a pas l'appui de l'opinion publique, les leaders paroissiaux qui entendent le défier seront de plus en plus encouragés à le faire, et recruteront de plus en plus de gens de leur côté, alors que le Prince perdra de plus en plus d'amis et de personnes prêtes à défendre publiquement sa cause. Il s'ensuivra que son régime sera de plus en plus sujet aux révoltes et aux conspirations». (Khoury, J., 1988, p.80).

Sans un Changement Imprévisible dans le langage de Taylor, ou plus prosaïquement un coup de barre politique susceptible d'infléchir la tendance observée, le scénario de l'instabilité politique sera très probablement au rendez-vous en Septembre.

Mais l'instabilité politique ne provient pas seulement des relations qu'entretiennent des citoyens avec un pouvoir central, elle peut provenir aussi des relations de nature confligènes que différentes factions dans une population peuvent entretenir entre elles. Elizabeth Noëlle Neumann s'est particulièrement intéressée à ce phénomène.

6.3 Opinion publique et relations sociales confligènes

Dans la spirale du silence le conflit entre deux pôles de l'opinion se résout par la réduction au silence dans l'expression puis dans les actes de la partie qui se perçoit comme minoritaire. Mais que se passe-t-il si chacune des parties continue à se penser comme majoritaire?

Il se produit alors une polarisation de l'opinion. Ce phénomène de polarisation prend son origine dans une coupure de relations entre l'individu qui appartient à un camp avec les partisans de l'autre camp. En limitant ses interactions à son propre milieu, l'individu perd sa capacité de perception de majorité en dehors du point de vue de son camp. Si la plupart des individus se trouvent dans cette situation, il en résultera une ignorance plurale ou chacune des deux parties ignorant ce que pense l'autre s'attache à son point de vue car elle le croit majoritaire. La spirale du silence ne peut plus se mettre en marche. Un résultat conflictuel n'est plus à exclure.

S'inspirant des travaux d'Osgood, Tannenbaum et Suci (1957), Elizabeth Noëlle Neumann propose de calculer un indice de polarisation qui va de 0 à 100. Cet indice se calcule comme la racine carrée de la somme des différences de perception (en pourcentages) entre les deux camps. Plus on est proche de 100 et plus la polarisation est élevée.

A partir de ces travaux, nous pouvons raisonnablement faire l'hypothèse que plus les sujets de controverse sont polarisés dans un pays, plus on court le risque de conflits entre les différentes parties de la population de ce pays. Il est possible même d'imaginer de calculer un indice global de polarisation, surtout pour les pays qui connaissent de

sérieuses divisions internes comme le Liban, afin de voir venir et de prévenir.

Il est possible aussi de concevoir que ces divisions internes sont de plus en plus exacerbées dans un pays comme le Liban par la disparition de plus en plus marquée des places publiques, c'est-à-dire de places où les gens de toutes les origines sociales peuvent se rencontrer et interagir. Alors que toutes les grandes villes mondiales disposent de lieux de rencontres publics, de places et de «squares», le Liban de l'après-guerre de 1975-2000, s'en trouve progressivement dépouillé, et la population se retrouve de plus en plus cantonnée dans des lieux de rencontre paroissiaux, susceptibles de nourrir une ignorance plurale qui ne manquera pas de se refléter en une polarisation de plus en plus aigüe.

7. Conclusion

Les sondages vont au-delà de la simple question, qui favorisez-vous, ou qu'est-ce que vous favorisez? Ils engagent des méthodologies avancées qui requièrent un échantillonnage rigoureux et des modes de projection des résultats sur l'ensemble de la population qui requièrent des appareils mathématique et statistique relativement sophistiqués. Ils s'assurent ainsi de la concordance la plus étroite possible entre leurs résultats et ceux des urnes.

Les sondages ne se limitent pas simplement à une mesure objective de l'opinion mais s'étendent aussi à l'aspect subjectif de celle-ci. Ils en démontent les processus pour produire des anticipations fiables et fournir des directives pour en influencer le cours.

Il est possible d'étendre leur usage pour évaluer les grandes tendances qui animent un champ social particulier. Il devient possible alors d'évaluer les risques d'instabilité politique et de conflits sociaux dans une société déterminée.

En somme, ils sont capables de:

- * décrire ce qui se passe aujourd'hui
- * d'anticiper ce qui aura lieu demain
- * de fournir des leviers pour agir en conséquence

Pour atteindre ces objectifs nous pouvons dériver de ce qui précède un certain nombre de conseils pratiques:

1. S'assurer que l'échantillon est représentatif, un échantillon pris dans la rue par exemple n'est pas représentatif car il donne plus de chances à ceux qui circulent à pied d'être retenus comme répondants.
2. Appliquer un vote «secret» si le nombre de non réponses, ou d'incertains va au-delà des 10%
3. Estimer la probabilité de vote effectif des répondants
4. Prendre en compte l'aspect subjectif de l'opinion en posant des questions sur la perception de la majorité et en appliquant des tests du genre test du train ou équivalents
5. Inclure des questions sur l'exposition au médias, leurs positions et de la perception majoritaire qui en découle. Par médias nous entendons à la fois les médias classiques plus connus sous le nom de mass médias, et les nouveaux médias (internet et communication mobile) connus sous le nom de médias d'accès (access media)
6. Faire une place à des questions sur les différenciations entre individus, notamment celles qui ont trait à leur mode de réaction à la Spirale du Silence
7. Ne pas hésiter à rechercher de grandes tendances pour en détecter les évolutions. Non seulement elles peuvent être révélatrices de l'avenir mais aussi indiquer des voies pour le maîtriser.

Liste des Références

- DEON, M. (1991). *Louis XIV par lui-même*, Gallimard, Folio, Paris.
- DE TOCQUEVILLE A. (1981). *De la Démocratie en Amérique*. Tomes 1 et 2, Garnier - Flammarion, Paris.
- DE VULPIAN A. (2004). *A l'écoute des Gens Ordinaires*. Dunod, Paris.
- DONSBACH W., SALMON C.T., TSFATI Y. (2014). *The Spiral of silence, new Perspectives on communication and public opinion*. New York and London.
- GLYNN C.J., HUGE M.E. (2014). *Speaking in Spirals: an Updated Meta-Analysis of the Spiral of Silence*. London.
- HOLSTI O.R., ROSENEAU J.N. (1980). *Does Where You Stand Depend on when you were born?* The Impact of generation on post-vietnam Foreign policy beliefs, public opinion, vol. 44.
- KHOURY J. (1989). *Public Opinion as an Indicator of political instability*, the Case of Lebanon. Seminar on opinion polls, Spain.
- MACHIAVELLI N. (1980). *The Prince*. New York.
- MATTHES J., HAYES A.F. (2014). *Methodological conundrums in spiral of silence research*. New York and London.
- MEAD G.H. (1934). *Mind, Self and Society from the Standpoint of a Social Behaviorist*. Chicago Press, Chicago.
- MEAD M. (1937). *Public Opinion Mechanisms among primitive people*. Public opinion quarterly, 1.
- MUCHHIELLI, R. (1979). *Opinions et Changement d'opinion*. ESF, Paris.
- NOELLE-NEUMANN E. (1994). *The Spiral of Silence, our social skin*. Chicago Press, Chicago.

- OSGOOD C.E., SUCI G.J., TANNENBAUM P. (1967). *The measurement of meaning*. Illinois Press, Illinois.
- PERRY P. (1979). *Certain Problems in Elections survey methodology*. Public opinion quarterly, vol. 43.
- ROSSLER P., SCHULZ A. (2014). *Public Opinion Expression in online environments*. New York and London.
- STOETZEL J., GIRARD A. (1973). *Les Sondages d'opinion publique*. PUF, Paris.
- TAYLOR G.D. (1980). *Procedures for evaluating trends in public opinion*. Public opinion quarterly, vol. 44.
- TODD E. (1983). *La troisième planète: Structures familiales et Systèmes idéologiques*. Seuil, Paris.
- ZEISEL H. (1979). *Catherine II, the great lawmaking and public opinion research*. Public opinion quarterly, vol. 43

المقابلة في البحث الاجتماعي

رجاء مكي (١)

ملخص

إن الهدف من المقابلة ليس التمثيل *Représentation* بقدر ما هو النقل المعرفي الموضوعي الذي وحده يمكن أن يبرز العمل ويمكن أن يسمح بقيادة ناجحة للمقابلة (للمستجوبين)؛ إذ تخضع المعطيات لقواعد المهنة والأخلاق والبحث، لذا فإن حسن التدخل/الصدق/ تحليل المحتوى يوصل إلى الأمانة العلمية. كما إن التمييز بين الكتابة الجيدة والحديث الجيد/المعنى، تدوين الملاحظات حول الوضعية، تداخل تقنيتي الملاحظة والمقابلة، ينعكس على البحث ككل أما التقييم الذاتي للباحث فهو يظهر مكانم الضعف ومكانم القوة.

مقدمة

تأخذ المقابلة بعدًا تفاعليًا وإنسانيًا واتصاليًا، تربط شخصين بعلاقة مؤقتة لكن مجهولة وتختلف عن الاستمارة؛ وهي غالبًا ما تسعى للوقوف بوجه هيمنة

(١) رجاء مكي: استاذة علم النفس الاجتماعي في معهد العلوم الاجتماعية - الفرع الأول،
rajamakki@hotmail.com

منهجية تطبيق الاستمارة في العلوم الاجتماعية خاصة على الصعيد النوعي، ولا يمكن طرح هذه التقنية إلا في إطار الاسناد الاستمولوجي .

تبدو تقنية المقابلة كتقنية الملاحظة؛ تقنية يُسمح باستخدامها في مجالات متعددة مما يقربها من صفة العمومية والشمولية وهي بمواصفات تطبيقها العلمية الحديثة بدأت تنحو نحو مزيد من الخصوصية والتخصص في الوقت ذاته .

إنها تقنية تسمح بالكلام المنفتح كما تسمح بتعددية الانظمة وبالتواصل البناء ما بين العلوم الإنسانية على أنواعها . إنها قد أصبحت حاليًا همًا بحثيًا يسعى لاستبعاد الاسئلة كليًا عن وضعية التقابل وجعل الباحث مسيطرًا في حقله المنهجي استنادًا إلى انطلاقة اشكاليته واهدافها وليس استنادًا إلى اسئلة تربطه بحلقات تمنع المبحوث من التعبير عن نفسه أو الخوف من ذلك أو جعله خاضعًا لشروط «أن يقبل به وأن يبذل جهده لإبداء آراء وتوجهات ملائمة أو تبدو ملائمة للطرف الآخر» . وهنا تدور رحى التجاذب الخفي لشروط وضعية غير حقيقية لا تشهد إلا على تهالك في قبول الآخر أو رفضه . . . مما ينفي هدف المقابلة في التعبير العميق عن الذات . من أهم ما نتمسك به حين نخوض غمار التعبير هذا هو «صخرة الموضوعية» (بمجابهة الذاتية) التي يجب الحفاظ عليها في كل خطوات التحضير والقيام بالمقابلة .

في المقابلة يُظهر ويُبدي المستجوب آراءه وتصوراتهِ ويجب ان نجعله يتكلم براحة من خلال وضعية متداخلة اذا ما قسناها فإنها بالاضافة إلى أنها تجمع بين طرفين، هي تميل بميزانها إلى جهة الباحث الذي عليه وحده تقع مسؤولية إنجاح المقابلة والسعي عبرها لإظهار اشكاليته لتحقيق أهدافه غير المعلنة وعبر فرضياته .

تؤكد المقابلة موضوعية الباحث وتسعى لتبيان معنى المواقف والممارسات والأحداث المواجهة والأنساق وتقدم تحليلًا للمواقف المأزمية والصراعية . . .

إنها تتركز على موضوع محدد أو مشكلة محددة أو علاقات تُظهر الفعل

والتعبير عن المشاعر وعن الحدث الذي سبق وتم... وتكثر في هذه التقنيات أخطاء شائعة بحاجة إلى الكثير من التصويب.

I. ما هو عدد المقابلات الممكن اجراؤها؟

وهنا ليس من همّ تمثيلي *représentatif* (كما يظهر لنا هدف الاستمارة) بينما يظهر هدفنا بشكل انبثائي يسلط الضوء على الواقع حيث نبحت! وحيث نجهد لاظهار البعد العلائقي *le relationnel* يُعلن عن أهمية احترام الاطار *le cadre* الذي يبرهن عن افكار حرة ومختلفة، كما يبرهن عن التفرد (*singularité*).

إننا نبحت فردية الحالة أكثر من تعميمها: من هنا فإن مضاعفة المقابلات لا يُغني عن الهدف المُضمر: النوعية.

يقول Anselm Strauss أن اغلبية المستجوبين يتحدثون دومًا عن الشيء نفسه وكثرة المقابلات لا تأتي بإضافات، عندها نُعلن الاكتفاء.

II. كيف نتصل بالمبحوث؟

تجدد الاشارة في هذا الصدد، أن النظرة التاريخية لتطور تقنية المقابلة يدلنا على أهمية الاسناد إلى علم النفس فيها. فعلم النفس هو الذي طوّر وضعيات التدخّل والتواصل الايجابي كما طوّر أنواعها وقدم استنادًا إلى مقولة المعطيات اللاواعية التي تتركب فيها الشخصية، طرائق واستراتيجيات لجعل عملية الاتصال الايجابي تأخذ مداها وتدخّل لاوعي المبحوث؛ هدف التوجه وليس الكلام المسطح السريع الذي يمكن أن تكون له دلالة بدوره لكن يمكن في الوقت عينه أن يأخذ طابعًا تمويهيًا لردات فعل أكثر عمقًا يجب رصدها وترميزها والتفتيش عن دلالتها فتتوحد لاحقًا تقنية المقابلة بتقنية تحليل المضمون.

نتصل بالشخص الذي يمكن ونظن أنه يجسد وضعية البحث ونعقد بأنه

سيكون «المخبر الجيد» عن حالته . على أن نعمل بموضوعية من خلال
الوضعية، وبعد أن نحدد موعدًا أوليًا معه في مكان هادئ وآمن (نفسياً) بحيث
يرتاح «للحديث عن . . .»

ويفضل استخدام كلمة «دراسة» étude وليس تحقيق «enquête»، ويمكن
لتطمينه شرح بعض نقاط البحث دون الكشف عنها كلها . (خاصة = الفرضيات
والاشكالية والاهداف).

أما وضعية المقابلة $A \rightarrow B$ فهي تحقّق تجسيدا للوضع الاجتماعي . . .

ولإدارة الوضعية يجب الأخذ بعين الاعتبار الأمور التالية:

- عدم الحكم على الأجوبة (جيدة - حسنة الخ . . .)
- عدم الانزلاق في مقابلة صحافية .
- عدم تبادل وجهات النظر .
- عدم إطلاق الأحكام .

III. في اطار تجميع المعطيات

يمكن أن نعيد رصد تقنيات أربعة أساسية:

- ١ . المقابلات .
- ٢ . الاستمارة .
- ٣ . تحليل محتوى المعطيات .
- ٤ . الملاحظة المباشرة .

وتبدو المقابلة طريقة **مكلفة** لجمع المعطيات لأنها بحاجة إلى تحضير في
مرحلة ما بعد ومرحلة ما قبل .

i. المقابلة نصف - الموجهة

تنوع المقابلة بأشكالها وبأهدافها وبمبادئها، فيمكن أن تكون استكشافية exploratoire تعتمد على الإنصات: (استكشاف الميدان مما يساعد على بناء دليل لها... ومن خلال التقابل مع اشخاص لهم علاقة بالمصدر المراد درسه مباشر).

أ. أشكال وأنواع المقابلة

تأخذ المقابلة أنواعًا مختلفة (نشير إلى أهمية تحديد النوع لأنه على أساسه يبنى البعد النوعي أو الكمي أو أيضًا توجه وهدف الباحث خاصة في البعد اللاواعي منه).

* **المقابلة المباشرة:** وهي بمثابة استمارة شفوية، محدودة التعبير وتشبه الاستطلاع، تحدّد الاطار وحرية الكلام فيها مقيدة.

* **المقابلة الحرة:** وفيها نجعل المبحوث يتكلم عن تجربته بحرية واسعة دون إيقافه، الاطار غير محدود، الحرية شبه مطلقة في الكلام، إلا أن القول بوجود المقابل هو بحد ذاته تقييد.

* **المقابلة نصف - الموجهة:** وهي ليست مقابلة حرة كليًا ويقع العبء فيها على كاهل الباحث لضبط الوضعية وللوصول إلى أهدافه وجعل المبحوث يتكلم: حرية في الكلام داخل اطار مقيد نسبيًا.

* **المقابلة الجماعية:** وهي مقابلة تعتمد على دينامية الجماعة الموجودة داخلها، ويجب أن يديرها الباحث الذي يحتاج ربما إلى أشخاص آخرين (شخص أو اثنين فقط لتسجيل المعطيات ولتسجيل العملية الدينامية للجماعة الخ...) وهي غالبًا ما يتداخل فيها الذاتي (لكل فرد) بوضعية المجموعة. وهذا ما قامت به «Odile Carré» لدى دراستها للقصة (conte) لدى مجموعات مهاجرة رصدت من خلال هذا التقابل الهوية الجماعية وقضايا الانتماء والاستبعاد والعنصرية وقلق الاغتراب... وهذا يمكن أن يتم من خلال عدة جلسات.

نلفت أخيراً أن السائد في تطبيق المنهج في بلادنا أن نقوم بمقابلة واحدة تختصر التجربة اليومية الذاتية وهذا ما هو غير صحيح، لذا يجب التكرار (من مرتين إلى ثلاث مرات) في المقابلة بالاضافة إلى تحديد الوقت اللازم وهذا ما سنعرضه لاحقاً .

ب. ميادين استخدامها وكيفية جمع المعلومات .

تستخدم المقابلة كإستكمال وكإستلحاق لجمع معطيات كمية ونوعية في اطار منهج معين ترفق بتقنيات أخرى ولكنها لا تدمج معها .

- للمقابلة مزايا حصرية تساعدنا في جمع المعطيات بطريقة موسعة .
- تبقى المقابلة هي الطريقة المعرفية الأساسية لجمع المعلومات .
- هي إتصال شخصي مباشر وليست محادثة بل هي انصات فعّال .
- هي مرتبطة بانطلاقة الباحث المنهجية وبأهدافه وبإشكاليته وبفرضياته، فلا مقابلة ولا دليل مقابلة ولا أسئلة قبل تحديد ذلك مسبقاً .
- هي تقنية تعتمد على فعل وردات فعل المستجوبّ ويجب إعتبار كل ما يصدر عنه بمثابة كنز من المعلومات نعيد توظيفها في إطار سعي حثيث لرصد المستويات الباطنية ذات الدلالة البالغة في سلوكه . وهذا ما يجب أن يطبق على كافة أنواع وميادين البحث في العلوم الإنسانية .

ج . خصائص ومميزات المقابلة نصف - الموجهة .

للمقابلة دور ليس فقط في تجميع المعلومات بل لتجميع المؤشرات التي نتحقق من خلالها لفرضياتنا، لا بل وفي أحيان كثيرة تساعدنا في صياغة هذه الفرضيات، استناداً إلى الأهداف الموضوعية التي نحددها ونثبتها مسبقاً .

- تسمح بتحضير تصاعدي (من خلال دليل المقابلة) وتمنح الكثير من الحرية في الكلام .
- هي تقنية لا تتطلب إلا القليل من المعدّات وسهلة الوصول لكن التواصل فيها يحتاج إلى إبداع واتقان .

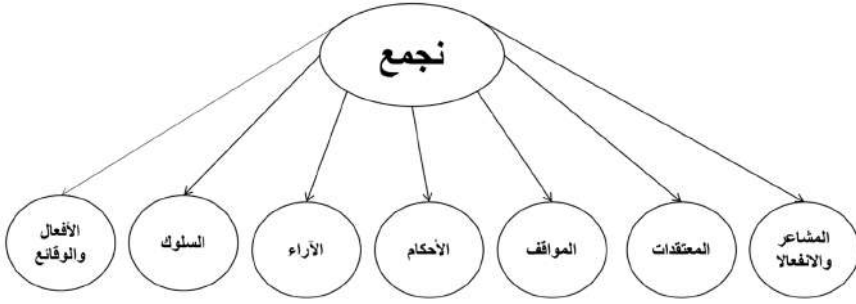
- تحتاج بالمقابل إلى انتباه شديد للأفكار المصممة مسبقًا والمحضرة كي تصبح جاهزة للقول (يجب تفكيك صورة «الجواب الجيد» من قبل المستجوب).
- لا تنجح المقابلة الموجهة ما لم يحدد هدفها.
- يمكن القول أن المقابلة نصف - الموجهة هي «تقنية نضالية» تسعى لحفر «المعنى» (المُعاش - نظام القيم - سَلَم المعايير - المواقف الصراعية). كما أنها تساعد في تحديد دائرة الصراع أو المشكل أو «العلائقية» أو الحضور الأسري الخ... .
- إنها إنباء وإعادة إنباء لمسار فعلٍ أو تعبير أو لحادث مضى.

ii. كيف نحضّر مقابلتنا

قبل القيام بالمقابلة فعليًا، علينا أولاً التحضير لبعض الخطوات العملائية للتخفيف قدر الامكان من الصعوبات التي تواجه الباحث وتؤثر على المبحوث خلال وقت المقابلة. منها:

أ. خيار العينة.

- * هو خيار ليس بالصدفة/ عشوائيًا.
- * هي إنباء مسيرة مرتبطة ببحث محدد ومدروس.
- * لا يجب أن نؤخذ بسهولة التقارب الأولي مع المبحوث.
- ب. الحث على القيام بها وإجراء اللازم للوصول إلى العينة.
- * أهمية ارتباطها بالبحث مباشرة.
- * شرح مسار المقابلة.
- * شرح أهمية خيار المُستجوب: سبب اختياره.
- * التحضير الجيد يجنّب الكثير من المزالق ويدخلنا في تحديد الإطار ما بين المستجوب والمستجوب.



ترسيمة رقم ١

ج. شروط المقابلة

تتراوح شروط المقابلة ما بين المكان والمدة والزمان:

* المكان: لا توجد قواعد محددة ولكن هناك مواصفات أساسية

- إرتياح المبحوث.
- الحديث الحر.
- ايجاد المكان المناسب والهادئ. (مثلاً: تجنّب اختيار مكتب يدقّ هاتفه باستمرار).

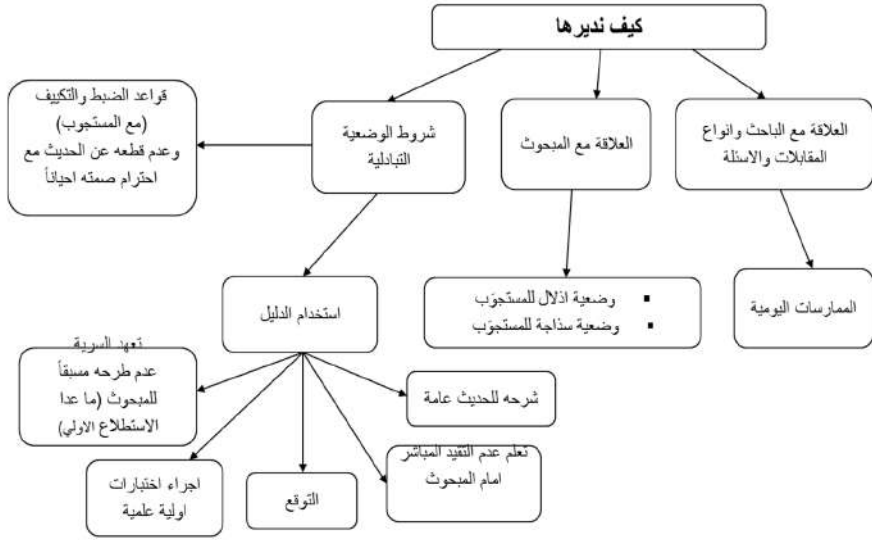
* المدة: نسبية وترتبط بالمبحوث والباحث على حد سواء، ولإدارة الوقت هنا أهمية تؤثر على مسار المقابلة ونجاحها (ساعة ونصف/ ساعتان).

* الزمان: يجب أخذ الموعد والتذكير به لتفادي النسيان.

د. كيف ندير المقابلة

كي نفهم ونصنف ونقيس ونستشرف ونتحقق، يجب أن نحسن إدارة المقابلة:

هنا نطرح رسمًا بيانيًا يفسر أهمية الإدارة التي هي تقاطع علائقي ما بين الأشخاص والمواضيع.



ترسيمة رقم ٢

ونلفت النظر أنه واستناداً إلى Rogers، هناك ما يسمى إعادة الصياغة reformulation بهدف التوضيح والدقة والتعلم أو إراحة المبحوث... (ماكيفللي - روجرز ص ٥٣). «لقد قُلت أنك...» أو «يمكن القول...» أو «برأيك أنه...» وهي تدخلات يمكن ألا تُعجب المبحوث أحياناً (انظر فقرة المداخلات). وبرأينا فهي لا يجب أن تحدث إلا إذا كُنّا على معرفة وإمام بشخصية المبحوث ومدى قبوله لتدخل أو لإعادة صياغة الفكرة.

من هنا فإن التوجه الحديث لصياغة دليل للمقابلة، يمكن أن يحلّ هذا الأمر بطرح عدد كبير من المواقف والأسئلة والمؤشرات تساعد المبحوث في إجاباته.

د. وضع دليل المقابلة.

جواباً على سؤال أساسي: هل الدليل ضروري؟

نعم لأنه يطمئن المبحوث ويساعدنا في تأكيد الإشكالية ويسمح بالمقارنات النسقية إلا أن محاذيره تكمن في تحويله إلى استجواب. لهذا يجب تحضير دليل ذهني مدروس.

* ما هو دليل المقابلة؟

هو ليس لائحة أسئلة ولكنه أداة نتعلمها ونستخدمها ونطوعها ونكيفها تبعاً لأهدافنا البحثية.

يتألف الدليل من كافة الافكار التي يمكن لنا أن نطرحها؛ لكنها تقسم إلى محاور ونقاط أساسية وفرعية استناداً إلى أفكار وسعي مربوط بالإشكالية (grappe de raisin). ويجب الدليل على سعي حقيقي لوضع ولتجسيد الدراسة ومسيرتها.

ولكل فكرة أساسية أفكار ثانوية يمكن طرحها إما:

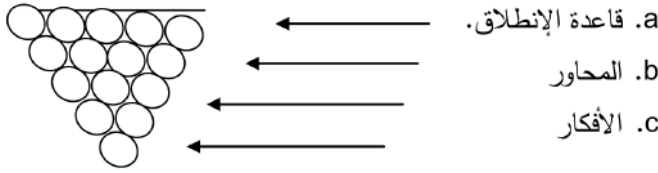
- بنقاط مركزة، هدف معرفي محدد، موضوعية الأفكار المطروحة.
- بأسئلة مفتوحة.

وذلك لا يمكن أن يتم بدون سعي حثيث للانصات وللتعاطف وللتفهم وللدقة.

* ماذا يحتوي دليل المقابلة؟

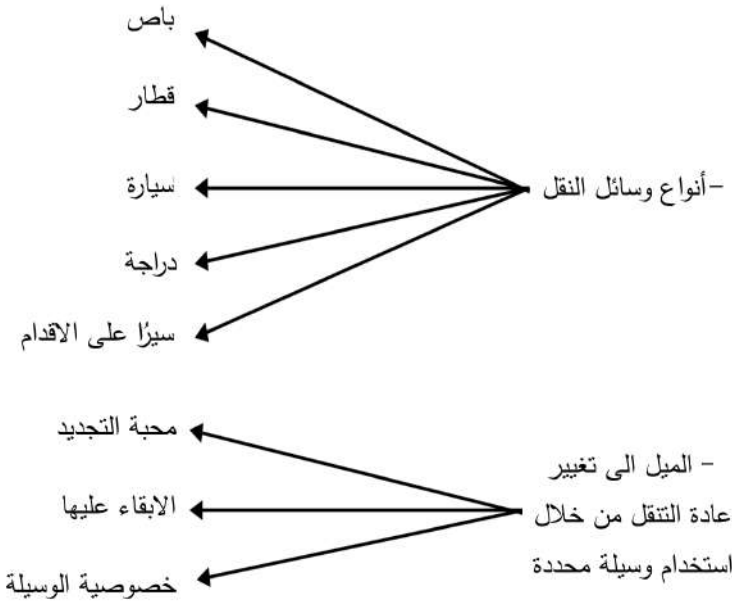
يحتوي الدليل بالضرورة على محور أول يمكن أن يطرح أسئلة محددة لأنه بمثابة بطاقة شخصية (العمر - المستوى التعليمي - السكن - وكل ما يخدم إنطلاقة أو فرضيات البحث من حيث المعلومات الديموغرافية أو غيرها التي تتعلق بالشخص المبحوث من حيث وصف الحالة الاجتماعية أو الاقتصادية المحددة له استناداً إلى أطر البحث النافعة).

أما في المرحلة الثانية فإن المحاور التي تجيب أو تؤخذ من خلال الفرضيات هي التي تقسم الدليل ويمكن أن تصل إلى أكثر من ثلاثة أو أربعة محاور تبعاً للحاجة. على أن يحتوي كل محور بداخله على أفكار أو جمل (وأسئلة يُستعاض عنها بجمل أو بأفكار) تحتوي بدورها على مؤشرات تكون فيها الإجابة ذات دلالة. ويكون كل محور في الدليل بمثابة عنقود عنب:

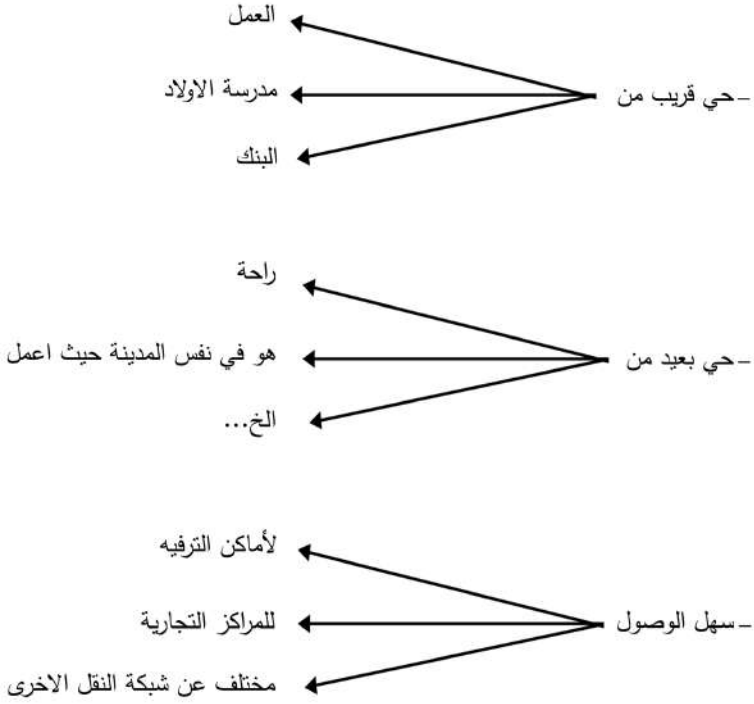


لنأخذ على سبيل المثال، بحثاً أولياً مبسطاً عن وسائل التنقل، فبعد أن نكوّن المحور الأول: المعلومات العامة أو البطاقة الشخصية، فإننا يمكن أن نطرح أربعة محاور أخرى كالتالي: (تكون بمثابة توقعات كلامية نطرحها ويمكن للمستجوب أن يطرح غيرها دون أن نسأله: كيف - متى - هل - لماذا...).

المحور الثاني: وسائل النقل



المحور الثالث: مكان السكن



غالبًا ما نحول جمع المعطيات تحت ثلاثة أنواع من المحاور أو أكثر. .
وبطرحها يسهل الترميز codage الكمي والنوعي (يتأزران مع بعضهما البعض).
لنأخذ مثالًا آخرًا عن موقف اجتماعي محدد:

جدول رقم ١

المحور	التعابير والافكار	متابعة/ توقعات المؤشرات
١. التنسيق مع المؤسسات الاجتماعية	- نسقت بشكلٍ خاص . - أخذ ذلك مني الوقت الكثير . - كان تنسيقًا مكلفًا . .	التفاعل الجهد الكلفة الواجب الحياة اليومية
٢. الصراع مع قوى النفوذ	- جوبهت في هذا المشروع . - سبق وقاومت . - اقبل السلطة . - قمت بتنظيم معارضة مع فئات أخرى .	الرباط الواجب فهم الواقع
٣. تضارب المصالح	- تنازلت امام الضغوطات . - فشلت في النصف الثاني من المشروع . - غيرت اهدافي .	حل المشاكل استخراج المواقف التأقلم مع المحيط
٤. الاختلاف الثقافي	- الخوف من الآخر . - الاستبعاد . - التألف والقبول .	ادراك المحيط الهوية حلول المواجهة

يمكن أيضًا طرح أفكار للمحاور تتعلق بالاسناد الاجتماعي والتأقلم في مواضيع محددة .

نذكر على سبيل المثال: الانتماء والجماعة وأواليات التطبيع normalisation؛ وهي محاور تشهد تنفيذًا لفعل التثليث triangulation للافكار وللمؤشرات التي تحملها .

هذا ويمكن أن نجري عدة مقابلات في الموضوع عينه مع فئات مختلفة

غير تلك الخاصة بالعيينة لرصد الواقع المحيط ولدعم فرضيات الانطلاق
والمكان، كما يجب تحديد الوقت والزمان . مثلاً :

جدول رقم ٢

المدة	المكان	الزمان	المقابلات	
ساعتان/ ساعة ونصف (معدل وسطي) مقابلات (مكتوبة)	في المدارس: ١ - ٢ -	ما بين ٥ آب ١٠ أيلول ٢٠٠٥	١١ مقابلة مع: مدراء اساسيين في مؤسسة تربوية	عيينة أساسية
ساعتان مقابلات (مكتوبة)	الوزارة عنوان:	١١ حزيران ١٠ تموز ٢٠٠٦	مقابلتان مع مسؤولين في مكتب التنسيق التربوي	عينات مساعدة
ساعة ونصف مقابلات (مكتوبة)	مكتب الخدمة عنوان:	١ نيسان ٢٠٠٦ ١٠ نيسان ٢٠٠٦	مقابلات مع مسؤولي الخدمة الاجتماعية	

هذا ويمكن الاستعانة برسائل اعتماد من أشخاص موثوق بهم لتسهيل
مهمة التقابل ولاضفاء الثقة مع المبحوث وليس القرصنة .

* المداخلات

استناداً إلى Rogers يمكن للمداخلات أن تكون إما توضيحية وإما إعادة
صياغة يقبل بها المبحوث .

وتكون إعادة الصياغة :

- لاستخراج «Non-dit» الذي لم يقال .
- للتعلم .

- للتهدئة .

- للدقة .

- للتوضيح .

- للدفع إلى الأمام .

ضمن الاستعمالات التالية: «كنت تود القول...»، «بعبارات أخرى...»، «برأيك...».

من هنا أهمية وضوح المداخلة (لغة واضحة - جمل غير طويلة) ومعرفة وتحضير الموضوع مسبقاً .

* انواع المداخلات

يمكن أن نطرح فيما يلي نقاطاً متنوعة تطلعنا على أنواع المداخلات منها:

- تعزيز الحديث لدى المبحوث عبر عدة تقنيات تدخل .

- أهمية ترتيب المعطيات .

- أهمية إدخال فكرة جديدة .

- أهمية إحياء الأفكار وترتيب المعطيات .

- أهمية التنظيم وكيفية كسر الجليد مع عالم المبحوث .

- إحياء العلاقات والبدء بالتشجيع

وتكثر الدراسات الحالية حول التحولات المجتمعية، وهي تحولات مقلقة، تزداد معها الوضعيات المرضية .

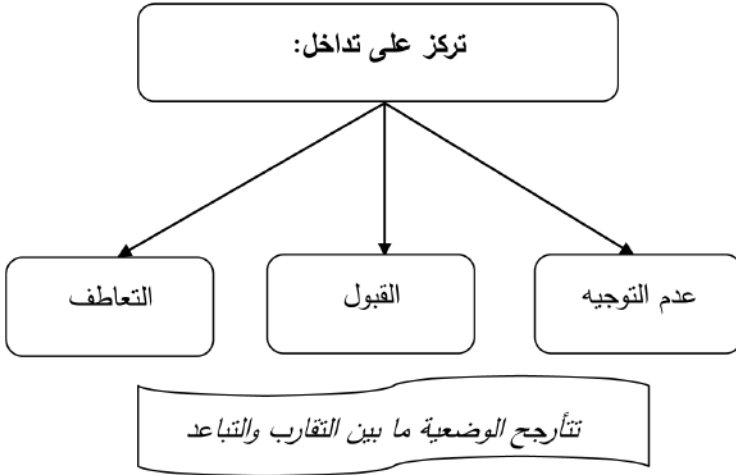
* كيفية التسجيل

يجب أن يؤقلم الباحث سلوكه استناداً لوضعيات المبحوثين؛ إنها قيادة للوضعيات ولردود الفعل ولمعرفة استخدامها لاحقاً كي تكون فعلاً أداة بحثية نستخرج معطياتها .

لهذا يمكن للباحث التسجيل عبر الكتابة أو التسجيل الصوتي مع احترام الخصوصية والسرية وأمانة القول والتسجيل.

* العلاقة مع المبحوث

نستطيع أن نصف العلاقة مع المبحوث بالسهل الممتنع إذ أنها دون ركائزها تستطيع أن تؤثر على المبحوث وعلى مسار المقابلة بشكل عام وهي:



ترسيمة رقم ٤

إذا هي بحاجة لأن تكون علاقة مبنية على رسم الحدود بين الباحث والمبحوث بغية الوصول إلى نتائج أكثر دقة وأقل تأثراً.

* كيفية استغلال المعلومات

تنظيم المقابلات (من خلال التساؤل عمّا نود الحصول عليه) وإعادة نسخها من خلال:

- المعلومات العامة الالفقية .
- العبارات ووجهات النظر والشروحات .
- المعلومات العامودية (من هو المبحوث؟)

ننّيه إلى أن إعادة صياغة المعلومات تخضع لهوام المبحوث، لذا فيجب توخي الأمانة المطلقة وإتباع خصائص النقل المحايد وعدم تحريف الاقتباسات (من المقابلة).

إن إعادة كتابة المقابلة هي فخ المقابلة، لذا فإن الحيادية والموضوعية والنقد الذاتي هم أدوات الباحث.

الخلاصة

لكل علم تقنياته... تخضع المعطيات لقواعد المهنة والاخلاق والبحث، لذا فإن حسن التدخل/الصدق (تصنيف - الفكرة)/ تحليل المحتوى (من حيث تحليل الفكرة ودقة المعطيات والصدق) يوصل إلى الامانة العلمية. كما تخضع أيضاً لواقع علمي عصري، هو واقع اجتياح الرابط الاجتماعي Le Lien Social (فالرابط هو رابط سيكولوجي ببعده اجتماعي) لأبعاد القلق والرغبة على السواء؛ مما يسمح القول بأن الوضعية هي وضعية عيادية بامتياز.

ماذا عن صلاحيات المعطيات النوعية؟

إن التمييز بين الكتابة الجيدة والحديث الجيد/المعنى، بالإضافة إلى تدوين الملاحظات حول الوضعية، تداخل تقنيتي الملاحظة والمقابلة (الصوت / النبيرة / التصرفات / الضحك / الحزن / التمتع)؛ ينعكس على البحث ككل، أما التقييم الذاتي للباحث فهو يظهر مكامن الضعف ومكامن القوة.

أخيراً، إن الهدف من المقابلة ليس التمثيل Représentation (من ناحية العينة - جمع المعطيات - عدد المقابلات...) بقدر ما هو النقل المعرفي الموضوعي الذي وحده يمكن أن يبرر العمل ويمكن ان يسمح بقيادة ناجحة للمقابلة (للمستجوبين).

والجدير بالذكر، أنّ معالجة المعطيات لا تكون فقط عبر النوع، إنما أيضاً عبر الكم وجدولة الأفكار التي أفصح عنها المبحوث.

المراجع

- BLANCHET A. (1997). *L'entretien dans les sciences sociales: L'écoute, la parole et le sens*. Paris.
- BLANCHET A., GOTMAN A. (2005). *L'enquête et ses méthodes: l'entretien*. Armand Colin, Paris.
- LEFEVRE N. (2012). *Méthodes et Techniques d'enquête*. Master 1, France.
- MUCHIELLI R. (1998). *L'entretien de face à face dans la relation d'aide*. ESF, Paris.
- Population. (2006). Vol 61.

تقنية الاستمارة (الاستبيان) في البحث الاجتماعي

Le questionnaire

علي مرتضى الموسوي^(١)

«إن الاستجواب ليس سهلاً بقدر ما نعتقد. إنه فن الأساتذة أكثر من الطلاب؛ يجب تعلّم الكثير من الأمور كي يعرف المرء أن يسأل عما لا يعرف»
(Rousseau)

ملخص

التقنيات متنوّعة في العلوم الاجتماعية، وهي لا تقتصر على تقنيات جمع المعطيات (الملاحظة، المقابلة، التوثيق والاستمارة) بل هناك تقنيات لإختيار المجموعة السكّانية المستهدفة بالدراسة (المسح أو العينة) وتقنيات لتحليل المعطيات التي يتمّ جمعها (تحليل كمي: جداول إحصائية، رسوم بيانية الخ، وتحليل نوعي: تحليل المضمون).

تنطلق هذه المداخلة من مسلّمة أن البحث الاجتماعي يبدأ بفكرة لا بالتقنية، وينتهي بالفكرة لا بالتقنية. ومن فكرة أنّ التقنيات ما هي إلا أدوات في خدمة موضوع البحث.

(١) أستاذ متقاعد في معهد العلوم الاجتماعية، رئيس الجمعية اللبنانية لعلم الاجتماع
aamouss@hotmail.com

يستسهل الكثيرون من المشتغلين بعلم الاجتماع، وخصوصًا الطلاب، عند إختيار تقنية للبحث، استخدام تقنية الإستثمار إنطلاقًا من أنها الأسهل من بين التقنيّات في العلوم الاجتماعية؛ هذا الإعتقاد بسهولة بناء الإستثمار يرتبط بفهم غير صحيح لها؛ فهي ليست مجموعة من الأسئلة التي تُصاغ بخفّة وتسرع في جلسة في مقهى أو في صف، طالت أو قصرت، لمجرد أن إختارنا موضوعًا ما للبحث. هذا «تعدُّ» على الإستثمار ناتج عن عدم فهم لما تتطلبه صياغتها. إلى هذا الموقف يُضاف موقف أولئك الذين ينظرون إلى الإستثمار، وإلى ما ينتج عنها، نظرة دونيّة؛ على الرغم من الإعتبارات الإستمولوجيّة لدى البعض، هناك من يمتطي هذه المبررات ليخفي جهلاً بأدنى مقومات هذه التقنية، إختيارًا، بناء، تنفيذًا، وتحليلًا ونتائج.

هذه المداخلة تلقي الضؤ على تقنية الإستثمار وعلى أنماطها، وخصوصًا على أهمية بنائها، الذي يرتبط بوضوح الأهداف والفرضيّات؛ ومن دون هذا الوضوح سيكون البناء رخوًا، والنتائج هزيلة، وهو ما يُساهم في النظرة السلبيّة إلى هذه التقنية. كذلك ستتمّ الإضاءة على صياغة أسئلة الإستثمار والشروط التي تتطلبها، والمحاذير التي يجب تجنبها؛ وأخيرًا التأكيد على أن الإستثمار، كما كل التقنيات الأخرى، لها حدود في إدراك حقيقة الظاهرة الاجتماعية.

مقدمة

كما لكل علم موضوعه ونظرياته ومناهجه وتقنياته، ينطبق الأمر نفسه على العلوم الاجتماعية. إلا أنّ بعض الإلتباسات ترافق النظرة إلى التقنيات في العلوم الاجتماعية.

أولاً: تقنيات العلوم الاجتماعية: إلتباسات وتوضيحات

١. حول أنماط التقنيات في العلوم الاجتماعية

عندما يُسأل عن التقنيات في العلوم الاجتماعية، غالبًا ما يتبادر إلى الذهن جوابٌ أحادي الجانب يختصرها بنمط واحد من التقنيات، عنيت تقنيات جمع المعلومات؛ في الحقيقة هذه الأخيرة ما هي إلا نمط من أنماط التقنيات في العلوم الاجتماعية، والتي يمكن تصنيفها على الشكل الآتي:

أ. تقنيات جمع المعطيات:

ويتمّ التمييز فيها بين تقنيات جمع المعطيات والمعلومات المباشر مع المستجوب (المقابلة والإستمارة)، وتقنيات جمع المعطيات من دون إستجواب مباشر (الملاحظة المباشرة، الوثائق).

(١) الملاحظة المباشرة، (obsevation directe)

(٢) المقابلة (الإستبار)، L'entretien- L'interview

(٣) الإستمارة (الإستبيان)، Le questionnaire

(٤) الوثائق Les documents

ب. تقنيات إختيار المجموعة السكانية المستهدفة بالدراسة:

هناك تقنيتان لإختيار المجموعة السكانية المستهدفة بالدراسة: إمّا من خلال المسح (Recensement) أو من خلال بناء عينة (Echantillon, Sample).

وللعينات بدورها أنماط متعدّدة، ومنها:

(١) العينات الإحتمالية: السحب بالقرعة، العينة الطبقية، العينة العنقودية، العينة على درجات متعددة

(٢) العينات غير الإحتمالية: العينة العمدية (a choix raisonne) والعينة بالحصص (par Quotas)، عينة كرة الثلج (Boule- de-neige)

ج. تقنيات تحليل المعطيات:

نوعان من التقنيات في هذا المجال:

(١) تقنيات التحليل الكمي (الجداول الإحصائية، الرسوم البيانية...)

(٢) تقنيات التحليل النوعي (تحليل المضمون، تحليل الخطاب...)

إذن عندما يُقال تقنيات في العلوم الاجتماعية يجب أن يتبادر إلى الذهن كل هذه التقنيات، وليس نمطًا محددًا واحدًا منها.

٢. حول موقع التقنيات في البحث الاجتماعي

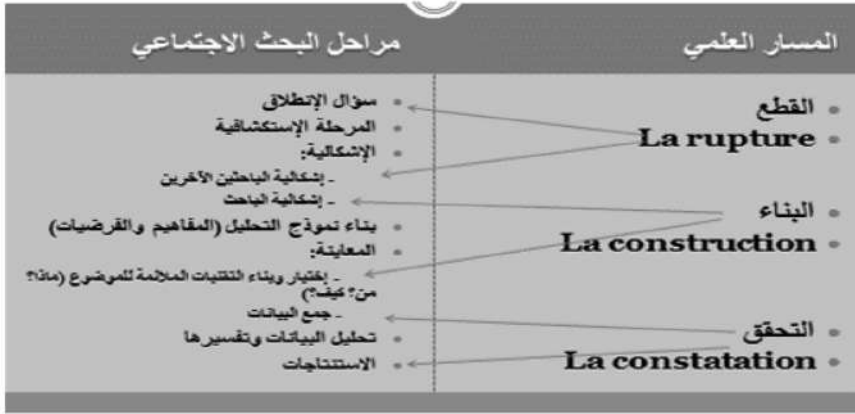
يُلفت إهتمام البعض، وخصوصًا من الطلاب، عند البدء بالبحث الاجتماعي اللجوء فورًا إلى تحضير إستمارة لجمع المعلومات، وهذا مؤشّر على تشوّش لدى أصحاب تلك المحاولات وفهم غير صحيح لموقع الإستمارة في البحث الاجتماعي.

بهذه المحاولة يُختزل البحث الاجتماعي إلى مجرد إستخدام لهذه التقنية أو تلك؛ متناسين أن البحث الاجتماعي يبدأ بفكرة وينتهي بفكرة.

ثانيًا: موقع التقنيات في مراحل البحث الاجتماعي

يشتمل الرسم البياني رقم ١ على المسار العلمي وعلى مراحل البحث وعلى ترابطهما. فالمسار يتكوّن من ثلاث عمليّات مترابطة مع المراحل السبع^(١). وهو مسار علمي يُستخدم في العلوم الاجتماعية كما في العلوم الطبيعية، وكل عملية من عمليّات المسار تُمارس ضمن مراحل معيّنة. فكل بحث يبدأ بعملية القطع، ثم البناء وأخيرًا التحقق.

(١) تتعدّد مراحل البحث ويقصرها البعض على أربع مراحل (كابلوف) وبعض آخر على ١٢ مرحلة (العديد من المؤلفات العربية)، أو سبع مراحل (كفي وكمبنهود) ولكنها لا تختلف لجهة التسلسل المنطقي للبحث بقدر ما تختلف لجهة ضبط المراحل أو التوسع في تفصيل بعضها؛ تم إعتقاد تقسيم كفي وكمبنهود للمراحل في هذه المحاضرة.



رسم بياني رقم ١: المصدر: كفي وكمينهود، دليل الباحث الاجتماعي، ١٩٩٧ (بتصرف)

تستخدم التقنيات، في هذا المسار العلمي للبحث ومراحله، في مواقع محددة؛ ففي مرحلة القطع والتي يُمارسها الباحث في سؤال الإنطلاق، والمرحلة الإستكشافية، وفي الفترة الأولى من الإشكالية؛ تُستخدم التقنيات في المرحلة الإستكشافية، والتي يُمارس فيها الباحث المقابلات الإستكشافية، والقراءات (الوثائق على أنواعها)، والملاحظات الأولية. بينما لا تُستخدم أي تقنيات في الإشكالية سواء في فترتها الأولى المرتبطة بعملية القطع أم في الفترة الثانية المرتبطة بعملية البناء.

في عملية البناء، التي تُمارس في الفترة الثانية من الإشكالية، أي حين يطرح الباحث إشكالية بحثه الخاصة، وفي بناء نموذج التحليل، وفي الفترة الأولى من المعانية؛ يستخدم الباحث في هذه العملية التقنيات في مرحلة المعانية حيث يتم إختيار وبناء التقنيات الملائمة للموضوع؛ كما يتم فيها إختيار المجموعة السكانية المستهدفة بالدراسة (مسح شامل أو عينة) وكذلك تقنيات جمع المعطيات (المقابلة شبه الموجهة أو الموجهة، الإستمارة، الملاحظة المباشرة، الخ). أما المرحلتان السابقتان في هذه العملية، أي الفترة الأولى من الإشكالية، وبناء نموذج التحليل فهما عمليتان نظريتان لا مجال لإستخدام التقنيات فيهما.

وفي العملية الثالثة، أي التحقق، تُستخدم تقنيات جمع المعطيات على أنواعها، أو واحدة منها، حسب متطلبات الموضوع، كما تُستخدم في المرحلة السادسة تقنيات التحليل الكمي والنوعي.

الخلاصة الأساسية في هذا المجال أن البحث الاجتماعي لا يبدأ بالتقنيات ولا ينتهي بها، وأن التقنية هي وسيلة في خدمة البحث، وبعد إختيار الباحث موضوعاً للدراسة، يختار التقنية أو التقنيات الأكثر ملاءمة لموضوعه.

حدود التقنيات الاجتماعية في إدراك حقيقة الظاهرة

لكل تقنية من تقنيات البحث الاجتماعي حدود في إدراك الظاهرة الاجتماعية. فالظاهرة الاجتماعية تُبنى، كذلك التقنيات المُستخدمة هي أيضاً تُبنى من قبل الباحث. وعلى الرغم من تطور مناهج العلوم الاجتماعية وتقنياتها إلا أنها ما زالت قاصرة عن إدراك الموضوعية الكاملة، ولم تتوصل بعد إلى درجة القياس الدقيق للمواقف والحصول على نتائج ذات مصداقية عالية بالمقارنة مع ما توصلت إليه العلوم الطبيعية. فطالما ان التقنيات تُبنى من قبل الباحث فهي عرضة للخطأ من مصادر متعددة.

ثالثاً: الإستمارة (الاستبيان)

قبل معالجة الاستمارة، تجدر الإشارة إلى بعض التوضيحات:

توضيح أول: مغالاة في الموقف من استخدام الاستمارة في البحث الاجتماعي

يُتسم الموقف من استخدام الإستمارة كتقنية في العلوم الاجتماعية بالمغالاة في إتجاهين:

إتجاه أوّل ينظر نظرة دونية للأبحاث الكميّة عموماً، وللإستمارة كتقنية أساسية تركز إليها تلك الأبحاث. وهو موقف عدا تبريراته الإستمولوجية ناتج

لدى البعض، وفي أحيانٍ كثيرة، عن جهل وعدم إتقان و تمكن من بناء الإستمارة والإستفادة من معطياتها.

اتجاه ثانٍ: يكمن في النظر إلى الإستمارة وكأنّها تعبير وحيد عن علمية علم الإجتماع كونها تركز إلى لغة الأرقام وإلى علم الإحصاء كأحد العلوم الدقيقة.

إن اختيار الاستمارة أو غيرها من التقنيات، أو أكثر من تقنية في البحث الاجتماعي، ليس مسألة مزاجية بل هو يرتبط بطبيعة الموضوع؛ فالتقنيات ما هي إلا أدوات في خدمة هذا الأخير، فإن كانت هذه التقنية و / أو تلك هي الأكثر ملاءمة مع الموضوع فما على الباحث إلا أن يستجيب . . . لذلك فالموقف من التقنيات عمومًا، ومن الإستمارة تحديدًا، لا يحدده مزاج الباحث، ولا هي مسألة إعتبار وتقدير لهذه التقنية أو تلك، بل موقف الباحث تحكمه طبيعة الموضوع. لذلك المسألة ليست مسألة مؤيد للإستمارة من دون تحفظ، أو رافض لإستخدامها من دون تحفظ «فالتحقيق بالإستمارة ليس بداية ولا نهاية علم الإجتماع، ولكنه . . . أحد الممرات الإلزامية لكل ممارس في العلوم الاجتماعية يهتم ولو قليلًا بالبحث الأمبيريقى (التجريبي)» (Javeau,1992).

توضيح ثانٍ: وهم السهولة في صياغة الإستمارة

بخلاف بعض الأفكار وبعض الممارسات الشائعة، وخصوصًا لدى الطلاب، حيث يستسهلون اللجوء إلى تفضيل الإستمارة، بغض النظر عن موضوع البحث، إعتقادًا منهم أن هذه التقنية سهلة في بنائها وإستخدامها، يمكن القول أن صياغة الإستمارة هي عمل يتطلّب الكثير من الصبر والاهتمام والكفاءة المهنيّة.

والصياغة النهائيّة للإستمارة تتطلّب الكثير من الوقت ولا تقتصر على مسألة حشوها ببعض الوصفات الجاهزة. ويُنصح جميع مستشهلي صياغة

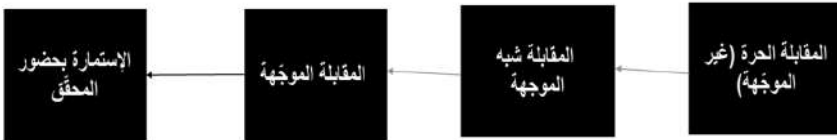
إستمارة بحث ما، خلال قضاء ساعات قليلة في زاوية ما، بالإقلاع عن هذه الفكرة.

١ - تعريف الاستمارة

هي وسيلة لجمع المعطيات والمعلومات عن موضوع محدد، وهي وسيلة تواصل أساسي ما بين المحقق والمستجوب. وهي تشتمل على سلسلة من الأسئلة المقتنة بإحكام، سواء في نصّها أم في ترتيبها، حول موضوع البحث؛ أسئلة تقتضي من المحقق أن يطرحها بالصياغة نفسها، دون زيادة أو نقصان، على الأشخاص المعنيين وينتظر منهم الحصول على إجابات عنها.

مشاركة المستجوبين في الرد على أسئلة الإستمارة إرادية، وإجاباتهم مشمولة بالسّر المهني؛ ويهدف الإستجواب الفردي عبر الإستمارة إلى التعميم.

إنطلاقاً من معياري تصنيف نماذج المقابلة (أخذاً في الإعتبار أن الإستمارة في أحد أنماطها تصبح كالمقابلة لجهة حضور المحقق)، أي درجة الحرية المتروكة للمستجوب في الإجابة وللباحث في طرح الأسئلة والتدخل من جهة، ودرجة عمق المعلومات المطلوبة من جهة أخرى، تقع الإستمارة التي يُديرها المحقق في الطرف الأقصى المواجه للمقابلة الحرة (غير الموجهة).



رسم بياني رقم ٢ : يظهر موقع الإستمارة بحضور المحقق حيث هي الشكل الأقصى المقابل للمقابلة الحرة غير الموجهة.

٢ - أنماط الاستمارة

للاستمارة أنماط، ومن أهمّها:

أ. الإستمارة المُدارة ذاتياً، أي المُرسلة إلى المستجوب ليملأها بنفسه في غياب المحقق أو في حضوره أحياناً؛ ويقتضي هذا النمط أن يُرسل

المحقق الإستمارة للشخص المعني بالبريد العادي أو الإلكتروني أو أن يسلمه إياها باليد، ليملاًها المستجوب بنفسه، مع التمني عليه أن يعيدها مملوءة؛ يتزايد نسبياً استخدام الإستمارة الإلكترونية مع إنتشار خدمة الأترنت؛ ويستخدم هذا النمط من الإستمارات في حالات معيّنة ومنها:

(١) عندما يكون عدد الأشخاص المستجوبين مرتفعاً جداً وعندما لا يتوافر للباحث عدد كافٍ من المحققين .

(٢) عندما نكون متأكدين أن الأشخاص المستجوبين قادرون على التعبير عن أنفسهم عبر ملء الإستمارة .

(٣) عندما تُثير الإستمارة إهتمام المستجوبين (Javeau, 1992, p32).

ب. الاستمارة المُدارة بواسطة المحقق: حيث يقوم المحقق بنفسه بتعبئة الإستمارة عبر توجيه الأسئلة مباشرة للمستجوب وتدوين إجاباته . وفي هذا النمط يمكن بسهولة إحترام تركيبة العينة . ويمكن الأخذ بالإعتبار حالات رفض أو غياب المستجوبين (تغيير العنوان، مرض، وفاة، عطلة طويلة).

ج. الإستمارة بالهاتف: وهي تُستخدم غالباً في إستطلاعات الرأي السريعة والتي تقتصر عادةً على توجيه عدد قليل من الأسئلة إلى عدد قليل من المستجوبين . أضف إلى ذلك أن قاعدة المعاينة، المرتكزة إلى المشركين في الهاتف أو غيره من الوسائل، عادة لا تمثل المجتمع تمثيلاً صحيحاً .

د. أشكال أخرى للإستمارة تستخدمها الصحف، كإستطلاع آراء قرائها حول مواضيع محددة، أو الإستمارة التي توجهها المطاعم أو الفنادق وغيرها للزبون لتقيس مدى الرضا عن خدمة ما، أو عن المؤسسة، أو غيرها من المسائل المحددة .

٣ - مقارنة بين نمطي الإستمارة

لكل من هذين النمطين الأساسيين إيجابيات وسلبيات .

أ. الاستمارة المُدارة ذاتياً من قبل المستجوب

(١) الإيجابيات :

- كلفة مادية أقل (إرسال مغلفين واحد يضم الإستمارة والثاني عليه طابع من أجل الحصول على الجواب).
- تبعد عامل الإرباك عن المستجوب .
- يمكن إستخدام هذا النمط من الإستمارات مع نوعيّة محدّدة من الأشخاص (مثلاً مجموعة مهنية مهتمة بالموضوع).

(٢) السلبيات :

- عدم التأكد من أنّ المستجوب نفسه هو الذي أجاب عن الأسئلة .
- إنتفاء العفوية في الإجابات .
- يقتصر إستخدام هذا النمط من الإستمارات على الفئة التي تعرف القراءة والكتابة، وبالتالي فهو يستثني فئة الأميين .
- ترتفع نسبة عدم الإجابة الكليّة أو الجزئيّة على بعض الأسئلة في هذا النمط من الاستمارات، وهو ما يهدد مدى تمثيل العينة .

ب - الإستمارة عبر حضور المحقق

(١) الإيجابيات

- حضور المحقق يؤكّد أنّ المستجوب نفسه هو الذي أجاب عن الأسئلة .
- حضور المحقق يقلّل من نسبة عدم الإجابة من خلال توضيح بعض الأسئلة اذا كان هناك من ضرورة للتوضيح .

- حضور المحقق يؤمن ملاحظة البيئة العامة التي تحيط باللقاء في الإستمارة.

٢) السليبات

- كلفة مادية أكثر (إرسال محقق إلى كل مبحوث).

- يُشكّل حضور المحقق أحياناً عنصر إرباك للمستجوبين الخجولين خصوصاً في بعض الأسئلة عن مواضيع حساسة.

٤ - إستخدام الإستمارة، هدفها ودورها

تُستخدم الإستمارة في المقاربة الكميّة (Approche quantitative) للمواضيع.

وهناك أربعة أهداف لإستخدامها:

- أ. تقدير بعض المقادير المطلقة (مثلاً نسبة قراء صحيفة معينة).
- ب. تقدير بعض المقادير النسبية (مثلاً نسبة قراء صحيفتي السفير والنهار).
- ج. وصف خصائص مجموعة سكانية معينة (مثلاً وصف خصائص الأسر الفقيرة؛ وصف خصائص قراء صحيفة معينة الخ...).
- د. التحقق من فرضيات معينة. وهذا بالضبط هو الهدف الأكثر أهمية بالنسبة لعالم الاجتماع. (غيغليون وماتالون، ١٩٨٦)

يكمّن دور الإستمارة في تحويل أهداف البحث إلى أسئلة خاصة. بتعبير آخر على الأسئلة التي تُطرح من خلال هدف محدّد أن تثير إجابات على علاقة بهذا الهدف، وأن تُترجم بصدق وأمانة موقف المستجوب.

فلكل بحث إجتماعي سلسلة من الأهداف المباشرة وغير المباشرة يسعى إلى إنجازها.

ومن أجل تحقيق الأهداف المنشودة، على الباحث أن يبني فرضيات عمل

(Hypothèses de travail) يختبرها. والفرضية بتعريفها الأبسط هي جواب عن سؤال، أو علاقة سبب بنتيجة، أو علاقة بين متغيرين متغيرٍ مستقل (العامل المحدد، أو السبب)، والآخر متغيرٍ تابع (النتيجة)، ويرتبط بناء إستمارة جيّدة ببناء أبعاد (Dimensions) المفهوم أو مكوّناته، ومن ثمّ ببناء مؤشرات (Indices) هذا المفهوم، وأخيراً بناء البيّنات أو الأدلّة (Indicateurs).

وحدها الفرضيات التي تُصاغ بوضوح تسمح لمُعد الإستمارة أن يصيغ أسئلة واضحة وتتوافق مع الأهداف التي يسعى البحث إلى بلوغها. ف «أي بحث لا يمكن أن يكون أفضل من الإستمارة التي يستخدمها؛ فالإستمارة التي تتضمن أسئلة غير دقيقة وغير واضحة ستحصّد إجابات غامضة» (Moser)؛ بكلام آخر «تحصل الأسئلة على الإجابات التي تستحق» (Fabio Lorenzi-Cioldi).

فالإستمارة، كوسيلة لجمع المعلومات، لها أهميّة على قدر أهمية المحقّق الذي ينفّذها. والإستمارة الجيّدة هي التي:

- تتوقع ردّات فعل المستجوبين عند صياغة الأسئلة.
- تكون على مستوى المستجوبين.
- تحفّز وتحثّ المستجوبين على الإجابة.
- تؤمّن الحصول على المعلومات المنشودة حول موضوع البحث والتي ترتبط:

- بوضوح أهداف البحث
- بوضوح فرضيات العمل
- قدرة الباحث على بناء أبعاد المفاهيم المستخدمة بالفرضيات ومؤشراتها وبيّناتها.

إنّ التسرّع باللجوء إلى بناء الإستمارة، قبل إنجاز ما سبقت الإشارة إليه أعلاه، هو تسرّع قاتل ينم عن عدم فهم من قبل الباحث لموقع الإستمارة في

البحث الاجتماعي من جهة ولمتطلبات بناء الإستمارة عمومًا وصياغة الأسئلة خصوصًا .

٥ - بناء الاستمارة

تتمحور مرحلة المعاينة، وهي المرحلة التي تلي مراحل الإنضاج النظري لموضوع البحث، حول أسئلة ثلاثة: ماذا؟ من؟ كيف؟ والإستمارة واحدة من تقنيات جمع المعلومات التي تجيب عن السؤال كيف .

قبل تناول بناء الإستمارة تجدر الإشارة إلى أن الباحث في ضوء موضوع بحثه يختار التقنية أو التقنيات التي يرى أنها الأكثر ملاءمة لدراسة الموضوع؛ وبعد إختياره لتقنية أو لتقنيات جمع المعلومات، عليه أن يبينها ثم يختبرها، قبل التطبيق الميداني لها والإستفادة من معطياتها في مرحلة التحليل .

فالتقنيات في العلوم الاجتماعية ليست جاهزة للإستخدام، كما أن المواضيع في العلوم الاجتماعية ليست جاهزة للدراسة؛ فكما يتوجب على الباحث أن يبنى موضوع بحثه (بناء نموذج التحليل)، عليه أيضًا أن يبنى التقنيات التي سيستخدمها في دراسة موضوعه .

يرتدي بناء التقنيات أهمية خاصة في البحث الاجتماعي لأنه، عدا الأبحاث التي تسعى إلى التأكد من نتائج بحث سابق، والتي تستخدم التقنية نفسها التي إستخدمت في البحث الأصلي، فإنّ الأبحاث الأخرى، أي تلك التي يطرح فيها الباحث مواضيع لها إشكالياتها الخاصة، والتي يعبر عنها بأهداف وفرضيات عمل، تقتضي منه أن يعكس الهموم البحثية الجديدة، أو الجديد المعرفي الذي يضيفه، من خلال طرح أسئلة معينة في الإستمارة التي إختارها . وفي حال إرتأى الباحث على الرغم من تأكيده تقديم الجديد، أن يستخدم الإستمارة نفسها التي تم إستخدامها في أبحاث أخرى، فيكون قد حكم مسبقًا على بحثه بالقصور المنهجي .

هذا القول طبعًا لا يتنافى مع إمكانية الإستفادة من كل ما يتوافر من

إستثمارات حول الموضوع المطروح، أو حول مواضيع مماثلة، شرط تعديلها بما يتلاءم مع التساؤلات الجديدة المتعلقة بالإشكالية الخاصة للباحث.

تجدر الإشارة إلى أن بناء الإستثمار هو نتيجة جهد جماعي؛ (Grawitz, 1986, p763) وليس نتيجة عمل فردي يقوم به شخص واحد؛ فالفرد يُكَلَّف بإعداد مسودة لإستثمار ما، لكنّ البناء النهائي لمشروع الإستثمار يستلزم مناقشة مع مختصين ضمن فريق عمل البحث من أجل خلق فهم موحد لأسئلة الإستثمار لدى كل المستجوبين. كذلك فالإستثمار هي نتيجة مساومة حول مسألتين (Grawitz, 1986, p762):

المساومة الأولى: دور حول عمق المعلومات: لا يمكن للباحث عند إستخدام الإستثمار أن يتعمّق في الإجابات، بخلاف الغاية من إستخدام المقابلة. وفي المقابل فإن المطلوب هو الحصول على محتوى يعبر عن حقيقة الموقف.

المساومة الثانية: تدور حول الوقت: أي لا يمكن للباحث أن يطرح في الإستثمار كل الأسئلة التي لها علاقة بالموضوع، لأن كل موضوع ينطوي، بسبب تعقيده، على أسئلة عديدة جداً. وبالتالي لا يمكن، ولأسباب متعددة، الإحتفاظ بالمستجوب لساعات طويلة (وقت الإستثمار عادة أقل من ساعة)، لذلك يتوجب على الباحث أن يختار من ضمن هذا الكم الهائل من الأسئلة تلك الأكثر قدرة على الحصول على المعلومات الأكثر دلالةً وتعبيراً عن موضوع البحث. تؤثر المساومة حول الوقت الذي تستغرقه الإستثمار على عدد الأسئلة المطروحة فيها.

إن سهولة أو صعوبة بناء الإستثمار ترتبط بجدة الموضوع أو عدم جدته. فكلّما كان الموضوع جديداً كان بناء الإستثمار أكثر صعوبة؛ وفي المقابل كلما كان الموضوع مُعالجاً في دراسات سابقة كانت عملية بناء الإستثمار أكثر سهولة. ليس هناك من «فيتو» على الإستفادة من إستثمارات سابقة تسهّل عملية بناء إستثمار البحث شرط أن يكيّف الباحث الإستثمار مع وجهة النظر التي

يُعالج من خلالها موضوع بحثه، وألا تكون نسخة طبق الأصل، أي إنتحالاً كاملاً لإستمارة سابقة.

في عملية بناء الإستمارة على الباحث أن يهتم بمسألتين :

- **المسألة الأولى :** تحديد أنماط الأسئلة Les types des questions التي سيستخدمها في الاستمارة.

- **المسألة الثانية :** كيفية صياغة أسئلة الإستمارة : La rédaction des questions

أ. **المسألة الأولى ، أنماط الأسئلة**

يرتبط التمييز بين أنماط الأسئلة ب:

(١) **محتوى الأسئلة : le contenu des questions**

يرتبط محتوى الأسئلة بالتأكيد بموضوع البحث وتحديدًا بهدف (أو أهداف) البحث، والذي يمكن أن يتغير إلى ما لا نهاية. يفترض بهذا المحتوى أن يُثير كل المسائل التي يطرحها البحث، وتحديدًا ما تضمّنه النموذج التحليلي (الذي يضم المفاهيم والفرضيات) من متغيرات مستقلة وتابعة، ومن أبعاد ومؤشرات. كما أنه يرتبط بطبيعة المعلومات المنشودة، التي يسعى المحقق إلى جمعها).

يتمّ التمييز، في ضوء طبيعة المعلومات المنشودة، بين نمطين من الأسئلة المرتبطة بالمحتوى :

فإنّما يكون هدف البحث الحصول على معلومات عن: وقائع عن المستجوب و/أو أفعال قام بها، و/ أو آراء وإتجاهات ومعتقدات ونوايا المستجوب.

(١.١) **أسئلة حول وقائع وأفعال المستجوب :**

وهي تتضمّن أسئلة وقائع وأسئلة أفعال.

- أسئلة حول واقع المستجوب (Factual questions) Les questions de fait

وهي أسئلة سهلة في طرحها وفهمها ولا تحتاج إلى تفكير عميق للإجابة عنها؛ فالمطلوب من المستجوب الإجابة عن وقائع (مثلاً الجنس: ذكر؟ أنثى؟).

بشكل عام، الواقعة تكون أو لا تكون، وبالتالي فإن التردد وعدم الدقة في الإجابة عن هذا النوع من الأسئلة هو أقل بكثير من الإجابة عن أسئلة الآراء والمعتقدات، وتكون الإجابات عن هذه الأسئلة مبدئياً أكثر أمانة وصدقاً وصحة لأنها أسئلة تعبر عن وقائع.

على الرغم من ذلك كله يواجه بعض المستجوبين صعوبة أحياناً في الإجابة عن هذا النمط من الأسئلة السهلة بطبيعتها، خصوصاً عندما يتعلق السؤال بوقائع معيّنة، كسؤال بعض الفنانات عن عمرهن مثلاً حيث يتهرّبن من تقديم إجابة واضحة. ولا يقتصر الأمر على فئة الفنانات ففي دراسة عن البحث العلمي في لبنان، شاركت فيها وكذلك أشرفت فيها على الفريق الميداني، رفض بعض الأساتذة الجامعيين الإجابة عن السؤال المتعلق بالعمر. وبعض الرفض يواجه المحقق في الأسئلة المتعلقة بالمداخيل وتقدير الثروة، أو حول العلاقات الجنسية عموماً وخارج إطار الزواج خصوصاً.

- أسئلة حول أفعال المستجوب Les questions d'action

تُطرح هذه الأسئلة على المستجوب للحصول منه على جوابٍ عمّا إذا كان المستجوب قد أتم هذا الفعل أو ذاك؛ في هذا النمط من الأسئلة نحصل أيضاً، كقاعدة عامة، على إجابات دقيقة وتكون حالات رفض الإجابة عادةً قليلة. مثلاً: هل ذهبت البارحة إلى السينما: نعم؟ كلا؟. ولكن حتى هذا النمط من الأسئلة يُواجه أيضاً رفضاً أو عدم دقة في الإجابة عندما يتمّ التطرق إلى تصرفات وأفعال تتناول مواضيع حسّاسة. مثلاً: هل مارست الغش في الإمتحانات؟ نعم؟ كلا؟؛ فعلى الرغم من وضوح السؤال (حصول الغش أو عدم حصوله) إلا أن الجواب ليس سهلاً.

٢.١) أسئلة حول رأي ومعتقد ونية المستجوب et de croyance et d'intention

هي أسئلة تتعلق بالكشف عن، والتعرّف على، رأي المستجوب بالنظام الاجتماعي، السياسي، الإقتصادي والثقافي الخ؛ وعن مواقفه وإنطباعاته ونواياه من مواضيع مختلفة (مثلاً رأيه بالزواج المدني، أو موقفه من النظام السياسي في بلده، الخ... .)؛ تكون هذه الأسئلة شديدة التنوع و تتطلب تفكيراً عميقاً من المستجوب للإجابة عنها .

- أسئلة حول رأي المستجوب ومعتقداته

ترمي هذه الأسئلة إلى الطلب من المستجوب وبشكل مباشر رأيه في ظاهرة ما؛ ويكون الجواب عن هذه الأسئلة أكثر تحفظاً مقارنة مع الأسئلة التي تتعلق بالوقائع والأفعال. تكون صحة الإجابة عن هذا النوع من الأسئلة أقل صدقية من أسئلة الوقائع والأفعال. مثلاً: ما رأيك بعمل المرأة؟

يفترض أن يسبق صياغة هذا النوع من الأسئلة تفكير مسبق حول الموقف المحتمل للمستجوبين في مواجهة هذه الأسئلة وذلك من خلال التعرّف على مدى استعدادهم للتعبير والإجابة، ومستوى معلوماتهم عن موضوع البحث، وما هي القيم المسيطرة وما هي المحرمات لدى المجموعة التي ينتمي إليها المستجوبون. وتشكّل أسئلة الآراء المجال الذي يمكن لصياغة الأسئلة أن تكون قادرة على التأثير، وبسهولة أكبر على محتوى الإجابات، بالمقارنة مع أسئلة الوقائع والأفعال.

- أسئلة حول نية المستجوب

تهدف هذه الأسئلة إلى التعرف من المستجوب حول ما ينوي عمله في هذه المناسبة أو تلك. ترتبط دلالة هذا النوع من الأسئلة بالظروف التي أنتج خلالها الجواب، فإذا تبدّلت الظروف يمكن أن تُعدّل في نية

المستجوب (مثلاً النية بالتصويت لمرشح ما ليست بالضرورة تصويماً فعلياً له، مثل آخر: هل تنوي متابعة الدراسة الجامعية؟ الجواب نعم، ومن ثم طرأت تدهورت أوضاع الأسرة إقتصادياً، فإضطر إلى الدخول في سوق العمل من دون أن تُتاح له فرصة متابعة الدراسة.

٢) شكل الأسئلة : La forme des questions

إذا كان محتوى الأسئلة يهّم الباحث بشكل أساسي، فإنّ شكل الأسئلة يهّم المستجوب بالدرجة الأولى. هناك أنماط عدة من أشكال الأسئلة: كالأسئلة المغلقة (Questions fermées)، الأسئلة المفتوحة (Questions ouvertes)، الأسئلة التقويمية (أو التقديرية) (Questions à estimation ou à évaluation)، وأخيراً الأسئلة المروحية (Questions à évantail).

١.٢) الأسئلة المغلقة Les questions fermées

هي الأسئلة التي ينحصر جواب المستجوب عادة ضمن تناوب النعم أو الكلا، أي في إختيار أحد الجوابين الذي يعبر عن واقعه (مثلاً: هل زوجتك تعمل؟ نعم؟ كلا؟). ويمكن أحياناً إضافة إجابة ثالثة لا أعرف.

تجدر الإشارة أن خطأ شائعاً يتكرّر حيث يضيف البعض إلى جوابي النعم والكلا جواب أحياناً، وهو خطأ غير مبرّر. فاحتمال الإجابة بأحياناً ينتمي إلى مقاييس الإتجاه حيث أحياناً هي درجة بين دائماً و أبداً، وليست خياراً بين النعم والكلا؛ والإجابة بـ «أحياناً» تعني نعم ولو لمرة واحدة، وهي فعلياً تنضم إلى فئة النعم لأننا السؤال لا يُطرح حول نعم كثيرة أو نعم قليلة.

يتميز هذا النوع من الأسئلة بالوضوح وبالبساطة. كما أنّ تصنيف الإجابات عن هذه الأسئلة ليس معقداً. كذلك فإن الفرز والتصنيف يحصلان بسرعة أكبر بكثير منه في الإجابات على الأشكال الأخرى من الأسئلة وخصوصاً أسئلة الرأي والمعتقد.

إن المأخذ السلبي الأساسي على هذا النمط من الأسئلة يكمن في حصر

المستجوب ضمن خيارى النعم والكلأ ، وبالتالى عدم قدرته على تطوير إجابته وعلى تمييزها عن الإجابات الأخرى .

يتلاءم هذا النمط من الأسئلة عادةً مع أسئلة الوقائع والأفعال ، وناذرًا ما يُستخدم عند طرح الأسئلة المتعلقة بالرأى .

بشكل عام ، يجب تجنب استخدام السؤال المغلق عندما يكون السؤال صعبًا أو معقدًا لأنه لا يتيح للمستجوب التعبير عن الفروقات الضرورية التى لا غنى عنها .

الطريقة الفضلى للحصول على إجابات متنوعة عن سؤال مغلق تكمن فى طرح سؤال مفتوح فى المرحلة التحضيرية (التحقيق الأولى) . يؤدى تحليل محتوى الإجابات إلى صياغة فئات إجابة تعكس المصطلحات المستخدمة من قبل السكان المستهدفين . مثلاً «بماذا تفكر عندما تسمع كلمة عمل؟» ثم تؤخذ فئات الإجابة وتوضع ضمن لائحة محدّدة من الإجابات (أجر/ مهنة/ الزام/ تواصل/ ضغط/ لذة / تعب/ جو العمل) وتُعرض على المستجوب الذى سيختار واحدة أو أكثر منها ، حسب الهدف من السؤال .

إن ورود العديد من الأسئلة المفتوحة فى إستمارة منمّطة (مقنّنة) هى غالبًا مؤشّر ضعف فى صياغتها؛ إنّ عدم معرفة صياغة أسئلة مغلقة سببه عدم التحضير الكافى .

٢.٢) الأسئلة المفتوحة Les questions ouvertes

هى الأسئلة التى يكون فيها المستجوب حرًا بشكل كامل فى إعطاء الإجابة الذى تُعبّر عن رأيه . يسمح السؤال المفتوح للمستجوب بالتعمّق أكثر فى إجابته وبالتعبير أكثر عن موقفه مما يُتيح السؤال المغلق . مثلاً : ما رأيك بعمل المرأة؟

بشكل عام فإنّ تأثير الباحث على إجابات المستجوب فى الأسئلة المفتوحة هو أكثر بكثير من الأسئلة المغلقة . يُخشى أن يُزعج هذا النمط من

الأسئلة فئة من المستجوبين الذين لا يملكون معلومات بشكل جيد عن موضوع البحث، أو أنهم لم يفكروا ملياً بالسؤال؛ يُخشى آنذاك ألا تكون الإجابة واضحة ولا دقيقة. ويمكن للمستجوب ان يطلب بعض الشروحات عن الأسئلة المطروحة مما يُخشى معه، وبشكل جدي، من أن يُؤثر شرح المحقق للسؤال على جواب المستجوب.

٣.٢) الأسئلة التقديرية Evaluation à

وهي تسمى أيضا أسئلة تقييمية، وهي أسئلة تسمح للشخص بالتعبير عن رأيه ضمن مقياس تدرج معه القيم من قيمة سلبية جداً إلى قيمة إيجابية جداً. تُستخدم هذه الأسئلة في حالة قياس الإتجاهات؛ وتُستخدم في علم الاجتماع مقاييس متعددة لقياس الآراء ومن بين هذه المقاييس مقياس ليكرت LIKERT، وهو عادةً الأكثر استخداماً لدى الطلاب. (هل توافق على عمل المرأة: موافق كلياً، موافق، موافق إلى حد ما، غير موافق، غير موافق أبداً).

٤.٢) الأسئلة المروحية Eventail à

وهي أسئلة تقدّم مروحة من الإجابات المختلفة كي يختار المستجوب من بينها الإجابة الأكثر تعبيراً عن واقعه أو رأيه. وهذه اللائحة من الإجابات يمكن أن تكون مفتوحة (كالسؤال عن أسباب إختيار الجامعة حيث تُضاف إلى الفئات الواردة كإقتراحات إجابة فئة أخرى هي فئة غير ذلك؟ حدّد...)، أو تكون مغلقة (كالسؤال مثلاً عن المستوى التعليمي لشخص ما حيث تنحصر إحتتمالات الإجابة ما بين: (أمي، يعرف القراءة والكتابة، ابتدائي، متوسط، ثانوي، جامعي، دراسات عليا، دكتوراه، ما بعد دكتوراه).

وبالتالي فإن لائحة الإجابات المقترحة في هذه الحالة شاملة غير منقوصة؛ وما على المستجوب سوى أن يختار إجابة من ضمن اللائحة المعروضة عليه تعبّر عن واقعه؛ لذلك سميت مغلقة.

٥.٢) السؤال غير المباشر (Question indirecte)

بدل أن يسأل الباحث أحياناً بشكل مباشر عن مداخل الأسرة، كالقول ما هي مداخل أسرتك الشهريّة؟ يمكن للباحث في بعض الأسئلة الحسّاسة، ومن أجل التخفيف من إحراج المستجوب، أو تهرّبه من الإجابة، أن يستبدل الوصول إلى النتيجة مباشرةً بالعمل على الوصول إليها مداورة، أي بشكل غير مباشر، عبر طرح عدة أسئلة تصب في محصلتها في الكشف عن الوضع الاجتماعي - الإقتصادي للمستجوب. (مثلاً: أسئلة حول المدارس والجامعات التي يتعلم فيها الأولاد؛ عدد السيارات التي تملك؛ طرازها؟ وسنة الصنع؟ هل لديك منزل ثانوي؟ الخ)

٦.٢) السؤال التوكيدي (الفخ) (Question piège)

يضمّن الباحث الإستمارة عدداً من الأسئلة التي لها وظيفة مراقبة صحّة الإجابات التي يقدّمها المستجوب؛ مثلاً هل تشرب مشروبات روحية ولنفترض أن المستجوب أجاب بكلا؟ ثم يُسأل في سؤال آخر، يرد بعد عدة أسئلة، أي نوع من أنواع النبيذ يُفضل؟ فإذا به يشير إلى نبيذ فرنسي مثلاً! وتتضمّن الإستمارات عادةً أسئلة عدّة في هذا المجال.

يرتبط «استعمال أي من السؤالين المفتوح أو المغلق بحسب لازارسفيلد Lazarsfeld بأربعة عوامل»:

- العامل الأول: يرتبط بهدف الإستمارة: تتوافق الأسئلة المغلقة مع أسئلة الوقائع والأفعال، أمّا إذا كان الهدف هو الحصول على آراء ومعتقدات المستجوب فُتستخدم الأسئلة المفتوحة.
- العامل الثاني يرتبط بمستوى معرفة المستجوب بالموضوع: كلّما كان المستجوب يعرف بموضوع البحث يُفضّل توجيه أسئلة مغلقة له، وكلّما كان المستجوب غير مُلمّ بالموضوع بشكل دقيق يُفضّل توجيه أسئلة مفتوحة.

- العامل الثالث: يرتبط بمدى تأثيرهما على المستجوب: فالسؤال المغلق يتطلب جهداً أقل، وبالتالي يبدو أنه غير شخصي لأننا نعطي رأياً سريعاً (نعم - كلا)، وبالتالي فلا يجب توجيه أسئلة مغلقة للمستجوبين المُخرجين.

- العامل الرابع: يرتبط بمدى معرفة الباحث بموضوع البحث: إذا كان الباحث غير ملم كفايةً بالموضوع يفضل استخدام أسئلة مفتوحة. يمكن للسؤال نفسه أن يُطرح بشكل مفتوح أو مغلق أو تقييمي أو مروحي.

- سؤال مفتوح: مثلاً «ما رأيك بعمل المرأة؟» تُترك الإجابة حرة يقدمها المستجوب بتعايره الخاصة.

- سؤال مغلق: هل توافق على عمل المرأة: نعم، كلا.

- سؤال تقييمي: «هل توافق على عمل المرأة: موافق بشدة، موافق، موافق بتحفظ، غير موافق، غير موافق».

- سؤال مروحي: عمل المرأة: يعزز ثقتها بنفسها، يعزز استقلاليتها، يعزز إحترامها، يعرضها للإبتزاز، يقلل من إحترامها، يسيئ إلى سمعتها، غير ذلك، حدّد.....

إذا كان الجواب في هذه الحالة في حالات الوقائع متطابقاً، كالسؤال عن العمر مثلاً سواء أكان مفتوحاً أم مغلقاً، إلا أن فروقات واضحة سُجّلت في أسئلة حول موافق أو آراء. «طرح سؤال مفتوح على الأميركيين حول المسألة الأكثر أهمية التي على البلاد أن تُواجهها، فأجاب ١٣٪ بأنها مسألة التضخم. وعندما طُرِحَ السؤال بصيغة لائحة إجابات مغلقة يختار المستجوب منها ما يعبر عن رأيه إرتفعت نسبة الإجابة حول التضخم إلى ٢٧٪» (Grawitz, 1986)

٣) إيجابيات وسلبيات كل من الأنماط الثلاثة:

١.٣) الإيجابيات

* الأسئلة المغلقة:

- سهولة في صياغتها
- وضوح وبساطة
- سهولة في الإجابة
- التردد في الإجابة قليل
- يمكن تعبئتها ذاتياً من قبل المستجوب.
- تسمح بمقارنة الإجابات.
- تستخدم الأسئلة المغلقة أساساً في الإستمارات المخصصة للتحليل الإحصائي.
- سهولة جمع الإجابات وتصنيفها وفرزها.
- سهولة تبويبها وتحليلها إلى أرقام ونسب مئوية.
- يسمح هذا النوع من الأسئلة بتقليص إجابات المستجوبين وبالتالي كسب الوقت.
- تُستخدم هذه الأسئلة كمدخل لحث المستجوب على الإجابة.
- الإجابات أكثر دقة وصحة وأمانة وصدقا مقارنة مع أسئلة الرأي.
- بسبب كل ذلك، فهي أقل كلفة وجهد ووقت.

* الأسئلة المفتوحة:

- حرية التعبير عن الرأي، وبالتالي إمكانية كشف المستجوب عن حقيقة مواقفه.

- غنى وتنوع في المعلومات .
- تكشف عن مستوى معلومات المستجوبين وفهمهم للأسئلة .
- إبعاد التسرع عن الجواب والتخفي في إظهار حقيقة الجواب .
- لا غنى عن هذا النوع من الأسئلة في الكشف عن المشكلات المعقدة .

* الأسئلة التقديرية والتقويمية

- تسمح للمستجوب بتمييز جوابه عبر تقديم خيارات عدة له (بالمقارنة مع السؤال المغلق) وتخفف الإحراج عنه (بالمقارنة مع السؤال المفتوح) .
- تساعد المستجوب على الإجابة عبر تقديمها نقاط إرتكاز له أي تساعده على التذكر .
- سهولة جمع الإجابات وتصنيفها وفرزها وتبويبها ومعالجتها .
- كلفة أقل ووقت أقل وجهد أقل .

٢.٣) السلييات

* الأسئلة المغلقة:

- تضع المستجوب ضمن خيارين لا ثالث لهما نعم أو كلا وبالتالي لا تتيح له التعبير عن رأيه وتطوير جوابه .
- احتمال إعطاء جواب خطأ من قبل المستجوب بسبب التسرع .
- احتمال تسجيل خطأ للجواب من قبل المحقق .

* الأسئلة المفتوحة

- صعوبة صياغة الأسئلة .
- إمكانية التأثير على إجابات المستجوب هي أكبر .
- صعوبة في الإجابة .

- صعوبة في الإجابة تؤدي إلى إجابات غامضة أو خارج الموضوع أو لا جواب، أو لا أعرف، أو «نسيان» معلومات غير قابلة للبوح.
- صعوبة في تصنيفها وفرزها.
- صعوبة في تحليل الإجابات عن هذه الأسئلة.
- تحتاج إلى تحليل للمحتوى (نوعي).
- احتمال الخطأ في فهم الإجابات وتحليلها وتفسيرها.
- صعوبة الاستفادة من الإجابات كلها.
- كلفة مادية أكثر وجهود أكثر ووقت أطول.

* الأسئلة التقديرية والتقييمية

- يُخشى أن تؤثر الإجابات المقترحة على المستجوب عبر إحاثها بإجابات لم يكن قد فكّر بها.
- يُخشى ألا تكون فئات الإجابات المقترحة كافية، وبالتالي يؤثر ذلك على إجابات المستجوب بحصره بإجابات محدّدة ومحدودة في اللائحة وإخفائها إجابات أخرى محتملة.
- يُخشى في لائحة الإجابات الطويلة جدًّا أن يختار المستجوب الجواب الأول أو الأخير، لذلك على الباحث أن يغيّر في ترتيب الأسئلة وإحتمالات الإجابة حتى لا تقع في هذا المحذور.
- لا تترك مجالًا للمستجوب بأن يُجيب بلا أعرف.

ب. المسألة الثانية: صياغة الأسئلة

حسب Samuel Stouffer إنّ الأخطاء الأكثر تكرارًا في الإستمارة مرتبطة بـ:

- بإختيار الكلمات: نسبتها ٧٤٪.

- تاويلات غير صحيحة: ٥٨٪

- المعاينة: ٥٢٪

- عدم كفاية المناهج الإحصائية: ٤٤٪ (Grawitz, 1986, p774)

تكشف تلك الإحصاءات عن مدى الأهمية الخاصة لصياغة الأسئلة. تؤثر صياغة الأسئلة تأثيراً كبيراً على إجابات المستجوبين، وبالتالي فهي تؤثر على صحة هذه الإجابات ومدى تعبيرها عن حقيقة الموقف. لذلك على الباحث أن يولي إهتماماً خاصاً عند صياغة أسئلة الإستمارة ل:

(١). دقة الأسئلة

(٢). حيادية الأسئلة

(١) دقة الأسئلة : La Précision des questions

لأن هدف الباحث الحصول على إجابات دقيقة فإن المطلوب منه صياغة أسئلة دقيقة، لأن الأولى هي شرط للثانية. فالأسئلة الغامضة ستؤدي حُكمًا إلى إجابات غامضة، وبالتالي هي لن تخدم هدف البحث.

يُفترض بالباحث لدى صياغة كل سؤال أن يفكر بالهدف الذي يفتش عنه من خلال السؤال، وأن يفكر في الوقت نفسه بإبعاد كل ما يُهدد وظيفة السؤال الأساسية بأنه يُشكل وسيلة تواصل فعلية مع المستجوب. بمعنى أن على الكلمات التي يستخدمها الباحث في السؤال أن تُثير لدى المستجوب المعنى نفسه وأن تُحتمل على الإجابة عنها. فالسؤال السيئ هو السؤال الذي يثير عبر صياغته جوابًا لا يتوافق مع المعلومة التي يُبحث عنها، أو يثير إجابة غير صحيحة، ويؤدي ذلك في الحالتين إلى إنحراف في النتائج. في ضوء كل ذلك ترتدي صياغة السؤال كل أهميتها، خصوصًا عندما يتعلق الأمر بأشخاص مستجوبين يتأثرون بغيرهم إلى هذا الحد أو ذاك، أي أن آراءهم ليست مبنية بوضوح وبصلابة.

إن قسمًا كبيرًا من مشكلات صياغة الأسئلة ترتبط بنوعية المستجوبين. إن

خبرة الباحث ضرورية جداً من أجل حل المشكلات عبر تكييف صياغة الأسئلة مع مستوى المستجوبين .

من أجل الحصول على إجابات تتوافق بالضبط مع أهداف البحث وترجم بأمانة رأي المستجوب، أو ما يرغب بالتعبير عنه، هناك قاعدة عامة تقضي بأن تكون الأهداف واضحة، والأسئلة مفهومة بالطريقة نفسها من قبل كل المستجوبين . ولكي تكون الأسئلة مفهومة يجب :

- أن تصاغ بلغة أقرب ما يكون للغة المستجوبين (حتى ولو إستخدم الباحث اللغة العامية)؛ مهما يكن موضوع البحث، سواء أكان يتعلق بتربية الماشية أم بعلم الذرة، على اللغة المستخدمة أن تكون متناسبة قدر الإمكان مع اللغة التي يستخدمها المستجوبون.

- لتأمين الدقة في الإجابات، يفضل في أغلب الأحيان عدم اللجوء إلى جمع عناصر عدة في سؤال واحد. من المفضل طرح سؤال عن كل عنصر على حدة. مثلاً هل سافرت إلى فرنسا ومصر الصيف الماضي؟ نعم، كلا؛ صياغة هذا السؤال غير صحيحة إلا في حالة السفر إلى البلدين أو عدم السفر اليهما فتكون النعم والكلا صحيحة؛ أما في حال كان السفر إلى بلد من البلدين يكون هناك إرباك في الإجابة .

- يجب تجنب الأسئلة المتعلقة بماضٍ أو مستقبلٍ بعيدين . فالماضي يرتبط بالقدرة على التذكر، والذاكرة إنتقائية وتتفاوت بين المستجوبين، وبالتالي هي تؤثر على دقة الإجابة لدى البعض؛ أما المستقبل فيرتبط بالظروف ومدى ثباتها أو تبدلها مما يجعل الإجابة قابلة للتعديل في حال تبدلت الظروف التي أنتجتها .

- بشكل عام يكون للأسئلة المختصرة تأثيرٌ على دقة الإجابات، وبالتالي يجب الإبتعاد عن طرح الأسئلة الواسعة جداً لأنها تشوش تفكير المستجوب . مثلاً: «هل على بلدنا أن يكون أكثر نشاطاً على الساحة الدوليّة؟» من هو البلد: الحكومة، وزارة الخارجية، رئيس الجمهورية،

وماذا يعني أكثر نشاطًا هل تكرار الزيارات إلى الخارج؟ أم عدد اتفاقيات؟ الخ وماذا تعني الساحة الدولية: الأمم المتحدة؟ أوروبا؟ أميركا؟ الخ.

- يفترض تجنّب استخدام الكلمات التي تحملُ معنيين: معنى تقنيًا و معنى شائعًا. فمصطلح البيروقراطية تقنيًا يعبر عن طريقة عقلانية في التنظيم الإداري، بينما المعنى الشائع للكلمة له صدى سلبيًا.
- يجب تجنب استخدام المصطلحات المختصرة غير الشائعة مثلًا سؤال أحد المستجوبين عن رأيه باليونيسيف، فليس الجميع يعرف ماذا تمثل هذه المنظمة!
- يجب تجنب استعمال الكلمات المبهمة والغامضة. مثلًا كلمة غالبًا أو كثيرًا؛ مثلًا: «هل تذهب غالبًا إلى السينما؟»، فيمكن لشخص ذهب خمس مرات في السنة أن يجيب بنعم، بينما يجيب شخص آخر ذهب عشرين مرة إلى السينما في السنة بكلاً؛ فالمصطلح غالبًا هو مصطلح غامض فالذي يحب السينما يعتبر المرات العشرين قليلة بينما الآخر يعتبر الخمس مرات كثيرة.

٢). حيادية الأسئلة: La Neutralité des questions

يكمّن المبدأ العام هنا في أن نُبعد عن الأسئلة كل صياغة تؤثر على المستجوب وتدفعه لإعطاء إجابة معيّنة وليس إجابة أخرى. في هذا المجال هناك ملاحظات عدة على الباحث ان يتنبّه إليها أثناء بناء الإستمارة، ومنها:

- موقع إقتراح الإجابة: في حال وجود خيارين للإجابة فإنّ موقع الاقتراح يؤثر أحيانًا على إجابة المستجوب خصوصًا المتردّد. هناك ميلٌ لدى المستجوبين لإختيار الجواب الأول على لائحة إجابات مقترحة. بينما هناك ميل لدى المسجوبين في لائحة إجابات تضم أرقامًا ونسبًا مئوية لإختيار المواقع الوسطى. واقتراح لإبطال مفعول هذا التأثير بتشكيل مواقع الإجابات الإحتمالية في النسخ التي توزّع على المستجوبين.

- إستبعاد الأسئلة التي تحمل مضموناً قيمياً، والتي تُسمى أيضاً أسئلة إستدرجية. مثلاً: هل أنت مع إرسال مساعدات غذائية للبلد الفلاني؟ في هذه الحالة يحصل الباحث على إجابات معيّنة، وهي سترتفع حتماً لو طرح السؤال نفسه على الشكل التالي: «هل أنت مع إرسال مساعدات غذائية للبلد الفلاني من أجل مكافحة المجاعة؟».

- **الخوف من التغيير:** كل سؤال يتضمن فكرة التغيير في الولايات المتحدة الأمريكية يحصل على نسبة إجابات مرتفعة من الرفض؛ مثلاً طرح السؤال التالي بطريقتين: هل تعتقد أنه يجب تفسير الدستور لمنع الرئيس من التجديد لولاية ثالثة؟ حصل السؤال على نسبة (نعم) مرتفعة (أي مع تفسير الدستور لمنع الرئيس من التجديد). طُرح السؤال نفسه بالطريقة التالية: هل تعتقد أنه يجب تغيير الدستور لمنع الرئيس من التجديد لولاية ثالثة؟ حصل السؤال على نسبة (كلا) مرتفعة.

- **تأثير الكلمات المحملة بالمسؤولية؛** طُرح السؤال التالي في الولايات المتحدة الأمريكية في العام ١٩٤١: «هل يجب على الولايات المتحدة الأمريكية الآن الدخول بالحرب؟ كانت نسبة الاجابة بنعم ٢٤٪. طُرح السؤال بالطريقة التالية: «هل يجب على الولايات المتحدة الاميركية إعلان الحرب، إنخفضت الاجابة عن النسبة أعلاه إلى ١٧٪».

- **تقدير الذات والرغبة بالتوافق مع القواعد الاجتماعية:** إذا طُرح على أشخاص ذكور ناضجين تحديد البرامج الأسبوعية التي يحضرونها من ضمن لائحة تتضمن برامج سياسية، برامج للأطفال، برامج للنساء، برامج رياضية، برامج عائلية، برامج فنية، يمكن أن نتوقع أن نسبة منخفضة جداً ستختار إقبال الرجال على إختيار برامج النساء والأطفال والرياضة والفن، وذلك إنطلاقاً من خلفية ثقافية تمنعه من البوح بالإهتمام ببرامج النساء أو الأطفال.

- **شخصية السؤال:** على الباحث أن يكون متنبهاً لشخصية الأسئلة؛ فالسؤال

الشخصي إذا كان يؤدي إلى ضرر (مادي أو معنوي) بالمستجوب سيحصل على نسبة إجابات سلبية مرتفعة، وإذا كان لمصلحة المستجوب سيحصل على نسبة إجابات إيجابية مرتفعة.

- مرجعية الشخصيات وتأثيرها: على الباحث أن يكون متنبها لتأثير الأسئلة التي تتضمن مواقف لشخصيات محبوبة أو مكروهة يتم ذكر أسمائها في السؤال وهو ما سيؤدي حكمًا إلى إجابات متحيزة أكثر مما لو طرح السؤال نفسه من دون ذكر أسماء هذه الشخصيات المحبوبة أو المكروهة.

ج. عدد الأسئلة وترتيبها

يرتبط عدد الأسئلة عادة بموضوع البحث؛ فإستمارة إستطلاع الرأي عادة لا تكون طويلة ١٠ أسئلة تقريبًا (مدة ربع ساعة على الأكثر)، إلا أن بعض الإستمارات يمكن أن يصل إلى ١٠٠ سؤال (بلغ عدد الأسئلة التي ضمتها إستمارة وضعها انجلز عن الطبقة العاملة في لندن في القرن التاسع عشر، ومثلها إستمارة «البلديات والسلطات المحلية» التي شاركت في تحليل نتائجها في اطار فريق بحثي مع الـ CERMOC سابقًا (الـ IFPO حاليًا). إلا أن الإستمارات التي تجمع ما بين الحصول على معلومات عن الموضوع، وتراعي وقت المستجوب في آن، ومدى تحمّله، فهي عادة تضم حوالي ٣٠ إلى ٤٠ سؤالًا وتتطلب من نصف الساعة إلى ساعة لتنفيذها.

تقسم الإستمارة عادةً إلى أبواب (محاور) يعبر كل منها عن بُعدٍ من أبعاد الموضوع. هنا أيضًا في عملية بناء الإستمارة نعيد التأكيد على مدى أهمية بناء نموذج تحليلي متماسك وواضح لأنه يشكل خارطة الطريق الفعلية لبناء التقنيات ومنها الإستمارة.

يرتبط ترتيب الأسئلة في الوقت نفسه بنمط التحقيق المعتمد (إستطلاع رأي، جمع معطيات، الخ) وبخصائص العينة، وبطريقة إدارة تعبئة الإستمارة، وبطول الإستمارة، الخ ولكن مع ذلك يُنصح عمومًا بالتالي:

- أسئلة التعريف عن المستجوب (الجنس، العمر، المنطقة، المهنة، المستوى التعليمي الخ) ويمكن وضعها في بداية افاستماراة أو في نهايتها .
- البدء بأسئلة سهلة، تساعد على كسب ثقة المستجوب .
- وضع أسئلة سهلة تفصل بين مجموعات الأسئلة الصعبة تعد بمثابة أسئلة ترييح للمستجوب .
- تأمين التماسك والمنطق في الإاستماراة عبر وضع الأسئلة التي ترتبط بالبعد نفسه مع بعضها البعض، وأن توضع الأسئلة ذات الطابع العام قبل الأسئلة ذات الطابع الخاص، والأسئلة التي تخص المستجوب تسبق تلك التي تخص محيطه، كذلك على ألباحث أن يضع أسئلة الوقائع والفعال قبل أسئلة الرأي والمعتقد» (Javeau, 1992, pp 101 - 102)

د. إاخبار مشروع (مسودة) الإاستماراة

يُعد إاخبار الإاستماراة خطوة مهمة جدًا قبل إناقال المحققين إلى التطبيق الميداني . وغالبًا ما يتجاهل المبتدئون وبعض المجرّبين هذه الخطوة الأساسية في تصويب صياغة أسئلة الإاستماراة . ففي مرحلة الإاخبار يبقى هناك إمكان كي يصحّح الباحث الأسئلة غير الواضحة أو الكلمات المبهمة أو الغامضة وغيرها من المسائل التي يكشف عنها الإاخبار والتي تؤثر على دقة الأسئلة وحياديتها إذا لم تُستدرك .

«الهدف الأساسي للإاخبار الأولي pré-test ou pre-testing تقييم فعالية الأداة التي ستستخدم في مشروع البحث». يُصاغ المشروع ويتم إاخصاعه لهذا الإاخبار وذلك للتعرف على سهولة فهم الأسئلة، ودرجة «تقبلها»، وسهولة تأويلها . هذه المرحلة هي ضرورية وتُرتكب حماقة كبرى إذا ما تعاطى الباحث مع هذه المرحلة بخفة .

يتم إاخبار مسودة الإاستماراة مع عدد محدود من الأفراد يتمتعون

بالخصائص نفسها التي تتمتع بها وحدات العينة. عدد هؤلاء يجب ألا يكون كبيراً: حوالي ٢٠ إلى ٣٠ شخصاً. يجب الانتباه جيداً أن تكون المجموعة غير متجانسة كثيراً. بعبارة أخرى، المحققون الذين يتم إختيارهم لهذه المهمة يجب أن يكونوا مؤهلين جيداً، وعليهم أن يستثيروا رأي المستجوبين بطريقة أحياناً معقدة، وأن يناقشوا معهم تفاصيل الإستمارة، وهو ما يمكن أن يأخذ بعض الوقت. في ضوء النقاش، يتم تسجيل إجابات وردود أفعال أعضاء فريق الإختبار، ومن ثم يتم وضع الصيغة النهائية للإستمارة.

يتطلب الإختبار الأولي التحقق خصوصاً:

- ما إذا كانت المصطلحات المستخدمة سهلة الفهم وغير ملتبسة. ويفترض فوراً تصحيح كل ما يعيق فهم المصطلحات والأسئلة. و بالتالي عدم الإضطراب لاحقاً إلى تقديم شروط للمستجوبين الذين ستطبق عليهم الإستمارة عن المصطلحات المستخدمة.
- التأكد ما إذا كان تسلسل الأسئلة لا يشير أي ردود فعل لإنحرافات محتملة.
- التأكد ما إذا كان شكل الأسئلة المستخدمة يسمح بالحصول على المعلومات المنشودة.
- التأكد أن الإستمارة ليست طويلة جداً، ولا تثير عدم إهتمام أو غضب المستجوبين.
- التعرف ما إذا كان ضرورياً إختزال بعض الأسئلة، وإستخدام أسئلة توكيدية (أسئلة أفخاخ).
- التعرف ما إذا كانت نصوص المقدمة والربط كافية وفعالة؛ وبالتالي كيف يمكن أن يستفيد المسؤولون عن البحث من النقاش مع أعضاء مجموعة الإختبار حول أفضل الصيغ لتطبيق الإستمارة على المستجوبين المستهدفين فعلياً بالتحقيق». (Javeau, 1992, pp 108 - 109)

هـ. الصياغة النهائية للإستمارة

أثناء الصياغة النهائية للإستمارة يجب الأخذ في الإعتبار كل ما نتج عن مرحلة إختبار الإستمارة .

وفي الصياغة النهائية على الباحث حل المسائل الآتية :

- الصياغة النهائية لكل الأسئلة، ولكل النصوص الأخرى (مقدمة تعريفية، رسائل معينة الخ)

- تحديد ترتيب الأسئلة، وموقع الأسئلة التأكيدية الخ

- إخراج النسخة الأخيرة من الإستمارة

- تحديد وسائل الوصول إلى المستجوبين؛ والوسيلة الأكثر فعالية هي تأمين إيصال رسالة شخصية لأعضاء العينة من المستجوبين قبل فترة من مرور المحقق لتعبئتها أو تسليمها، على أن تتضمن هذه الرسالة الشخصية :

* ذكر الجهة أو المؤسسة التي تنفذ لصالحها الإستمارة .

* ذكر اهداف البحث بوضوح .

* محفزات للمستجوب من أجل التعاون: إظهار القيمة العلمية للأهداف، فائدة التحقيق بالإستمارة للجماعة المحلية، ضمان سرية المعلومات الخ . .

* تاريخ المرور المحتمل للمحقق

على الرسالة أن تكون موقعة من جهة مسؤولة في المؤسسة التي تجري التحقيق . ويمكن التمهيد للتواصل بالمسجوب بمكالمة هاتفية .

- تحديد طريقة جمع الإستمارات المُدارة من قبل المستجوب إما بالإعتماد على المستجوب بعد أن تكون الإستمارة مرفقة بمغلف عليه طابع بريدي لإرجاع الإستمارة فيه إلى المؤسسة، ولكن معظم الناس يحتاجون إلى مراجعة شخصية

- الترميز المسبق (Pré-codage)، من أجل استثمار النتائج يلجأ البعض إلى ترميز مسبق لكل الأسئلة والإجابات المرفقة.

و. تدريب المحققين

ليس بالضرورة أن يتوافر دائماً محققون مهنيون. في بعض الأبحاث على الباحث التأكيد من أن التكوين المهني للمحققين يتلاءم مع نمط التحقيق الذي نرغب بتنفيذه. هناك تحقيقات تتطلب جدية ودقة أكثر (التحقيقات العلمية البحتة) من تحقيقات أخرى (شركات الاعلانات أو دراسة السوق). في حالات كهذه وعلى الرغم من الثقة الكبرى بكفاءة هكذا محققين يجب إخضاعهم لعملية التدريب نفسها التي يخضع لها محققون غير مجربين.

تختلف الكفاءات المطلوبة من المحققين بحسب نمط التحقيق المطلوب تنفيذه. والتدريب يختلف بين شخص مطلوب منه تسليم الاستمارة لشخص ليملاًها بنفسه، وبين آخر عليه أن يجمع بدقة وبأمانة وبسرعة أجوبة مستجوب لم يتسلم الإستمارة ليملاًها بنفسه.

مهما تكن درجة خبرة المحققين المكلفين تنفيذ الإستمارة عليهم أن يتدربوا جيداً على:

- أهداف التحقيق، وفرضيات العمل الأساسية، والإطار المفاهيمي العام للبحث.

- طريقة المعاينة المعتمدة.

- نمط إدارة الإستمارة (وهذا أمر يحصل من تلقاء ذاته).

- تعليمات خاصة للمحقق لجهة: الكلام التمهيدي عند لقاء المستجوبين، كيفية جمع الإستمارة، كيف تمّ إختيار المستجوب بالعينة الخ.

- الخطوط العريضة لكيفية الاستفادة اللاحقة من النتائج.

- نمط دفع المكافآت: بإستثناء الموظفين الذي يشكّلون جزءاً من المؤسسة

التي تنفذ الإستمارة، يتم عادة الإنفاق مسبقًا على تسعيرة تنفيذ الإستمارة والتي تتغير بحسب طول الإستمارة وعدد الإستمارات والمؤسسة. كما يتم الاتفاق على بدل النقل مع مراقبة دقيقة لكل ذلك.

يرتدي تدريب المحققين أهميته من أنه يؤمن لهم فهمًا موحدًا للكلمات وللأسئلة الواردة في الإستمارة، لأن أسئلة الإستمارة يجب أن تُسأل بالصياغة نفسها وبالطريقة نفسها والفهم نفسه حتى نحصل على إجابات من المستجوبين يمكن من خلالها التعميم على السكان المعنيين.

يتم تأمين تدريب المحققين من قبل المسؤول عن صياغة الإستمارة في جلسات نقاش عامة، ومن ثم ضمن مجموعات صغيرة ويتم التدرّب على الإستمارة حتى يتم التألف معها من قبل المحققين.

في حال إتسمت بعض الإستمارات بصعوبات ما يتم اللجوء إلى تزويد المتدرّب بكتيب يشرح فيه كل المصطلحات التي تحتاج إلى ذلك. كما يمكن تزويد المحققين بخارطة طريق تتضمن كل التعليمات الضرورية لإنجاز الإستمارة في أفضل الظروف.

من الضروري تزويد المحققين ببطاقة تعريف من المؤسسة التي تنفذ البحث عليها كل التواقيع والأختام الضرورية.

وعادة ما يلجأ الطلاب من أجل تنفيذ دراساتهم الميدانية، وخصوصًا في المراحل التعليمية العليا، إلى الحصول على كتاب من الإدارة المعنية (العمادة) لتسهيل مهمة الطالب لدى الجهات التي يحتاج إلى مقابلتها لتعبئة الإستمارة. وتلعب هذه البطاقات عمومًا دورًا إيجابيًا في خلق جو ثقة من قبل المستجوب بالمحقق.

ز. صفات المحقق:

«المحقق الجيد هو جوهرة نادرة» (Javeau, p 114) والصفة الأولى التي على المحقق أن يتحلّى بها هي الحيادية (la neutralité) والتي تتطلب:

- أن يقدّم نفسه بشكل لائق للمستجوب، ويشرح له باختصار دوافع الزيارة، ويعطيه فكرة صحيحة عن مهمته.

- أن يحفّز المستجوب على الإجابة، ويخلق لديه إنطباعاً جيداً.

- تقديم شروحات إضافية في حال طلب ذلك المستجوب.

- أن لا يوحي للمستجوب سواء بالكلام أو بالإشارات بأي جواب.

بشكل عام، على المحقق أن يعطي إنطباعاً أن ما يقوم به لا يعنيه بالشخصي، هو إنسان دوره الأساسي طرح الأسئلة. كذلك يجب أن تتشكّل قناعة لدى المستجوب أن إختياره تم لأنه عضو في مجموعة إجتماعية محدّدة وليس كشخص بحد ذاته.

يجب ألا ينسى المحقق أن العلاقة بينه وبين المستجوب تتسم بطابعين، طابع نزاعي وطابع ودي. يجب التنبه لإبقاء هذه العلاقة عادية وسطحية قدر الإمكان، لذلك فإن طريقة تقديم المحقق لنفسه أمام المستجوب، وإرتداء الملابس المقبولة، وتقديم بطاقة التعريف، وشرح أسباب الزيارة، والتأكيد على أن المعلومات التي يُدلي بها المستجوب ستبقى سرّية ولن يُطلع عليها أحد، كلها مقدّمات من أجل كسب ثقة المستجوب لأنها شرط أساس للحصول على معلومات أقرب إلى حقيقة مواقفه وواقعه.

يجب الإلتباه أيضاً إلى ضرورة إرسال المحقق الملائم للمستجوب.

ح. خطوات أخرى أثناء التنفيذ الميداني للإستمارة ومنها:

- مراقبة المحققين:

إحترام الروزنامة الموضوعية، التأكيد من أن الإستمارات يتم ملؤها مع الأشخاص المحدّدين بالعينة (الإتصال تلفونيا أو زيارة مفاجئة للمستجوب للتأكد من أن المحقق قد حضر إلى عنده)، إنجاز العدد المطلوب من الإستمارات الخ.، متابعة عمل المحققين بإستمرار للتأكد من أنهم ينجزون عملهم بإتقان.

- جمع الإستمارات :

في الوقت المحدد لها وتصنيفها حسب التسلسل الرقمي أو حسب المنطقة الخ.

- مراقبة الإستمارات :

بعد الحصول على الإستمارات يجب التدقيق بها : هل الإستمارات كلها مملوءة؟ هل الإجابات تظال كل الأسئلة؟ هل الإجابات مقروءة؟ عدد الأسئلة التي لم تحصل على جواب؟ وهل هذا العدد هو كبير؟ هل تمّ إحترام التوزيع حسب الحصر؟

- دفع تكاليف المحققين :

بعد التدقيق في الإستمارات والتأكد من صحتها على المسؤول عن البحث أن يدفع للمحققين أتعابهم . ووضع تقييم على بطاقة كل محقق، من أجل تشكيل فريق عمل إحتياطي من المحققين .

ط . فرز الإجابات و تحليلها

تتوافق الاستمارة عادةً مع التحليل الكمي بسبب أن معظم الأسئلة هي أسئلة مغلقة أو أسئلة تقويمية ومروحية، أي يسهل عدّها وفرزها وتبويبها سواء يدويًا للأعداد القليلة أو معلوماتيًا للأعداد الكبيرة .

وتفرز النتائج وتبوّب في جداول بمتغير واحد، أو بمتغيرين أو أكثر حسب الدلالة في الربط بين متغيرين .

الآ أنه توجد بعض الأسئلة المفتوحة التي تتطلب تحليلًا للمحتوى، وهو تحليل لا يمكن إختصاره بكلمات بسيطة في هذه المحاضرة وإنما يتطلّب محاضرة خاصة .

لم يتمّ التركيز على نقطة التحليل، فقد تابع قسم من الأساتذة و الطلاب دورات التحليل الكمي من خلال برنامج «SPSS» وللتحليل النوعي من خلال برنامج «أطلس تي» .

ما يمكن قوله أن تحليل النتائج يرتبط بفرضيات العمل التي تمت صياغتها خلال الإنضاج النظري.

ي. حدود الإستمارة:

يفترض البعض واهماً أن مجرد إستخدام الإستمارة يعني أنه تحصيل على معلومات علمية، وهذا خطأ شائع لدى البعض؛ فالإستمارة، كما كل التقنيات الأخرى المستخدمة في العلوم الاجتماعية لها حدود معرفية. وتخضع الإستمارة كغيرها من الوسائل في العلوم الاجتماعية إلى جملة من التحيزات، ومنها:

- طالما أنّ التقنيات تُبنى من قبل الباحث، يعني ذلك أنها عرضة لتحيز الباحث؛
- مدى ملاءمة الإستمارة للموضوع. فالبعض يستخدم إستمارة في مواضيع لا يتلاءم إستخدام الإستمارة معها وهو ما يؤدي إلى إنحراف في النتائج.
- بناء الإستمارة نفسها والمساومات التي يخضع لها وخصوصاً إختيار أسئلة محدودة من بين كم هائل من الأسئلة (الإختيار فيه أفضلية وتقدير وأحكام ذاتية).
- مدى حيادية الأسئلة المستخدمة، و مدى دقة الأسئلة المستخدمة ومدى وضوحها.
- مدى دقة تسجيل الإجابات من قبل المحقق، ومدى وضوح الإجابة من المستجوب وتدويناً من المحقق.
- التحيز في أنواع الإجابات نفسها.
- كيفية تأويل الإجابات من قبل الباحث ومدى صوابية التحليل الكمي للمعطيات الكمية، والنوعي للمعطيات النوعية، ومدى صوابية الربط بين المتغيرات في الإستمارة

ونختم مع بيار بورديو بالقول «في كل مرة يكون عالم الاجتماع غير واع للإشكالية التي تنطوي عليها الأسئلة التي يطرحها، فإنه لن يتمكن من فهم الإشكالية التي تنطوي عليها إجابات المستجوبين».

المراجع

- BERTIER N. (2012). *Les techniques d'enquêtes, méthodes et exercices corrigés*. Armand Colin, Paris.
- BLANCHET A., GHIGLIONE R., MASSONNAT J., TROGNON A. (2000). *Les techniques d'enquêtes en sciences sociales*. Dunod, Paris.
- FENNETEAU H. (2002). *Eenquête: entretien et questionnaire*. Dunod, Paris.
- GRAWITZ M. (1986). *Méthodes des sciences sociales*. Dalloz, Paris.
- GUIBERT J., JUMEL G. (1997). *Méthodologie des pratiques de terrain en sciences humaines et sociales*. Armand Colin, Paris.
- JAVEAU C. (1992). *L'enquête par questionnaire*. Université de Bruxelles, Bruxelles.
- LORENZI - CIOLDI F. (1997). *Questions de méthodologies en sciences sociales*. Delachaux, Paris.
- MOZER, CA. (1986). *Survey methods in social investigation*. Grawitz.
- MUCCHIELLI R. (1989). *Le questionnaire dans l'enquête psychosociale*. Paris.
- DE SINGLY F. (2003). *L'enquête et ses méthodes: le questionnaire*. Nathan, Paris.
- ريمون كيني، لوك فان كمبنهود (١٩٩٧)، دليل الباحث الاجتماعي، تعريب يد يوسف الجباعي، المكتبة العصرية، صيدا.
- رودولف غيغليون، بنيامين ماتالون (١٩٨٦)، البحث الاجتماعي المعاصر، مناهج وتطبيقات، ترجمة د. علي سالم، منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت.

تعدد أنواع الوثائق ومنهجية دراستها

سعاد سليم^(١)

منذ زمن ليس ببعيد، كانت الوثائق منحصرةً فقط بالأوراق القديمة، ومن هذه الأوراق كانت المراسلات الدبلوماسية هي الحائزة على الاهتمام الأكبر لاعتبار المؤرخين أنّ تاريخنا يُصنع في الخارج من قِبَل السفراء والقناصل الأجانب، وأنّ العوامل المحليّة وأهل البلاد ليسوا سوى «كومبارس» وديكور في مسار الأحداث وتطوراتها. في هذا الصدد، قام المؤرّخ السفير عادل إسماعيل بنشر المراسلات الدبلوماسية العائدة لفرنسا خلال الفترة العثمانية وذلك ضمن ٣٨ مُجلدًا (Isma'il Adel, 1975 - 2008). أمّا الآن فإنّ كلّ شيءٍ أو كلّ ورقةٍ أو كلّ دفترٍ يمكن اعتباره شاهدًا لأحداث التاريخ وتطوُّر أحوال أهل البلاد. إلى جانب هذه الوثائق المرتبطة بتطوُّر علم التاريخ، الذي تفرع إلى تاريخ اقتصادي - تاريخ اجتماعي - تاريخ العقليات - تاريخ ديموغرافي، فإنّ التاريخ ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالجغرافيا الضيقة (مونوغرافيا حدث الجبة للمؤرّخ توفيق توما) (Touma Toufic: 1958)، أو الجغرافيا الواسعة الشاملة عدة بلدان وعوالم (البحر المتوسط لفرنان بروديل) (Braudel Fernand). أصبح بإمكاننا الآن أن نعتمد على أمور كثيرة أخرى مختلفة عن الوثائق

(١) سعاد سليم، رئيسة قسم التاريخ في جامعة البلمند souad.slim@balamand.edu.lb

الورقية، فلدينا العديد من الوثائق الجديدة التي يمكن الاعتماد عليها. وبما أنني متخصصة بالتاريخ الريفي كانت هذه الوثائق الجديدة مفاجأة لي بسبب غناها واحتوائها معلومات تاريخية يصعب أن نجدَها في الوثائق الورقية. إلى أي مدى يمكن اعتبار الرواية، الزجل، الأفلام مصدرًا أساسيًا للتعرف إلى الماضي كما عاشه أهلُه وإلى ما عانوه من ألم وصعوبات، لكن أيضًا من فرح ولهو مما جعلهم يتزاجون ويتكاثرون؟

إنَّ عَصْرَنَا الحاضر شهدَ نشأةَ الفن السَّابع مع الأخوين لوميير، فَمِنَ البديهي أن تصبح الأفلامُ وثائقَ يمكن الاعتماد عليها للتعرف إلى خبايا التاريخ، وبخاصة أن هذه الأفلام اعتمدت بشكل أو بآخر على الوثائق، أو أنها استعملت مقتطفاتٍ من الأرشيف السينمائي خلال عملية التصوير أو المونتاج. كيف يمكن أن نتعرف إلى الحركة النقابية وحياة العمال والعاملين في المناجم دون رؤية فيلم «جرمينال» وفيلم «العصور الحديثة» لشارلي شابلن؛ هذه الصناعات التي اختفت من المشهد الاجتماعي الاقتصادي الأوروبي هي التي صنعت أوروبا بعد الثورة الصناعية وكانت أساس سيطرتها على العالم.

هل يمكن فهم دور المافيا الإيطالية في الولايات المتحدة ودور المهاجرين في بدء القرن العشرين دون رؤية أفلام كوبولا وإفلام إيليا قازان؟

على صعيد السينما اللبنانية، يشكل فيلم «إلى أين؟» لجورج نصر العام ١٩٥٧ وثيقةً تنقل لنا صعوبات الحياة في الأوساط الريفية وأزمة هجرة اللبنانيين إلى المُغْتَرَبَات. فهو عبْر هذا الفيلم ينقل لنا صورةً توثيقيةً عن الحياة الزراعية من تعدد الانتاج إلى تجاور الزراعة وتربية الماشية وحياة اللهو من رقص وأعراس في الحياة القروية. وهو خلال ٢٠ سنة من حياة عائلة قروية ينقل لنا صورة توثيقية عن مباني القرية وأثاث المنازل وثياب الناس. كما أن جورج نصر وبسبب خبرته الخاصة هو الوحيد من تلك المرحلة الذي ينقل لنا صورة سلبية وحتى مأسوية عن الهجرة في عالم الاغتراب (جورج نصر، ١٩٥٧).

في هذه الفترة كانت الكتب المدرسية كالجغرافيا للصف الثالث المتوسط ترصد أربعة أسطر للحديث عن مساوئ الهجرة وصفحتين لتعداد منافعها.

نموذج آخر عما نستطيع اعتباره وثيقة أساسية في التاريخ الزراعي هو رواية «حنّ المجنون» التي يرويها جبران خليل جبران عن أوضاع الفلاحين الشركاء في علاقاتهم مع السلطات الدينية. فحتى لو أنها لم تكن بهذا القدر من المأسوية في كل المناطق إلا أنها تعطينا فكرة عن أوضاع الشركاء الفلاحين في شمال لبنان وتأثير الديون عليهم في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين (جبران خليل جبران: ١٩٠٦).

يمكننا أيضًا أن نعود إلى نصّ زجلية نَشَرها المؤرّخ عيسى اسكندر المعلوف في مجلة المشرق العام ١٩٢٠ وعَنَوْنها «زجلية في وصف الغلاء والجوع والضيق»، قَصَدَ فيها أن يذكّرنا بأيام المجاعة التي مرّت بها البلاد خلال الحرب العالمية الأولى. هذه الزجلية التي وَجَدَها في إحدى مخطوطاته تنقل لنا أحداث العام ١٧٩٠ عندما طلب الأمير بشير من الجَرَّار ضَرْبَ الحصار على موانئ جبل لبنان كي يُقنع الأهالي أنه هو الحاكم الملائم الصالح لحكم هذه البلاد. مؤلّف هذه الزجلية يصف لنا تدهور أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية وكيف أنّ البطالة امتدت إلى كل الأشغال، وأنه هو الذي كان مزارعًا وتاجرًا صغيرًا في قريته أخذ يبيع كلّ ما لديه ابتداءً من الدكان وحتى أثاث البيت، وكيف تحوّل هو وعائلته إلى التسول حيث دَقّوا أبواب الأديار والأمراء دون أن يحصلوا على شيء يُذكر. يَدُكّر لنا الزجّال أسباب هذه الكارثة التي وقعت على البلاد من الصراع على السلطة إلى غلاء أسعار المواد الغذائية إلى ارتفاع قيمة الضرائب وفرض البلّص على السكان وإفقال المرافئ. وكما تعود اللبنانيون في أيام الصعوبات، يسعى المؤلّف إلى الهجرة إلى بلاد أخرى، ويستعرض أحوال البلاد المجاورة فيجد أنها كلّها سيئة بسبب الصراعات والجوع أو حتى من البخل، فَيَقِرُّ أنّ يبقى في بلاده منتظرًا الفرج من الله. يصف لنا الكاتب كيف تمكّن من مواجهة هذه الأحوال الصعبة وكيف

أنه بعد أن فقد زوجته واثنين من أولاده استطاع أن يستمر على قيد الحياة مع أولاده التسعة عبر أكل السليق والأعشاب البرية. ما يلفت النظر في هذه الزجلية أن الكاتب حافظ حتى النهاية على الأمل بأن تأتي المواسم الزراعية مُرضية وأنه كتب هذه الزجلية ليُعرف أحفاده على الأيام الصعبة التي عاشها وأن كتابة هذه الزجلية هي بطريقة أو بأخرى كتابةً لتاريخ «ينذكر وما ينعاد» (عيسى اسكندر المعلوف، ١٩٢٠).

إلى جانب الرواية والزجل أو الشعر الشعبي والأفلام لدينا أشياء من التراث أصبحت تُجمع في المتاحف الأنثروبولوجية التي تُنشأ في الجامعات أو الأديار أو بعض القرى. فهي تحوي كل تراث الحياة الماضية من أوانٍ وملابس وأدوات زراعية وأثاث منزلي وأمور كثيرة أخرى. لكل قطعة من هذه الأشياء اسمٌ يختلف من مكان إلى آخر، ولكل شيء قصّةٌ وجّهت تطوّره. كلُّ هذه الأدوات والقطع تروي لنا حياة الناس وطريقة معيشتهم، حتى أن الاهتمام بالماضي أصبح الآن يشمل طُرُق الطهي ونوعية الأكل والوصفات التقليدية بخاصة بعد أن اكتشف بعض العلماء أن نظام الغذاء في حوض البحر المتوسط هو الأقل ضرراً والأفضل لصحة الإنسان. أصبحت الدراسات الأنثروبولوجية تعود إلى المتاحف وإلى الأدوات الزراعية التي لا تزال مُستعملة في المناطق الريفية التقليدية كي تفهم تكوّنات ومؤسسات المجتمعات القديمة (متحف في دير مار أنطونيوس قزحياً، ومتحف في جامعة البلمند).

إنّ الحنين إلى الماضي في القرى كما في المدن أدى إلى شغف جماعي بالأثريات والأشياء القديمة حتى لو أنها لم تكن كثيرة القِدَم. كما أنّ السعي إلى معرفة الجذور والأصول مهّد إلى سباقٍ بين العائلات اللبنانية لتصميم ورسم شجرة العائلة لكل جماعة (عائلة) أو مجموعة عائلات. وحتى لو أنّ الجذور القديمة اضطرت الباحثين إلى اعتماد قصص وأساطير لا يمكن التأكيد من صحتها إلا أنّ تغطية المراحل الحديثة والمعاصرة من شجرة العائلة يفترض العودة إلى وثائق الأحوال الشخصية من دفاتر زواج وعماد ووفيات متوفرة لدى المخاتير أو لدى الرعايا (عيسى اسكندر المعلوف، ١٩٠٨).

لدينا أيضًا وثائق جديدة مشتركة بين العلوم الإنسانية، بدأ الباحثون بالاعتماد عليها في دراساتهم كمصدر أساس أو مُتمم للمصادر التي يعتمدون عليها، نقصد بها التاريخ الشفهي. هناك الكثير من جوانب تاريخنا الحديث التي لا يمكن أن نفهمها من دون العودة إلى الحديث مع أشخاص لديهم الخبرة ذاتها أو منهج الحياة ذاته. كما أن الكثير من تعابير الوثائق لا يمكن أن نفهمها إلا إذا عُدنا إلى القرى والناس والأطر الجغرافية التي أنتجتها. لقد بدأ التاريخ الشفهي يعتمد على المقابلات وعلى السَّير الذاتية في الدول التي لم يكن لديها تاريخ قديم مكتوب أو حيث تقليد الكتابة ليس قديمًا، مثل الولايات المتحدة وبولونيا. ثم إنَّ هناك قطاعات واسعة من المجتمعات مُعتمَّ عليها لا ذُكر لها في التاريخ الرسمي. فالتاريخ الرسمي هو تاريخ الحُكَّام والمنتصرين، لا ذُكر فيه للفلاحين والنساء والعمال والمعلمين (مسعود الضاهر، ١٩٩٦) وكثير غيرهم. هذه المنهجية أصبحت رائجة لدى معظم باحثي العلوم الإنسانية؛ نجدها في الأدب وفي علم النفس والعلوم السياسية والتاريخ وعلم الاجتماع والعديد من الاختصاصات الأخرى.

I - العلاقة بين التاريخ والعلوم الإنسانية

الاعتماد على التاريخ الشفهي ليس وحده العامل المشترك الوحيد بين مختلف اختصاصات العلوم الإنسانية، إذ ثمة الكثير من التقنيات التي أصبحت أساسية ومشاركة لدى كل فروع العلوم الإنسانية، فالإحصائيات والمعلوماتية والاقتصاد والجغرافيا دخلت مجال العلوم الإنسانية وأصبحت تشكل أدوات عمل أساسية في تنفيذ الدراسات وفي منهجيتها.

كيف حصل هذا التداخل بين مختلف اختصاصات العلوم الإنسانية؟ لقد شهدت العلوم الإنسانية وعلم التاريخ بشكل خاص تحولات كبيرة خلال القرن العشرين. لقد أحدثت الأزمة الاقتصادية العالمية العام ١٩٢٩ صدمة مادية ومعنوية حُضت مُعاصريها على معرفة أسبابها، فانطلقت مجموعة دراسات

اقتصادية لمعرفة أسباب هذه الأزمة . وانكبت هذه الدراسات على البحث عن تاريخ الأسعار من مواد غذائية وغيرها . كانت هذه الدراسات ، مع مدرسة «الانال» في فرنسا ، منطلقاً لانقلاب جذري في دراسة التاريخ (Chaunu 99 - 71, Pierre, Tome II, p. 71). لم يعد التاريخ هو سرْد للأحداث المتتالية وتتبعاً للمعارك ولسير كبار الحكام من ملوك وقواد بل اعتبرت حالة الناس الاقتصادية والاجتماعية هي الأساس لانطلاق الأحداث واندلاع الحروب وسير المعارك. بذلك لم يعد كبار القوم وعظماؤهم هم محرّكو التاريخ ، بل هي حركة ناتجة عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية التي سادت في مناطق أو بلدان معينة وفي مراحل معينة وكانت أساس انطلاق الأحداث في العالم .

أصبح التاريخ يشكّل الإثبات الذي كانت تفتقده العلوم الإنسانية لتؤكد القواعد أو القوانين التي تعتمد عليها ، وأصبح التاريخ مرتبطاً بالديموغرافيا والاقتصاد والمجتمع (Chaunu Pierre, 1978, p. 121)، ولدينا عدة أمثلة في هذا المجال . فإذا ما تحدثنا عن عدد سكان حلب في القرن الثامن عشر يكون ذلك دراسة تاريخية أمّا دراسة عدد السكان في بيروت في القرن العشرين هو دراسة علم اجتماع - ديموغرافيا . لقد أصبحت الديموغرافيا دليلاً على أوضاع السكان ونموهم عبر التاريخ . فكتاب يوسف كبراج وفيليب فارغ يُظهر عبر الدراسات الديموغرافية للجماعات اليهودية والمسيحية في العالمين العربي والتركي ، أنّ هذه الاقليات لم تتعرض للاضطهاد بل تبدّلت أوضاعها وتحولت حسب التأثيرات الخارجية والداخلية ، وأنّ ارتفاع نسبة هذه الأقليات إلى عدد السكان الإجمالي لهو دليل على تحسن أوضاعهم في البلاد التي يعيشون فيها (Courbage Youssef et Fargues 1997).

إذا تحدّثنا عن الموت والخوف منه في القرن العشرين يكون هذا البحث ضمن علم النفس ، أمّا إذا تحدّثنا عنه في القرون الوسطى يكون ذلك بحثاً تاريخياً . كذلك الأمر إذا درسنا المشاكل التي تتعرض لها زراعة التفاح في لبنان خلال القرن الواحد والعشرين يكون ذلك ضمن الاقتصاد الزراعي ، أمّا

إذ تحدثنا عن زراعة شجرة التوت وتربية دود القز في القرن الثامن عشر يكون ذلك من ضمن التاريخ الزراعي أو الريفي .

لقد توسّع، حالياً، الاهتمام بالتاريخ ولم يعد محصوراً بالمؤرخين وحدهم. فالكثير من الأدباء يستوحون من الماضي للانطلاق برواياتهم أو بمذكراتهم. كل روايات شريف مجدلاني أو عزّة آغا ملك تنطلق من تاريخ عابر وأحداث ماضية، كما أن العديد من الدراسات تُخصّصُ قسمًا مهمًا من صفحاتها للجذور التاريخية التي تتراوح بين اللوحة الموجزة والفصل أو المقدمة المطوّلة. لقد دخل التاريخ إلى علم اجتماع المعرفة من بابه العريض في كتاب أحمد بيضون المُترجم «الصراع على تاريخ لبنان» (أحمد بيضون؛ ١٩٨٩).

هذا الإقحام للتاريخ في الكثير من الأعمال الأدبية والسينمائية وعلم الاجتماع، لربّما هو مرتبطٌ بتنوّع أشكال وطبيعة الوثائق التي يمكن أن تتوزع من حيث مكان وجودها الجغرافي بين وثائق المدن ووثائق الأرياف.

II - أنواع الوثائق

١ - الوثائق الرسمية

رأينا في البدء أن الوثائق الرسمية والمراسلات الدبلوماسية وكتابات الرحالة والإخباريين شكّلت لكلّ اللبنانيين المصدرَ الأساس لكتابة تاريخهم. فالتاريخ السياسي كان من إنتاج المؤرخين الإخباريين الذين كانوا مرتبطين بالأمرء والحكّام. ميخائيل مشاقة (١٩٨٥) وحيدر الشهابي كانا مؤرخين تابعين للأمرء الشهابيين في وادي التّيمّ وبيت الدين. إبراهيم الصّبّاغ (حيدر الشهابي ١٩٨٥)، كان من كُتّاب الجزار أمّا إبراهيم العورة (١٩٨٩) فكان كاتبًا لدى والي عكا سليمان باشا.

أمّا الرّحالة فكانوا ينظرون إلى الشرق من منطلق حنينهم إليه ومن منطلق

مصالح دُولهم . هل كانوا أكثر موضوعية في الحديث عن قضايا الشرق بسبب عقلانيتهم وبسبب بعدهم عن مشاكل المنطقة؟ وهل كان المؤرخون الإخباريون أكثر معرفة وتيقُّنًا للمشاكل التي عايشوها وراقبوا تطوُّرها؟ هذه التواريخ كما درسناها كانت في معظم الأحوال صراعًا على السلطة ومنافسة بين أفراد العائلة الواحدة، وعنفاً وقتلاً وحروباً يدفع ثمنها الأهالي، ولا يمكن أن نفهمها إلا إذا عُذنا إلى جذورها الاقتصادية: عملية جباية الضرائب عبر الالتزام.

٢ - الوثائق في الأرياف

الوثائق في الأرياف، عامّة ما نجدها محفوظة في البلديات ولدى المخاتير الذين في مرحلة ما كانوا يشرفون على سجلات الأحوال الشخصية وسجلات الأراضي وتوزيع الضريبة في القرية. ولدينا مصادر أخرى للوثائق أكثر قِدماً تمَّ رصدها واكتشافها منذ نصف قرن هي وثائق الأديار حيث لدينا الحجج والحسابات والمراسلات وفي بعض الأحيان المذكرات والحواليات (Slim Souad,1987).

٢. أ. الحُجج العقارية

الحجج العقارية هي أوراق ثبوتية تؤكّد ملكية أو وُقُفيّة الأراضي للدبير وهي تحتوي على عبارات محدّدة متكررة في كل مرة، وقد كُتبت بتنظيم متشابه الأقسام يتضمن أسماء البائع والشَّاري، موقع الأرض وإنتاجها مع سعرها وحدودها، إلى جانب العبارات القانونية التي تؤكّد أنّ عملية انتقال الملكية جَرَتْ بكامل الرضى وأنّ البائع هو صحيح العقل والجسد. من هذه الأوراق المتعلقة بالشؤون العقارية لدينا: حُجج التبادل أو المقايضة، حُجج الشراكة أو المُؤارَقة، وحُجج تحديد الأراضي التي تأتي في بعض الأحيان لِتُنهي خلافًا أو دعوة.

٢. ب. المراسلات

وهي تكون بين الأديار والأساقفة أو البطارقة الذين يقع الدير تحت

إشرافهم. وهي في محتواها تذكيرٌ بالواجبات والأمور التي يُفترض برئيس الدير أن يقوم بها، وهي أحياناً تقارير حول الحياة الروحية والاقتصادية للجماعة الرهبانية، أو هي إعلامٌ بالقيام بأشغال داخل الدير.

كما أن هناك مراسلات مع السلطات الزمنية من أمراء وحكام وقضاة نتيجة اعتداءات على أراضي الدير أو نتيجة خلافات مع الفلاحين الشركاء (كما في دير الخنشارة) أو خلافات على الحدود بين ديرين كما في دوما بين مار يوحنا ومار يعقوب، فكلٌّ من الطرفين يتوسل أحد الحكام ليشرح له قضيتَه وليقنعه بوجهة نظره.

٢. ج. الفواتير والحسابات والوصولات:

هي أيضاً أوراقٌ متفرقة، نوعيتها أخفّ من تلك التي نجدها في الحُجَج والمراسلات،

وهي في بعض الأحيان قصاصات مأخوذة من أكياس أو من دفاتر تُستعمل كمُسوِّدة قبل نقلها إلى الدفاتر الرسمية. وهي كثيراً ما تكون مهمّة لأننا لا نجد أثرًا لها في الحسابات. أمّا الوصولات فهي عامّة صادرة عن السلطات الرسمية وهي تثبت دفع الضرائب المستحقة للدولة (Slim Souad, 2007, p 16).

٢. د. السجّلات:

وهي بشكل عام عائدةٌ إلى الأحوال الشخصية، تنقل لنا سلسلاتٍ من الأسماء والتواريخ والأرقام حول العمادات (الولادات) والزيجات والوفيات للقري والرعايا. وهذه السجلات أصبحت أساسية في مجال دراسات التاريخ الديمغرافي.

كما لدينا سجلات المساحة التي تُحدّد ملكية الأراضي في كل قرية مع اسم المالك ونوعية الإنتاج وكميته التي تُسجّل حسب قيمة الإنتاج بالحبّة والدرهم والقيراط: ٢٤ حبة = ١ قيراط، ٢٤ قيراط = ١ درهم.

٢. هـ. سجلات المحاسبة:

وهي تسجل كل مصاريف ومداخيل المؤسسة أو الدير أو الدكان، وهي على ثلاثة أنواع: دفاتر اليومية، دفتر الشركاء ودفتر الأستاذ. هذا الأخير يشكل الناتج النهائي لدراسة ميزانية مؤسسة ما، ديرًا أو مدرسة أو دكان. وهو ينتظم لكل سنة حسب المداخيل والمصاريف على صفحتين متقابلتين ويُمهَر بالتوقيع الرسمي ويُختم ويُؤرَّخ حسب كل سنة. بينما اليومية هي أشبه بالمُسوَّدة التي يُسجَّل عليها كل المداخيل والمصاريف يوميًا. أمَّا دفاتر الذمم والأفراد التي تُدعى أيضًا دفاتر الشركاء فهي تسجل حسب كل شخص على حدة مع كل ما يتوجب عليه أو يفترض أن يقبضه من صاحب الملكية أو الوقف.

٣ - سجلات المدن:

هي بمعظمها سجّلات المحاكم الشرعية والمطرانيات والبطيريكيات.

٣. أ. سجّلات المطرانيات والبطيريكيات:

المطرانيات أخذت تحتفظ بوثائقها بعد أن أناطت الدولة العثمانية بها مسؤوليات إدارة الشؤون الدينية والمدنية والتربوية لرعاياها. وأوكلت لجانًا من العلمانيين الإشراف مع الإكليروس على شؤون إدارة أحوال الأوقاف ودفع الضرائب والمؤسسات التربوية والخيرية لدى كل جماعة دينية غير مسلمة. أتت هذه الإصلاحات نتيجة التنظيمات التي أجرتها الدولة العثمانية في العام ١٨٥٦ وأعطت عبرها المساواة بين كل رعاياها ومنعت أي تفرقة أو إجحاف بحق الرعايا غير المسلمين (Mayeur Jaouen Catherine vol 11, p. 792 - 849).

هذا مع جعلنا نجد في المطرانيات سجّلات دفع ضريبة بدل العسكرية والضرائب الأخرى، وأصبحنا نجد العديد من المعاملات العائدة للمواطنين الأرثوذكس أو غيرهم مُسجَّلة في سجلات. هذه المعاملات تتراوح بين عمليات نقل الملكية، المراسلات، والمعاملات مع الدولة. كما أنّ هذه الفترة

شهدت ازدهاراً لعمليات العمار التي كانت من قبل صعبة ومشروطة بقيود عدة. فلدينا عمار الكنائس والمدارس والمستشفيات التي انطلقت في هذه الفترة والتي حفظت دفاتر كلفة عمارها ضمن هذه المحفوظات. كما أنّ فترة إنشاء المجالس المِلِّيَّة ترافقت مع تأسيس العديد من الجمعيات الدينية التربوية الثقافية والخيرية والاعتناء بالأيّام والمسنين. وأقدمت كلُّ جمعية على تأسيس مؤسسة تابعة لها تشرف هي على أعمالها وتنظيم شؤونها. لقد كانت فترة ولاية مدحت باشا على سوريا مرحلة ازدهار لتأسيس الجمعيات والنوادي. فهذه الجمعيات كانت تُصدِرُ في كل سنة كُتُبًا تشرح فيه إنجازاتها وتشكر المُحسِنين المتبرِّعين لها كما أنها كانت تنشر في هذا الكُتَيْب الحسابات من مصاريف ومداخيل مُظهِرَةً شفافية أعمالها ومشجعة المحسنين إليها لمزيد من الكرم (محفوظات مطرانية بيروت ١٩٩٥).

٣. ب. وثائق المحاكم الشرعية:

أخذت تشكّل مصدرًا أساسيًا لدراسة تاريخ المدن منذ أكثر من أربعين سنة. هي سجّلات نُقِلت إليها الوثائق التي تحتوي معاملات الناس الرسمية ودعواهم خلال الفترة العثمانية. فالوثائق الأصلية بقيت مع أصحابها يمكن أن نجدها عند الأفراد أو العائلات والمؤسسات. وهذه المحاكم هي المحاكم الرسمية في كلّ المدن العثمانية. وشكّلت هذه السجلات في الفترة الأخيرة المصدر الأساس لكتابة تاريخ مدن بلاد الشام السياسي والاقتصادي والاجتماعي. وكان السبّاق في ذلك الأستاذ عبد الكريم رافق في دمشق، وطلال مجذوب في صيدا، ومجموعة من أساتذة العلوم الاجتماعية في طرابلس: خالد زيادة، فريدريك معتوق وفاروق حبلص، وغيرهم في بيروت وحلب وحماة وحمص. هذه المحاكم التي تحكم على أساس الشرع الإسلامي لم تقتصر على المسلمين بل شملت أحكامها اليهود والمسيحيين الذين حتى بعد قيام المحاكم الخاصة بهم كانوا دائماً في نهاية القرن التاسع عشر وبدء القرن العشرين يعودون إلى المحكمة الشرعية، بخاصة لتسجيل الوثائق العائدة

للأوقاف والكثير من الشؤون الأخرى الضرورية لإتمام معاملاتهم (Al (Noqari
30 - 15 p. (Sheykh Mohammad, 2005).

أهمية هذه السجلات والوثائق التي تحتويها أنها تخالف ما هو متعارف عليه في ما يتعلق بأمرين أساسيين: أولاً ما يتعلق بوقف الاجتهاد في تفسير أحكام المدارس الشرعية الإسلامية في القرن الحادي عشر؛ أي أنه في هذا القرن توقّف باب الاجتهاد. فالعلماء المؤرّخون الذين يدرسون هذه الوثائق يعتبرون أنّ الفتوى التي أصدرها القضاة والمفتون في المدن الإسلامية خلال هذه الفترة ليست سوى اجتهادات جديدة لتطبيق الشرع الإسلامي على الأمور الحديثة المستجدة والتي توجب التأقلم معها أو إيجاد حل مقبول لها. أمّا الأمر الثاني فهو الفرق بين التوجيهات القانونية وما يجري على الأرض من حيث العلاقات بين المسلمين والمسيحيين. فالتعامل كان رهناً بانتماء المتقاضين أو طالبي المعاملات إلى طبقة اجتماعية معيّنة أكثر مما كان متعلّقاً بانتمائهم الديني. كما أنّه في قضية شهادة المسيحيين في المحكمة الشرعية لم يكن الأمر يحتاج إلى شهادة مسيحيين اثنين في مقابل شهادة مسلم واحد. وكثيراً ما كانت المحكمة تنتقل مع القاضي والسجل والشهود لتنعقد في بيت أي من التجّار أو الكُتّاب المسيحيين لدى حاجته لها وتدعوه «فخر الأمة العيساوية».

III - المنهجية

بسبب عدم وجود كتاب تاريخ موحد، وبسبب الانقسامات السياسية والطائفية في بلادنا، اعتبّر الكثيرون أنّ تاريخ لبنان يفتقد إلى الموضوعية. يمكنك أن تجدّ الحلّ لمشكلة الموضوعية عبر اعتمادك منهجية سليمة. في ما يتعلّق بوثائق الوقف، من الضروريّ أن يكون لديك تاريخ يأخذ في الاعتبار مختلف الأوضاع والمشاكل.

وبسبب طبيعة هذه الوثائق، ووجودها في معظم المناطق اللبنانية، وبما

أنها تغطي مدة قرنين على الأقل، فهي تعرض لنا تاريخاً متسلسلاً وكمياً. يمكننا أن نحدّد التاريخ المتسلسل كأى مقارنة تاريخية ترتّب وقائع إحصائية، بفضل معطيات متجانسة، تمتدّ على مراحل زمنية منتظمة على المدى الطويل. مع التاريخ المتسلسل يدخل العنصر الكميّ في حقل الدراسة. بالطريقة التقليدية، كان الرقم العدديّ يستخدم منفرداً وبطريقة سردية، ولكنه يصبح في التاريخ المتسلسل أداة أساسية في فهم التطور التاريخي، وذلك على مستوى النزاعات الطويلة الأمد والتقلّبات القصيرة الأمد (Le Goff Jacques). (1975)

هذا أسلوب تاريخيّ مفيد، فهو لا يهتم كثيراً بالوقائع الفرديّ، بل بالعناصر المتكرّرة القادرة على الاندماج في تسلسل متجانس. مجموعة كهذه قد تتطابق أو تتشابه مع مجموعة أخرى مستخدمة في علوم إنسانية أخرى. المحفوظات التي جرت دراستها حتّى هذا الحين لا تذكر أيّ واقعة فردية أو سياسية أو ثقافية أو اقتصادية. لكن من جهة أخرى، بما أنّ هذه الوثائق جزء من تسلسل متجانس، فهي تحتوي على وقائع أساسية متكرّرة وعلى معطيات عديدة (93 - 69, Furet François, 1986 tome 1, p. 69 - 93). بعض المجموعات تغطي مدة ٣٠ إلى ٧٠ سنة، في حين أنّ مجموعات أخرى تغطي قرنين أو ثلاثة قرون. تسمح لنا هذه المجموعات بالتحقّق من وقائع تاريخية ومعطيات معروفة موجودة ضمن الوثائق.

هذه الأرقام وهذه البيانات، المتكرّرة في هذه المحفوظات، قد تعتبر برهاناً على نمط حياة وعلى مستوى العلاقات الخاصة بمجتمع له طرائقه في تأمين معيشته.

هذا النهج يحتمل وجود الأمانة والدقّة بنسبة أكثر، لأنّه يُدخل المعلومة الكمية المأخوذة من الكتاب في سلسلة من المعطيات حيث البراهين متعدّدة (Chaunu Pierre 1978: p. 22). استخدام الوثيقة ككلّ يعطينا هامشاً أوسع من الدقّة، في ما يتعلّق بالأحداث التي نوّد وصفها وبالنتائج التي يمكن أن نحصل عليها. نميل إلى أن نرى عبر الوثيقة ما يتلاءم وتوقعاتنا.

الاستخدام الجزئي للوثيقة قد ينجم عنه إثبات نظريّات متناقضة. هذا الأسلوب ضروريّ، بخاصّة لأنّ وثائق الأديرة والمطرائيات مرتبطة بدراسة التاريخ المتسلسل والكمّيّ (Furet François op cit, p. 51 - 52).

في الواقع، نجد في هذه المحفوظات المصادر الرقمية التي إذا استعملها المؤرّخ أجب عن الأسئلة المرتبطة مباشرة بموضوع الدراسة. على سبيل المثال، دفاتر المحاسبة، لوائح الجرد الوقيّة، والحجج، تساعدنا على دراسة توسّع الوقف وعلى إدارته.

الحواشي في المخطوطات الدينيّة، حجج تأسيس الأوقاف، والدعاوى، تسمح لنا بمعرفة تطوّر الأوقاف على الصعيد السياسيّ والدينيّ والإنسانيّ، وهي مصادر غير رقمية يسعى التاريخ إلى استعمالها بأسلوب متسلسل وكمّيّ.

هذا التاريخ المتسلسل، الذي يسمح بدراسة الماضي دراسة دقيقة، يقدّم لنا إمكانيّة قراءة الحاضر بشكل أفضل. إنّ قراءة الحاضر قراءة جيّدة تتلاءم والماضي، تقود بالتدرّج إلى المستقبل، إنّه يتطلّع إلى المستقبل بطبيعته. (Chaunu Pierre, 1975. P. 283).

ينزع هذا النهج التاريخيّ إلى تغليب العنصر الجماعيّ على الفرديّ، والعامّ على الخاصّ. هذا التاريخ لا يهتمّ كثيراً بالأحداث كالمعارك والمعاهدات والملوك وبلاطهم، بل بتاريخ الجماعات المجهولة، وبالطريقة التي يعملون بها وكيف يعيشون ويحبّون. إنّه تاريخ يوميّ أكثر من كونه تاريخاً استثنائياً. وهو يسعى إلى إعادة بناء جوّ الماضي النفسيّ من الداخل، وإدراك التحوّلات في المجتمعات البشريّة في تحوّل العادات والتقاليد وفي نظام التغذية. استخدّم بنسبة كبيرة قضايا مثيرة للجدل اقتبسها من علوم إنسانيّة أخرى، ودمج ذاته في علم اجتماع الإنسان داخل المجتمع (Chaunu Pierre 1978, p. 23). ومنذ أن انتقل التاريخ من الخاصّ إلى العامّ، من الشاذّ إلى المعبرّ، فهو لم ينفكّ يوسّع نطاقه. التاريخ اليوم مندمج مع علم الأعراق البشريّة، وعلم الاجتماع والاقتصاد، وعلم النفس والجغرافيا وغيرها، في حركة تبادليّة.

وهي تعطي العلوم الإنسانيّة عمقًا زمنيًا، هو البديل الأمثل لاختبار ممكن. هذه الطريقة التاريخيّة الجديدة تفترض مسبقًا قلب البيانات المنهجية على مستوى المكان والزمان. إنّه تاريخ كبير يشمل ميادين واسعة. فهو يدعم حقيقة الزمن والحاجة إلى التحليل عبر مجال التاريخ العالمي (Chaunu Pierre) (1978, p. 129). في دراستنا عن المؤسسات المسيحية في لبنان، مع الأخذ بالاعتبار الأمبراطورية العثمانيّة ككلّ والقوانين الإسلاميّة، وجدنا أنّ الوضع الاقتصاديّ الذي عاشته مؤسّسات الأقليّات المسيحيّة هو جزء ضمن إطار جغرافيّ وسياسيّ واسع. الوقف كمؤسّسة يندرج ضمن إطار العالم الإسلاميّ التركيّ والعربيّ، عالم كانت حدوده أقلّ واقعيّة من التبعية الدينيّة والهيمنة العسكريّة.

هذه الثورة في الأسلوب قلبت أيضًا مفهوم الزمن في التاريخ. والدراسة التاريخيّة نقلت اهتمامها من دراما الأحداث وذلك بهدف تحديد مشاكل يمكن إدراكها فقط على المدى الطويل. في الحقيقة، أصبح تاريخ تطوّر الحضارة الماديّة البطيء هو تاريخ الإنسانية.

في إطار تاريخ المؤسّسات الرهبانيّة، تبدو الفترة الزمنيّة بطريقة مزدوجة ومتناقضة. أوّلاً، هناك، على المدى الطويل، الاقتصاد الريفيّ التقليديّ والحضارة الفلاحيّة الشعبيّة المرتبطان بالجمود والتقاليد. ومع ذلك من الجهة الأخرى هناك، على المدى القصير، مجال لدراسة النخبة الثقافيّة التي هي مصدر التجديد والتحدّي. والأديار في هذه المرحلة هي مراكز ثقافيّة، أدّى فيها إنتاج الكتابات الثقافيّة والدينيّة إلى تجدد أدبيّ في العالم العربيّ على المدى القصير، وإلى تطوّر بطيء على صعيد الاقتصاد الزراعيّ على المدى الطويل. باعتماد هذه المنهجية وهذا النوع من التاريخ ننقل بعيدًا من تاريخ لبنان التقليديّ، الذي ينحصر أحيانًا بروايات حول إنجازات وحروب الأمير فخر الدين والأمير بشير. يندرج هذا النمط التاريخيّ ضمن إطار التاريخ التسلسليّ المرتبط مع علوم إنسانيّة أخرى، ويهدف إلى أن يكون جزءًا من

دراسة أوسع حول شروط تطوّر الأوقاف. تطرح هذه الشروط مشكلةً تجدد البنية المناطقية التقليدية، بغية مشاركة كبرى في تطوّر البلاد اقتصادياً وثقافياً.

قراءة المعلومات المختلفة في وثائق الوقف تطرح تأويلات مختلفة ومتناقضة. تسوية الديون، الإعفاء الضريبي، وتقديم الأطعمة، هذه كلها واردة في حسابات «المرايعين» وتشير إلى أنّ أديرة جبل لبنان قامت بدور إنساني بالدرجة الأولى. من جهة ثانية، يدلّ إلغاء عقود المرايعين وسيطرة الوقف على أراضي المزارعين في الجبل، على أنّ الإكليروس كان فعلاً جزءاً من طبقة الملاكين. وفق هذا التأويل احتكر الإكليروس مع وجهاء المقاطعاتيين الأراضي كمصدر أساس للإنتاج. ومع الطبقة البورجوازية في المدن أثقل الإكليروس كاهل المزارع الواقع تحت الديون المتركمة.

في الواقع، دراسة واردات الأديار ومصاريفها تكشف لنا أن الوضع لم يكن واضحاً إلى هذا الحدّ. فسياسة الأديار حول الأراضي، سواء كانت محافظة أو توسعية، ارتبطت بحالة معينة عاشتها البلاد. ومع ذلك فإنّ موقفها الإنساني يظهر عندما كان وضع الدولة الاقتصادي والتطوّر العام فيها يسمحان بذلك.

إنشاء الأوقاف لم يكن بالأمر البسيط، فسكان القرى المحيطة بالمؤسسات الدينية يُظهرون أحياناً سلطةً معنوية على الأراضي التابعة لهذه المؤسسات، لكونهم يعتبرون أنّ أسلافهم هم الذين أعطوا هذه الأراضي للكنيسة وأوقفوها. لكن بعد الاطلاع على هذه المحفوظات ودراستها، وبخاصة صكوك الشراء والهبات المحفوظة في الأديار المختلفة، نلاحظ أنّ الجزء الأكبر من الأراضي حصل عليها الرهبان من جرا التقنين والتدبير. لأنهم كانوا يعملون في الأراضي ويبيعون الإنتاج، وبالربح الذي يجنونه كانوا يشترون الأراضي. والقليل فقط من الأراضي تم وهبها أو وُقِّفها.

دراسة حسابات الأديار وواردات المرايعين ومصاريفهم، ودراسة الصكوك تدعونا إلى اتّخاذ موقف أقلّ صرامة. لأنّ المبادرات المختلفة والخطوات التي

أخذتها الأديار كانت أحياناً تحت وطأة ضغط بعض الظروف السياسيّة. دراسة
مجمّل الوثائق وبطريقة تسلسليّة تسمح لنا بأن نكون أكثر موضوعيّة بالنسبة إلى
المشاكل التي عرفها تاريخ الأوقاف الاقتصاديّ.

المراجع

- AL NOQARI Sheykh Mohammad. (2005). *Les tribunaux ottomans dans les relations entre musulmans et chrétiens dans le bilad al Sham à l'époque ottoman*. Apport des archives des tribunaux religieux des villes: Alep, Beyrouth, Damas, Tripoli aux XVII - XIX siècles. Editions Université de Balamand. Université St Joseph, Institut français du Proche Orient, Beyrouth.
- BRAUDEL Fernand, *La Méditerranée à l'époque de Philippe II*.
- CHANEAU Pierre (1975 - 1998). *L'économie dépassement et Prospective dans Faire de l'Histoire*, Jacques le Goff et Pierre Nora, Tome II, De l'histoire à la prospective Paris. Histoire quantitative, histoire sérielle, Paris,
- COURBAGE Youssef et FARGUES Philippe. (1997). *Christians and Jews under Islam Tauris*, London
- FURET François. (1986). *Le quantitative en histoire dans Faire de l'histoire de Jacques le Goff et Pierre Nora*. Tome 1.
- ISMAIL Adel. (1975 - 2008). *Le Liban documents diplomatiques et consulaires*. Les sources françaises. Beyrouth.
- LEGOFF Jacques. (1975). *La nouvelle histoire*. Paris, p. 508.
- MAYEUR JAOUEN Catherine. *Les chrétiens d'orient au XIX siècle, un renouveau lourd de menaces dans Histoire du christianisme*, vol 11, p. 792 - 849.
- SLIM Souad. (1987). *Le metayage et l'impôt au Mont - Liban aux XVIII et XIX siècles*. Dar el Mashreq. P. 30.
- SLIM Souad. (2007). *The greek orthodoxe waqf in Lebanon during the ottoman Period OIB*. P. 16
- TOUMA Toufic. (1958). *Un village de la montagne au Liban Hadeth el Jébbé*. Paris.

- بيضون؛ أحمد (١٩٨٩)، الصراع على تاريخ لبنان، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت،
- جبران خليل جبران، (١٩٠٦)، قصّة «يوحنا المجنون» في: عرائس المروج؛ تقديم وتعريف جميل جبر.
- الضاهر؛ مسعود، التاريخ الرسمي والتاريخ الأهلي، دراسة في أهميّة المصدر الشفوي، الفكر العربي، ١٩٩٦، ص ١٨٥ - ١٩٨.
- العورة؛ إبراهيم (١٩٨٩)، تاريخ ولاية سليمان باشا العادل، دار لحد خاطر، لبنان، .
- الشهابي؛ حيدر (١٩٨٥)، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، ٣ أجزاء، المكتبة البولسية، أُعيد نشره، أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني.
- المعلوف؛ عيسى اسكندر (١٩٢٠)، «زجلية في وصف الغلاء والجوع والضيق» في مجلة المشرق، أيار، .
- (١٩٠٨)، دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف، بعدا، لبنان، .
- مشاققة؛ ميخائيل، ١٩٨٥. منتخبات من الجواب على اقتراح الأحاب، المكتبة البولسية، أُعيد نشره، أسد رستم وصبحي أبو شقرا،
- فيلم لبناني من إخراج جورج نصر ١٩٥٧.
- متحف في دير مار أنطونيوس قرحيا، ومتحف في جامعة البلمند.
- محفوظات مطرانية بيروت للروم الارثوذكس (١٩٩٥)، ٢ جزئين، بيروت.

استخدام الوثائق في البحث الاجتماعي

خالد زياده^(١)

موضوع استخدام الوثائق في علم الاجتماع لم يتم بحثه بشكل مستفيض ومنهجي، بالرغم من أن باحثين يلجأون إلى الوثائق في أكثر من مجال. وفي سبيل الاحاطة بالموضوع من النواحي النظرية والمنهجية لابد من تحديد الموضوعات التي يمكن فيها استخدام الوثائق. كما لابد من تحديد طبيعة الوثائق المقصودة في هذا البحث. والإطالة على علاقة علم الاجتماع بالعلوم الاقتصادية والاحصائية وانفتاحه على الإنسانيات.

نشأ علم الاجتماع إثر ثلاث ثورات عرفت في أوروبا في القرن الثامن عشر:

- الثورة المعرفية المتمثلة بالاكتشافات العلمية التي جهدت لبروز نظرة جديدة إلى موقع الإنسان من الكون والطبيعة. وتكريس العقلانية في النظر الفلسفي والإنساني، الأمر الذي مهد لمفاهيم الحرية والمساواة.
- الثورة الصناعية التي أحدثت طفرة في الانتاج، الأمر الذي أدى إلى تقليص الاعتماد على العمل اليدوي. وبرز طبقة رأسمالية ستفرض نمط انتاجها على المجتمع.
- ثورة سياسية لعبت فيها أفكار الحرية والمساواة دوراً رئيسياً، أسقطت

(١) خالد زياده: باحث و استاذ سابق في معهد العلوم الاجتماعية.

النظام القديم والحق الالهي وأعلنت المساواة بين المواطنين . ودونت
شريعة حقوق الإنسان المبنية على الحرية الفردية والملكية والتنقل وحرية
الاعتقاد والرأي .

وقد تأسس علم الاجتماع على أيدي فلاسفة، هم نتاج هذه التحولات،
يريدون إخضاع المجتمع للشروط العلمية. أو فهم الظواهر الاجتماعية فهماً
عقلانياً. وإرساء الأسس النظرية لمجتمع تتحقق فيه المساواة والتكافؤ. هذا ما
نجدته في أعمال المؤسسين أمثال أوغست كومت وسان سيمون. وقد عكف
الجيل اللاحق من علماء الاجتماع على دراسة الظواهر الكبرى، مثل تقسيم
العمل الاجتماعي (اميل دوركايم E.DURKHEIM وعلاقة الدين بالرأسمالية
(ماكس فيبر M. WEBER). وقد عكف الباحثون في علم الاجتماع على
دراسة الظواهر التي نشأت في المجتمعات الرأسمالية. وبهذا المعنى فإن علم
الاجتماع بات علم الراهن الذي لا يعير اهتماماً لتاريخية الظواهر.

وقد تطور علم الاجتماع مع تطور علوم الاقتصاد والنفس واللغة.
والتشعب الذي عرفته العلوم الاجتماعية من علم اجتماع العائلة وعلم اجتماع
العمران الخ يعكس هذه القرابة والتأثر بين العلوم. كذلك فإن كتابة التاريخ
تأثرت أيضاً بمناهج علم الاجتماع والاقتصاد.

دافع علم الاجتماع عن علميته باستخدام الاحصاءات والأرقام، أما غايته
فكانت رصد الظواهر الناجمة عن العصر الصناعي وصعود الرأسمالية،
واكتسب علم الاجتماع طابعاً نقدياً في القارة الأوروبية. أما في القارة
الأميركية برز الطابع البراغماتي للأبحاث الاجتماعية وتوظيفها في أغراض
تخطيط المدن ومكافحة الجريمة الخ.

وفي سياق الحديث عن التأثير والتأثير المتبادل بين العلوم الاجتماعية
والإنسانية. سيكون من المفيد أن نعقد مقارنة بين ظهور علم الاجتماع، وبروز
الرواية كشكل أدبي يرصد الظواهر الاجتماعية. ولو عدنا إلى القرن التاسع

عشر، إلى زمن هيجو وفلوبير وبلزاك ودوستوفسكي وديكنز. . سنجد في أعمالهم جهداً لرصد الواقع الاجتماعي تقع في خلفيته المدينة كعالم منتج للظواهر والمشكلات الناجمة عن تشعب العلاقات في مجتمع تجاوز التقاليد. ففي المجتمع الحديث الرأسمالي تتفاقم أزمات العمل والبطالة والفقر، كما تتطور العلاقات الإنسانية وتحضر المرأة في الحياة العامة، استطاعت الرواية أن تدخل إلى ثنايا المجتمع وتفكك علاقاته وعقده. كما استفادت من علم النفس والتاريخ، ومثل علم الاجتماع تشعبت اهتماماتها.

كل هذا لنشير إلى التطور الذي شهده علم الاجتماع على ضوء تطوير منهجيته أو تبادل التأثير مع العلوم الإنسانية بفروعها المتعددة. لقد شهدنا تطوراً لميدان تاريخي عُرف باسم «التاريخ الاجتماعي» وهناك أمثلة كثيرة على هذا النوع من الكتابة التاريخية التي تطورت مع مدرسة «الحوليات» (Les Annales) الفرنسية كما هو معروف. لقد غيرت مدرسة الحوليات كتابة التاريخ، من التاريخ السياسي إلى التاريخ الاجتماعي الذي يشمل كل ظواهر المجتمع، وبدلت من مصادرها، فقد أصبحت كل معلومة ووثيقة مصدراً للمعلومات ومن بين الأمثلة الكثيرة على هذا النوع من التأريخ سأذكر مثلاً بارزاً وهو كتاب المؤرخ الفرنسي أندريه ريمون (A. RAYMOND)؛ وعنوانه: «التجار والحرفيون في القاهرة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر». وهي دراسة نموذجية لأنها تعتمد بشكل كامل على وثائق الحاكم الشرعية. والواقع أن الدراسة تقع بين التاريخ وعلم الاجتماع لأنها تتناول من جهة حقبة تاريخية القرن الثامن عشر، ولأنها من جهة أخرى تدرس خصائص مجتمع مديني في علاقاته واقتصاده وسلطاته المحلية. لقد استخدم الوثائق كاستثمارات واستخدم المنهج الاحصائي وقارن بين المعطيات.

والمثال المذكور يمكن أن يشرح لنا ما هو أبعد من مجرد استخدام الوثائق في التاريخ الاجتماعي. ذلك أن انتقال البحث المنهجي في الاجتماعيات والإنسانيات، إلى البلدان خارج أوروبا، وخصوصاً إلى البلدان

العربية. أظهر أن تطبيق منهجيات علم الاجتماع «الراهن»، يمكن تطبيقها على جوانب وظواهر آنية ومحددة في الزمان والمكان. أما إذا أردنا أن نعمم الظواهر على نطاق أوسع فإننا سنصطدم بالتفاوتات بين الريف والمدينة وبين الأجيال وبين البيئات الثقافية أو الدينية. وبما ان حداثة المجتمعات العربية تتفاوت بين المناطق والبيئات. وبما أن مجتمعاتنا مازالت تحمل الكثير من سمات التقليد، بل إن التقليد يستوعب حداثة المؤسسات والقيم، (حسب جورج بلانديه في الأنثربولوجيا السياسية) فإن دراسة الظواهر لا بد أن ندرسها على ضوء أصولها الضاربة في الزمن. ولا يمكن القطع بين القديم والحديث، بسبب التداخل بينهما، فإن الحداثة التي قطعت مع الماضي والتقليد عبر الثورة، لا يمكنها أن تلغي المؤثرات العميقة للقيم والعادات والمأثورات والمؤسسات التقليدية والمستمرة في الحاضر.

والواقع أن المجتمعات الأوروبية التي ولد فيها علم الاجتماع، تنبه الدارسون فيها إلى أن الحداثة التي نجمت عن ثورات كبرى، لم تستطع أن تلغي قيم لا يمكن إدراك تأثيرها إلا بالعودة إلى مصادر تعود إلى العصر الوسيط. لا أتحدث هنا عن بروديل (F. BROUDEL) في عمله الضخم حول مجتمع المتوسط. ولكنني أشير إلى جاك لوغوف (J. LEGOFF) في الأنثربولوجيا التاريخية حيث درس مظاهر القداسة والبطولة والحسد والاحتفالات في تأثيراتها العميقة العائدة للقرون الوسطى.

- الوثائق:

إذا كان موضوع بحثنا هو استخدام الوثائق في البحث الاجتماعي، فلا بد من الإشارة إلى أن استخدام الوثائق مازال في بداياته. ويعود الأمر لسببين رئيسيين:

- أن التنبه إلى قيمة الوثائق قريب العهد، والدراسات التاريخية أو الاجتماعية التي تستخدم الوثائق ترجع إلى عقود قليلة. والذين تنبهوا إلى

أهمية الوثائق هم المؤرخون الذين عثروا في الوثائق على معطيات ومعلومات لا تتوفر في المؤلفات التاريخية والمذكرات والحواليات الخ .

- إن الوصول إلى الوثائق ليس بالأمر السهل . كذلك فإن مجرد الوصول إليها لا يعني سهولة استخدامها . فأغلب الوثائق على أنواعها التي سنذكرها بعد قليل ، مازالت غير مصنفة وغير مفهرسة مما يرتب على الباحث جهداً مضاعفاً للاستفادة منها .

إن كل رسالة أو مستند أو خطاب يمكن أن نعتبره بمثابة وثيقة يمكن أن يستخدمها الباحث ، إن لجهة المعلومات التي تتضمنها أو كونها تؤيد وجهة نظر أو تثبت رأي . إلا أن ما نقصده بالوثائق هو تلك الحجج أو البيانات أو الأحكام أو التقارير الصادرة عن هيئة أو مؤسسة ، والتي تتميز بالاستمرارية على مدى زمني مديد . والأمثلة على ذلك كثيرة منها : الوثائق الحكومية - وثائق المحاكم الشرعية - الوثائق الكنسية - المراسلات القنصلية - المقررات البلدية - البيانات التجارية .

إن أهمية الاستمرارية والتراكم يتيح مقارنة المعطيات والأرقام والاحصاء .

لكن أهمية الوثائق ليست في المعطيات والأرقام على أهميتها للباحث في الشؤون التجارية والاقتصادية عامة ، أو الباحث عن تطور أسعار السلع وغلاء المعيشة . أو تطور أرقام الولادات والوفيات الخ . الأهمية الأخرى للوثائق تكمن في دراسة تطور المؤسسات نفسها ووظائفها . وكذلك أدوار الشخصيات وأصحاب المناصب . واستمرار وتبدل قيم الوجهة والتأثير الاجتماعي وعلاقة عامة الناس بالمؤسسات والتبدل الذي طرأ عليها ، إن كانت مؤسسات حكومية أو دينية أو بلدية أو غير ذلك .

من الوجهة المنهجية تم استخدام الوثائق باعتبارها مصدرًا للمعطيات القابلة للمقارنة ، وذلك باستخدام المنهج الاحصائي الأمر الذي يحتاج إلى فهرسة وتصنيف الوثائق ، وهو جهد مسبق ومستقل عن عمل الباحث . لكن من

الضروري النظر إلى نوع من الوثائق (شرعية أو حكومية أو بلدية) كوحدة متكاملة وكنص صادر عن هيئة ذات سلطة ومصالح تستند إلى مشروعية قانونية أو دينية. وهذا الأمر يتطلب من الباحث الخبرة في مجال تفكيك النصوص بالاستعانة باللغويات والأدبيات التي أصبحت جزء لا يمكن الاستغناء عنه في الدراسات الإنسانية والاجتماعية.

ويمكن أن أحيل الباحثين إلى كتاب بارز في هذا المجال وهو البحث السوسولوجي تيثودور كابلوف (T. KAPLOV) الذي يرى أن تقنيات التاريخ الوصفي وإن اختلفت عن تقنيات البحث السوسولوجي إلا أنها تتقاطع في حقل مجاور هو حقل التاريخ الاجتماعي أو علم الاجتماع التاريخي، يقول: «يسعى المؤرخ إلى إعادة خلق أحداث مهمة من الماضي وإقامة علاقة، ذات دلالة، بينها وبين الحاضر بينما يجتهد عالم الاجتماع لاستخراج تصميمات حول السلوك الاجتماعي من خلال عينة «ممثلة للأحداث الماضية».

والواقع أن الوثائق التي تعود لمؤسسات كالتي سبق ذكرها، والتي تتصف بالتكرار والاستمرارية تسمح باستخراج عينات مناسبة في الموضوعات التي تشير إلى علاقات بين فئات اجتماعية أو العلاقة مع السلطة القائمة وكيفية اشتغال المؤسسات، إلى غير ذلك من الموضوعات وهذا ما كنا قد أجريناه في أبحاث تعتمد بشكل رئيسي على مادة وثائقية.

انطلق في ورقتي هذه من القناعة بأن دراسة الظواهر الاجتماعية الراهنة في مجتمعاتنا لا يفهم إلا على ضوء الماضي، وذلك بسبب تأثير التقليد في حياتنا الراهنة. وبسبب ما يمكن أن نسميه التجاذب أو الصراع بين الماضي والحاضر وبين التقليد والحداثة.

كما أنني أنطلق من القناعة بأن الانفتاح بين العلوم الإنسانية والاجتماعية أصبح اليوم واقعاً لا يمكن تجاوزه أو تجاهله. علماً بأن كل علم إنما يتطور من خارجه. ومن التحديات التي تفرضها عليه الأسئلة الآتية من خارج الاختصاص الضيق.

وإذا كان لا بد لي من اقتراح في نهاية هذه الورقة، فإنني أرجو أن تدرج مادة دراسة الوثائق ضمن مواد معهد العلوم الاجتماعية. وذلك على مستوى الجدارة والدبلوم، وخصوصاً بالنسبة للطلاب الذين يريدون أن يتجاوزوا دراسة الظواهر الآنية والذين تشغلهم قضايا متعلقة بتعشر أو تداخل المفاهيم والقيم الاجتماعية.

شروط نشر الأبحاث في المجلة

ترحب مجلة العلوم الاجتماعية باسهامات الباحثين والكتاب في ميادين العلوم الاجتماعية كافة، والمجلة تفضل أن تكون الأبحاث أصيلة أو مبنية على بحث ميداني. ويقصد بالأصالة تلك التي لا تقوم على تجميع الأدبيات فقط ولكنها تخلص إلى ابتداع نص جديد وربطه في اهتمامات البحث المطروح.

الشروط العلمية الأخرى:

١. يشترط في البحث ألا يكون قد قدم للنشر في أية مجلة أخرى سواء تم نشره أو لم يتم.
٢. تعرض البحوث على محكمين من ذوي الاختصاص والخبرة العالية، يتم انتقاؤهم بسرية تامة وذلك لتبين مدى أصالتها وموافقته شروط النشر المعمول بها في المجلة، ومن ثم مدى صلاحيتها للنشر.
٣. يجوز للمجلة ان تطلب اجراء تعديلات على المادة المرسلة وتحتفظ بحقتها في نشر المادة المجازة وفق خطة هيئة التحرير واللجنة الاستشارية للمجلة.
٤. أن ظهور المادة وترتيبها في المجلة يخضع لاعتبارات فنية فقط، وما ينشر فيها يعبر عن رأي كاتبه.

الشروط الفنية:

١. تقدم البحوث (مدققة ومصححة طباعياً ولغوياً) ومنضدة على الحاسوب وفق شروط النشر في المجلة، وترسل (مرفقة بالسير الذاتية للباحث أو الكاتب إلى رئيس التحرير مطبوعة على ثلاثة نسخ ومعها قرص CD).

٢. يرفق البحث بملخص عنه لا يزيد عن العشرة سطور، يتضمن: موضوع الورقة/القضية المطروحة، ب) المنهجية المعتمدة، ج) أبرز النتائج/الأفكار.

٣. الخط:

- يعتمد خط العربي: Simplified Aral 14.

- ١٢ للغات الأجنبية.

٤. تكتب الأسماء الأجنبية الواردة في النص باللغة العربية، على أن تكتب عند أول ورود لها بلغتها الأصلية بين قوسين.

٥. يجب ألا يتجاوز عدد الكلمات في المقالات المرسلة إلى المجلة ٧٠٠٠ كلمة، بما فيها الملخصات والجداول والمراجع...

٦. في حال وجود مخططات أو أشكال أو معادلات أو ما يشبهها فإنه يتم أخذها بالماسحة Scanner وإرفاقها بالملف الإلكتروني كصورة.

٧. ترقيم العناوين في النص:

- تعطى العناوين الرئيسية الترقيم التالي: أولاً، ثانياً، ثالثاً، الخ (bold)

- تعطى عناوين المستوى الثاني الترقيم التالي: ١، ٢، ٣، الخ

- تعطى عناوين المستوى الثالث الترقيم التالي: أ، ب، ج، الخ

- أما المستويات: الرابع وما بعده فللمؤلف أن يختار ما يراه مناسباً فيها باستثناء ما ورد في المستويات الثلاثة الأولى.

٨. المصادر والمراجع في متن النص

- توضع المصادر والمراجع في متن النص بين قوسين، بحيث يذكر

اسم المؤلف وتاريخ النشر. مثال: (النعيمي، ٢٠٠٥). وإذا كان

للنعيمي مرجعان في العام نفسه، يقال: (النعيمي، ٢٠٠٥ - أ)،

و(النعيمي، ٢٠٠٥ - ب).

- لا تذكر الألقاب (الدكتور، الأستاذ)
- إذا كان هناك أكثر من مؤلف تضاف كلمة «وآخرون» (النعيمي وآخرون، ٢٠٠٦).
- إذا كان هناك اقتباس أو أراد كاتب الورقة الإحالة إلى صفحة معينة يضاف رقم الصفحة (النعيمي، ٢٠٠٥، ص. ٢١).
- إذا كان المرجع أجنبيًا يذكر اسم المؤلف معربًا في متن النص، مثال: وهذا ما يتفق مع ما توصل إليه كولمان (Colman, 1966)
- المرجع الإلكتروني في متن النص: تنطبق عليه قواعد كتابة المرجع الورقي: (المؤلف، السنة والصفحة إن وجدت) (مثال: P. Moliner, 2003 & J. Vidal)، إن كان الموقع لجهة رسمية تكتب الجهة، مثال: (وزارة الشؤون الاجتماعية، ٢٠١٠)

٩. الهوامش

- تخصص الهوامش للملاحظات والشروح الإضافية. وتدرج في أدنى الصفحة.
- ترقم الهوامش ألياً (وليس يدوياً) عن طريق (Insert/Reference/Footnote) وبصورة متتابعة من أول الورقة إلى آخرها.
- الهامش الأول يخصص للتعريف بالكاتب: الصفة (أستاذ في معهد العلوم الاجتماعية، مثلاً)، مكان العمل (في الجامعة اللبنانية - الفرع الأول، مثلاً). ويضيف الكاتب على هذا التعريف عنوانه الإلكتروني.

١٠. لائحة المصادر والمراجع - قواعد عامة

- توضع لائحة كاملة بالمصادر والمراجع في نهاية الورقة.
- لا يذكر في هذه اللائحة أي مصدر أو مرجع لم يرد في متن نص الورقة.

- لا يذكر أي مصدر أو مرجع في متن النص لم يرد في هذه اللائحة.
- لا تترجم المراجع الأجنبية، بل تذكر كما هي (فرنسية، انجليزية).
- توضع لائحتان منفصلتان: لائحة للمصادر والمراجع العربية ولائحة ثانية للمصادر والمراجع الأجنبية.
- تضم كل لائحة جميع المصادر والمراجع المستخدمة (مقالات، كتب، أطروحات، الخ.)، مرتبة أبجدياً بحسب اسم العائلة للمؤلف.
- لا تعطى للائحة المصادر والمراجع أرقاماً تسلسلية، الترتيب الأبجدي يفني بالغرض.
- إذا كان المرجع أو المصدر صادراً عن مؤسسة (حكومية أو غير حكومية) ولا يوجد مؤلف (شخص) تعتبر المؤسسة هي المؤلف.

١١. المراجع الالكترونية

تكتب المراجع الالكترونية كما بقية المراجع الورقية، وفق التسلسل الابجدي لكنية الباحث، أو لاسم الموقع الرسمي، ويذكر عنوان الموقع كاملاً مع ذكر تاريخ استرجاع المقال أو البحث أو المعلومة... في الموقع. (مثال: الأمم المتحدة، (استرجع في ٢٩/٨/٢٠١٣) <http://www.un.org/arabic/esa/ageing/arabaging.htm>)

* ملاحظة: إن توفر المنهجية الدقيقة والتوثيق الصحيح للمراجع وسلامة اللغة وحسن الصياغة يعتبر من الشروط الأساسية للنشر.